أعضاء إدارة المجلة

المدير الشرفي: أ.د. نور الدين غوالي ، رئيس جامعة أبو بكر بلقا يد تلمسان

مدير المجلة: أ.د. محمد سعيدي عميد كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

رئيس التحرير: أ.د. عبد الحق زريوح

اللجنة العلمية:

أ.د. مصطفى أوشاطر — أ.د. محمد بشير — أ.د. خير الدين سيب

أ.د. معروف بلحاج — أ.د. مبخوت بودواية — د. غوثي بسنوسي

د. مزوار لخضر — د. مقنونيف شعيب — د. العربي بوحسون

د. فقيه العيد — د. يحي بشلاغم — د. عبد القادر بودومة

أ. نقادي سيدي محمد — أ. مليابي محمد — أ. بلخير عثمان

الهيئة الاستشارية:

أ. د. أبو عمشة نبيل (جامعة سوريا) — أ. د. وجيه حمد (جامعة الأردن)

أ.د. عبد الحميد بورايو(جامعة الجزائر) — أ.د. بلحاج كاملي (جامعة سيدي بلعباس)

أ د. بول بوندلفي(مونبيليه– فرنسا) — أ.د عبد الهادي بن منصور (باريس– فرنسا)

د. جيلالي حاج سماحة (جامعة مستغانم) — د. محمد بن سعيد (جامعة وهران)

أ.طيب ولد عروسي(باريس– فرنسا)

الأمانة العلمية و التقنية:

د. الغالي بن لباد — د. عبد الله بن معمر — أ. زازوي موفق — أ.ع جلطي محمد

أ. بن معمر بوخضرة — أ. بلبشير محمد — أ. عطار عبد المجيد — أ. مونيس بخضرة

أ .كبار عبد العزيز — أ. لحلاح حسين — أ. بلقرنين عبد القادر — ت.س. وشاني أمين مصطفى

فهرس الجزء الأول

1- الاستشراف والتراث الفكري العربي الإسلامي بين الرؤية الامبريالية والرؤية العلمية.....05

الأستاذ سعيدي محمد كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية جامعة – أبو بكر بلقايد – تلمسان

2- الاستشراق حقل معرفي تعريفي بالإسلام ودعوي في بلاد الغرب الوجه الآخر للاستشراق.....17

الأستاذة عقيلة حسين جامعة الجزائر قسم الشريعة

3- موقف الإستشراق من أصالة الفلسفة الإسلامية.....31

الأستاذ مرزوق العمري / قسم العلوم الإسلامية جامعة باتنة – الجزائر

4- الاستشراق والإسلام من خلال شخصية كرستيان سنوك هورخرونيه.....39

الأستاذ خشاب الصادق جامعة المدية

5- نحو نظرية جديدة في حوار الثقافات:الإرث اللغوي والعقدي المشترك.....46

الأستاذ وجيه حمد عبد الرحمن عميد كلية الآداب جامعة الإسراء- عمان – المملكة الأردنية الهاشمية

6- عندما يقدم الأدب" الرواية التاريخية" رسالة في حوار الحضارات كتاب _الأمير لواسيني الأعرج– نموذجا–.....65

الأستاذة عرجون الباتول جامعة الشلف قسم الآداب

7- ماهية الاستشراق (النشأة– المناهج والأهداف– الأصناف والوسائل).....78

الأستاذ عبد الحليم ريوقي جامعة الجزائر -02- بوزريعة

8- الحوار والإعلام.....92

الأستاذ أحمد حلواني جامعة دمشق سوريا

9- دليل التشاخص أو التذايث بين الفخر الرازي والمستشرق ألنداز(Arnaldez).....103

الأستاذ مختار لزعر جامعة عبد الحميد بن باديس"مستغانم" كلية الآداب والفنون قسم اللغة العربية وآدابها.

10- تاريخ الأندلس في مرآة الاستشراق الإسباني بين العلمية والضدية (الموضوعية والنرجسية).....109

الأستاذ خالد اليعبودي جامعة محمد بن عبد الله فاس– المغرب

11- الاستشراق نقطة اتصال الشمال والجنوب.....130

الأستاذ بن لباد الغالي جامعة تلمسان

12- الإسلام ومفهوم حوار الثقافات.....138

الأستاذة منيرة بن نصيب قسم علوم الإعلام والاتصال كلية العلوم السياسية والإعلام جامعة الجزائرIII

13- الاستشراق مصنع إمداد فكري لمواد الغزو الثقافي.....147

الأستاذ عبد القادر بن عزّة (جامعة تلمسان– الجزائر)

فهرس الجزء الثاني

14- الإسلام في مصادر التدوين الأوربي من مدونات الجدال المسيحي إلى مصنفات الاستشراق الحديث

الأستاذ أحمد رنيمة أستاذ التاريخ الحديث جامعة الشلف-الجزائر

15- مدخل إلى حوار الثقافات . رؤية جديدة للشروط والوسائل .

الأستاذ محمد الفاضل اللاّفي رئيس المركز المتوسطي للدراسات التّاريخية باريس / فرنسا

16- الاستشراق و الأنثروبولوجيا والاستعمار –دراسة تحليلية لطبيعة العلاقة–

الأستاذ بوحسون العربي كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

17- تفكيك محتوى الخطاب الاستشراقي

الأستاذ ناجي شنوف جامعة المدية –الجزائر–

18- منهج المدرسة الاستشراقية الأمريكية مقارنة بالمدرسة الاستشراقية الأوربية.

الأستاذ خضرة بن هنية جامعة الجزائر

19- المقاربة المقارنية للظاهرة الأدبية عند إدوارد سعيد

الأستاذة فتيحة بن يحيى جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان (الجزائر) كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية وآدابها

20- لغة العرب بين التحقيق والتأصيل دراسة موازنة بين جهديْن استشراقييْن

الأستاذ عبد القادر سلاّمي قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب واللغات جامعة تلمسان

21- الاستشراق في بلاد المغرب الإسلامي.

الأستاذة ملوكي جميلة جامعة تلمسان

22- الاستشراق الفني و شعرية الجسد الشرقي التعرية بوصفها فعلا كولونياليا

الأستاذ عبد القادر رابحي كلية الآداب و اللغات و العلوم الاجتماعية و الإنسانية جامعة مولاي الطاهر. سعيدة

23- الذات والآخر في الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس

الأستاذة سهى بعيون باحثة في الدراسات الأندلسية

24- مرايا الوعي من الاستشراق إلى حوار الحضارات

الأستاذ عبد المجيد عطار جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان –

25- حوار الحضارات: حوار هويات ثقافية

الأستاذ ة كاري نادية أمينة أستاذة بجامعة تلمسان كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية قسم العلوم الاجتماعية

26- الإسلام و حوار الحضارات

الأستاذ عواج بن عمر جامعة تلمسان

27- Muslims' Reactions towards Orientalism: For or Against?

SENOUCI née MEBERBECHE Faïza.Faculté des Lettres et des Langues - Université Abou-Bakr BELKAID – Tlemcen

كلمة العدد

يُطلّ علينا العدد الثاني من مجلة "الإنسان والمجتمع" خاصّاً بأعمال ملتقى دولي حول الاستشراق. وهو يضمّ دراسات وأبحاثاً لأساتذة أجانب ومحليين. وقد جاء هذا العدد متنوعا بتنوع محاوره التي مسّت قضايا عديدة من هذا الميدان المعرفي الكبير. وهي تختصّ بماهية الاستشراق والمستشرقون ومصادر التاريخ الإسلامي، والمناهج الاستشراقية وحوار الثقافات، وما إلى ذلك من موضوعات مهمّة، يبدو لنا أنّها قيمة مُضافة في مجال الدّراسات الإنسانية والاجتماعية.

وبهذه المناسبة، نُجدّد دعوتنا إلى جميع الدّارسين المهتمّين بحقل الدّراسات الإنسانية والاجتماعية أن يُفيدونا بما لديهم من دراسات وبحوث لإثراء هذه المجلّة الفتيّة.

رئيس التحرير/ أ.د. عبد الحقّ زريوح

الاستشراق والتراث الفكري العربي الإسلامي

بين الرؤية الامبريالية والرؤية العلمية

أ.د سعيدي محمد

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

جامعة – أبو بكر بلقايد – تلمسان

المقدمة :

نسعى في هذه الدراسة إلى مساءلة ظاهرة الاستشراق كشكل من أشكال التفاعل المعرفي والثقافي والحضاري والديني بين الشعوب. لقد ضغطت علينا هذه المساءلة عبر عدد من الأسئلة والتي صنعنا منها منطلقا معرفيا ومنهجيا وموضوعاتيا لهذه الدراسة .

ولعل أهم هذه الأسئلة:

- ما معنى الاستشراق ؟
- ما هي طبيعة التربة المعرفية والتي ولد فيها ؟
- ما هي أبعاده المعرفية والإيديولوجية ؟
- ما هي وظائفه ؟
- ما هو مستقبله في الثقافة العربية الإسلامية الجديدة ؟

الاستشراق : التعريف والمسيرة

لقد ظل الاستشراق عبر مراحل تاريخه الطويل محملا بجروح عميقة ودامية، الأمر الذي أدى بالكثير من الباحثين إلى التعامل معه تعاملا حذرا ويقظا وأحيانا مخيفا. وفسر الباحثون أنفسهم أسباب هذا التعامل مرجعين إياها إلى تلك المسيرة الدينية والتاريخية والسياسية والإيديولوجية والاثنولوجية التي صاحبته منذ نشأته الأولى والتي كانت سببا رئيسا في اكتسابه وظائف عنصرية واستعمارية بامتياز .

ولد الاستشراق وتربى وترعرع في أرض فكرية و ثقافية تفتقد إلى التأسيس العلمي الموضوعي النزيه والشريف .

وهو أمر أوقعه وأوقع معه المفكرين والنقاد وانتاجاتهم الاستشراقية في دائرة المحظور والممنوع والمرفوض والخطير والعدائي... ولقد أوجد هذا الوقوع لنفسه عددا من التبريرات الرافضة رفضا مطلقا للاستشراق والتصدي له على أنه عدو مسيء لشعوب الشرق وخاصة الشعوب الشرقية العربية الإسلامية ولعقيدتها ولثقافتها ولتاريخها ولحضارتها ولآدابها وللغتها ولفنونها. ومن هذا المنطق بات الإنتاج الاستشراقي شرا على المجتمع الإسلامي.

فالاستشراق هو على حد قول أحد الرموز البارزة في المشهد النقدي الاستشراقي الأستاذ ادوارد سعيد " فهو أسلوب من الفكر قائم على تميز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب" [1] وهو أيضا "أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه"[2] .

لقد ظل الاستشراق مند نشأته الأولى كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، محملا بقيم العنصرية والاستعمار والامبريالية ، فهو منظومة فكرية وثقافية وإيديولوجية قائمة أصلا على مبدأ التمييز الثقافي والاجتماعي والسياسي والعقائدي والاقتصادي وحتى العنصري البيولوجي الجنسي بين الشرق والغرب، والغرب وبصورة أكثر شمولية بين الدونية الشرقية والفوقية الغربية. وكانت لهذه النزعة أثار بارزة في توجيه الفكر الغربي نحو الشرق ودراسته دراسة لغوية وأدبية وتاريخية وحضارية وثقافية ودينية و علمية بل وخيالية كذلك... ومن أجل تلك الرسالة الاستعمارية أصبح الاستشراق يحتل مكانة هامة بين مختلف مجالات العلم والمعرفة لدى الاستعمار وميول الغرب الاستغلالية "[3].

إن الحديث عن الاستشراق دفعة واحدة يتعدى طاقاتنا المعرفية والمنهجية والموضوعاتيه وذلك في اعتقادنا على الأقل، يعود إلى تاريخه الطويل والى غزارة مادته وتنوع فروعها ومجالاتها وتعدد أقطابها الإبداعية وتنوع رؤى ومناهج وأهداف أصحابها .

ولعل أول سؤال ظل يضغط علينا وبقوة في هذه المقدمة الافتتاحية هو وبكل بساطة : ما معنى الاستشراق ؟ إننا لا ننكر جهود الباحثين المصابين بهاجس البحث عن تعريف دقيق وصحيح للاستشراق، وتعريف واحد وموحد من حيث الطرح العلمي والوظيفي. فلقد أبدعوا له تعريفات متعددة ومختلفة، حيث اعتمد بعضهم التعريف اللغوي المستمد أصلا من اللفظة نفسها والتي اعتبروها لفظة مركبة من لفظة الشرق مع إضافة التركيبة الصرفية " است " والتي تعني في قواعد اللغة العربية طلب الشيء، فالاستشراق إذن هو طلب الشرق"[4] في حين اعتمد البعض الآخر التعريف الفكري والايدولوجي والتاريخي معتبرين أن الاستشراق هو ما قام به ويقوم به بعض مفكرين الغرب للوقوف على معالم الفكر الإسلامي وحضارته

وثقافته وعلومه، كما يطلق لفظ مستشرق على المفكرين المستغلين بدارسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية "[5].

ولعل ما يمكن الاستشارة إليه، أن عددا كبيرا من الباحثين المهتمين بظاهرة الاستشراق حاولوا أن يصنع كل واحد منهم تعريفا خاصا به مستمدا من رؤيته للموضوع ومن فهمه له ولوظيفته العلمية والتفافية والحضارية والدينية والسياسية. ولا يمكن لنا أن نغادر هذه المحطة التعريفية بدون ذكر محاولات الأستاذ **ادوارد سعيد** الذي اقترح تعريفا خاصا بالاستشراق عبر ثلاث محطات معرفية وسياسية وتاريخية حيث يقول في المحطة الأولى : "إن الاستشراق هو كل من يدرس الشرق أو يكتب عنه أو يبحثه، سواء في جوانبه المححدة أم العامة، و سواء كان هذا الشخص انتروبولوجيا، أو عالم اجتماع، أم مؤرخا، أم فيلولوجيا (فقة لغة). إنما هو مستشرق، وما يفعله أو نفعله هو استشراق"[6] ثم يضيف في المحطة التعريفية الثانية: "الاستشراق أسلوب من الفكر قائم على تمييز كياني (أنطولوجي) ومعرفي (ابستمولوجي) بين الشرق وفي معظم الأحيان الغرب "[7].

ليصل إلى محطة الثالثة في تعريفه للاستشراق قائلا :

إذا اتخذنا من أواخر القرن الثامن عشر الانطلاق محددة تحديدا تقريبيا، فان الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفة المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق... وباختصار الاستشراق بوصفة أسلوبا غربيا للسيطرة على الشرق وإعادة بناءه والتسلط عليه."[8]

فلقد حصر الاستشراق، ولمدة من الزمن في حقل معرفي وإيديولوجي مغلق، رسم تضاريسه وححدها قطبان متفاعلات بينهما تفاعلا عضويا وهما العنصرية والاستعمار إلى درجة أصبح فيها مستحيلا الحديث عنه خارج دائرة السيطرة والاستغلال. حيث أصبح في العرف الفكري والإيديولوجي الاستشراق مرادفا وبامتياز للاستعمار أو كما يقول **ادوارد سعيد** مرادفا للحركة الامبريالية واستعباد الشعوب الشرقية ونهب ثرواتها وخيراتها. فلقد تميز الاستشراق مند ولادته الأولى بنزعة "تقوم على احتقار الحضارات الشرقية بصفة عامة والإسلامية بصفة خاصة. وأصبغت عليها طابع التخلف والانحطاط وذلك راجع في نظرهم إلى أن العقول الإسلامية تحجرت في حضارة الأوهام والخيال التي أصبحت حاجزا مانعا أمام كل اختراع وتقدم" [9].

ولعل ما يمكن الإشارة إليه في البدايات الأولى لمسيرة الاستشراق، أن جل الباحثين أو ما يمكن تسميتهم المستشرقين الهواة أي غير الأكاديميين في مجال البحث العلمي، كانوا من صنف رجال الأعمال و رجال الإدارة و العسكريين و رجال الدين التبشيريين و السياح المغامرين المولعين بالعجائبية و الغرائبية و الذين

نزلوا إلى الميدان الشرقي حيث سجلوا ما استطاعوا إلى ذالك سبيلا من الثقافة الشرقية وترجموها و نقلوها و قدموها جاهزة لإدارتهم الاستعمارية التي وجدت فيها مادة خصبة لتعرف على هذه الشعوب الشرقية و أنماط تفكيرها و عاداتها و تقاليدها و معتقداتها و أدبها و فنونها . حيث " اقتصر هدفهم على التعرف على الحقل المزمع احتلاله و الولوج إلى أفئدة الشعوب" (10).

لقد صاحب هذه المرحلة إنتاج معرفي و فكري و تاريخي غزير، حيث اتجه المستشرقون نحو التراث العربي الإسلامي فجمعوه و حققوه و درسوه و رتبوه و بوبوه و أخرجوه في كتب و كراسات ومجلدات، كما حملوه قيما غربية و غريبة عن الثقافة العربية الإسلامية و عن هويتها الحضارية .

و لم تقف الاعتداءات الاستشراقية عند حدود الإنتاج الفكري واللغوي والأدبي و الفني و الثقافي والحضاري العربي بل تطاولت لتمس و بصورة عجيبة و غريبة و رهيبة المقدسات الإسلامية حيث عمل وعمد بعض المستشرقين من أجل نشر و ترسيخ أفكار و قيم فاسدة سيئة خاطئة و خطيرة ومدنسة حول الإسلام و القرآن الكريم و الرسول (ص) و السنة النبوية و الشخصيات الدينية و الخلفاء الراشدين و الفقهاء و العلماء و أصول الفقه الإسلامي.

لقد اتصفت كتابات هؤلاء المستشرقين حول القرآن الكريم – بشكل عام – بإبراز المتشابه منه والقراءات الشاذة، و تأويل الآيات و تحميلها أكثر مما تحتمل، كما أبرزوا خلافات ووجهات النظر بين المفسرين، و ما إلى ذالك في نهج كثيرا ما يرمي إلى التشكيك والتشويش في مجال الدراسات القرآنية، و لم يكن حظ الحديث و علومه بأقل من ذالك، بل إن مجالهم فيه أكبر و أوسع رحابة...الأمر الذي مكنهم من إغراق المكتبة الاستشراقية بوافر من الكتب التي تشكك في السنة شكلا و مضمونا...أما كتاباتهم في الفقه الإسلامي، فقد أبرزوا فيها بشكل عام كتب الخلاف، و بنوا عليها مرونة الشريعة إلى حد وصل في نهايته إلى أن أحكام الشريعة كأنها بنيت على الهوى...والذي يتتبع هذه الكتابات يلحظ من أول وهلة النية المبيتة أو الجهل المكشوف "(**11**).

و في هذا الصدد، نذكر أعمال :

يوسف شاخت : أصول الفقه (12)

جولد سيهر : مذاهب التفسير الإسلامي (13)

و قد كان لهذا الموقف السلبي، الخاطئ و الخطير الصادر عن المستشرقين إزاء الثقافة العربية الإسلامية و إزاء القرآن الكريم و السنة النبوية وإزاء مصادر التشريع الإسلامي – كان لهذا الموقف– وقع عميق و كبير على الذات الفكرية العربية الإسلامية حيث برزت فيها حركة مضادة و معاكسة هدفها الأول و الأسمى التصدي لكل فكر إستشراقي مسيء للثقافة العربية الإسلامية باعتبار أن مقاصده كانت واضحة و لا تحتاج إلى شرح أو تفسير وتأويل، فهي كانت دوما وأبدا محملة بقيم لا تمت للعلم والموضوعية بأية صلة كانت، و بالتالي فإن الاستشراق بهذه الصورة و في هذه الحالة ليس علما على الإطلاق يكشف عن حقيقة، بل هو سلاح في أيدي الدول الغربية لتحجيم الأنا و هيمنة الآخر، يكشف عن الغرب عقليته و تاريخه و أهدافه و مناهجه أكثر مما يكشف عن الموضوع المدروس"[14].

و في هدا الصدد، نذكر رأي الأستاذ زكي مبارك و الذي اعتبر وقف المستشرقين المعادين للإسلام والثقافة العربية الإسلامية، قد قدموا خدمات جليلة للإسلام نفسه وبدون أن يشعروا بذلك حيث يقول "أن خصوم الإسلام من المستشرقين خدموا الإسلام بخصومهم أجل الخدمات، فقد عمدوا إلى القرآن والحديث فطبعوا كل ما يتصل بهما من جيد المؤلفات و فهرسوها ورتبوها ترتيبا تعجز عنها مشيخة الأزهر الشريف"[15] .

غير أن هذا الاعتقاد حول الطابع السلبي و السيئ و الخاطئ و الخطير للاستشراق هو اعتقاد جزئي و ليس عاما، وإن كان في حقيقة الأمر يحمل الكثير بين طياته ما يؤيده، فللاستشراف وجه آخر لا يمكن التنكر له جملة وتفصيلا، فمن المستشرقين من كانت له أياد بيضاء على الثقافة الإسلامية العربية. وتحقيق التراث وإخراجه، وساهم بشكل فعال في شرح و توضيح المفاهيم والأطروحات الإسلامية لغير المسلمين و لغير الناطقين باللغة العربية... فثمة أفراد يدرجون تحت كل التقسيمات التصنيفية للاشتشراق ذوي نظافة و شرف لكنهم هامشيون في الفكر الاستشراق المعاصر والجديد و هامشيون في الدوائر الثقافية الغربية و هم الذين يحسون عمق الأزمة المنهجية و فساد علاقة الشرق بالغرب... حتى بلغ بهؤلاء المخلصين من المستشرقين الذين قرأوا الإسلام بعمق و صفاء وإخلاص و نزاهة بحيث أن اعتنقوا الإسلام"[16] .

لقد اهتم عدد كبير من المستشرقين بالتراث العربي الإسلامي اهتماما علميا بعيدا عن الأطروحات الاثنية و العرقية و الإيديولوجية الضيقة، فاتجهوا نحو البلدان العربية الإسلامية للدارسة و للبحث وللعمل غير أن حظ أغلبهم كان سيئا جدا، حيث تزامنت زيارتهم إلى مواطن هذا التراث العربي الإسلامي مع مرحلة

استعمار دولهم الأصلية لهذه الأوطان العربية الإسلامية الشرقية و الغربية، فكان لابد و أن توجه لهم التهمة نفسها التي اتهمت بها دولهم و بالتالي يتم تصنيفهم تصنيفا استعماريا حتى وإن كان هذا التصنيف إجحافا في حق هؤلاء المستشرقين وفي حق رسالتهم العلمية. هؤلاء الذين اهتموا بالثقافة و بالتراث العربي الإسلامي اهتماما كبيرا في الوقت الذي قابل فيه عدم اكتراث الفكر العربي المعاصر بتراثه إلا قليلا منه. و قد لا نبالغ إذا قلنا أن الفكر الاستشراقي كان بمثابة المنبه للفكر العربي المعاصر لقيمة تراثه و لضرورة العناية به و استثمار ما يزخر به من قيم علمية هذا من جهة و من جهة أخرى إن الفكر العربي المعاصر لم يكتشف و لم يتطلع و لم يقرأ جزءا كبيرا من تراثه لولا لم تكن تلك الدراسات الأولى التي قام بها المستشرقون ... و من هذا المنطلق أصبح لزاما على المنظومة الفكرية العربية أن تهتم بأعمال المستشرقين الذين أبلوا بلاءا حسنا في مادة دراسة التراث العربي الإسلامي و ما أبدعوه و ما تركوه من إنتاج علمي و أدبي لخير دليل على هذا، حيث أنه من المستحيل أن نجد قارئا عربيا أو غير عربي للأدب العربي لم يعرف و لم يقرأ و لم يستفد من أعمال :

- كارل بروكلمان (17–9–1868 - 6-5-1956) : تاريخ الأدب العربي و تاريخ الشعوب والدول الإسلامية.
- و أعمال شارل بلا (28-9-1914 – 28-10-1992) : الوسط العلمي في البصرة و تنشئة الجاحظ – اللغة و الأدب العربيان – مدخل إلى اللغة العربية الحديثة – أصل و تطور كتابة التاريخ في اسبانيا الأندلسية – اسبانيا الإسلامية في مؤلفات المسعودي.
- و أعمال ريجي بلاشير (30-06-1900 – 7-08-1973) : شاعر عربي من القرن الرابع الهجري أبو الطيب المتنبي – طبقات الأمم لصاعد الأندلسي – تاريخ الأدب العربي – ترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية.
- و أعمال ليفي بروفنصال : – تاريخ اسبانيا الأندلسية – البيان المغرِب لابن عذاري المراكشي – كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب.
- و أعمال لويس ماسنيون : (25-07-1882 – 31-10-1962) : عذاب الحلاج، شهيد التصوف في الإسلام – نشأة المصطلح الفني في التصوف الإسلامي – ترجمة ديوان الحلاج.

و هنا لابد من الإشادة بمجهودات بعض المفكرين و النقاد و المؤرخين العرب الذين اجتهدوا من أجل التعريف بهؤلاء المستشرقين سواء من كان منهم في علاقة جيدة و مفيدة بالتراث العربي الإسلامي أو من كان منهم محملا بأفكار و آراء و مواقف سلبية و مسيئة لهذا التراث.

فقد خص الأستاذ عبد الرحمان بدوي[17] هؤلاء المستشرقين بموسوعة جيدة ذكر فيها أخبارهم ومسيرتهم المعرفية و السياسية و كان ذلك في موسوعته.

–"موسوعة المستشرقين".

–

– و اتجه الاتجاه نفسه الأستاذ سعدون محمود الساموك[18] مركزا على المستشرقين الروس في مؤلفه المهم : "الاستشراق الروسي –دراسة تاريخية شاملة".

و الأستاذ نجيب العقيقي في كتابه :"المستشرقون"[19] .

لا يمكن بأية حال من الأحوال التنكر للجهود العلمية التي قدمها بعض المستشرقين حول التراث العربي الإسلامي. فبالإضافة إلى التكفل به بالدراسة و التحليل، فلقد كان لهم الفضل الأول وبامتياز في الخروج به من الدائرة اللغوية العربية ليسافروا به عبر محطات لغوية عالمية، فترجموه إلى اللغات الفرنسية و الإسبانية و الانكليزية و الإيطالية و الألمانية و الروسية و الهولندية والدانماركية

و غيرها من لغات المستشرقين : "فإن الجهد العلمي الذي بذله المستشرقون في إحياء التراث العربي جهد لا يستطاع إنكاره فهم كانوا أساتذة الجيل الحاضر في الطريقة العلمية التي جروا عليها، و نبغ من بينهم علماء أمناء قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربي"[20] .

لقد اهتم المستشرقون أمناء للتراث العربي الإسلامي حيث جمعوه و دونوه و درسوه وحققوه وطبعوه و ترجموه و نشروه كما استحدثوا لذلك مراكز بحثية و تعليمية ومكتبات كبيرة لذلك، و في هذا الصدد نذكر على سبيل المثال مكتبة اللغات الشرقية بباريس –فرنسا، كما نذكر أيضا ما قام به المستشرقون الفرنسيون حين استحدثوا أقساما على مستوى بعض الكليات و بعض الجامعات الفرنسية لدراسة اللغات و الآداب الشرقية و لدراسة أيضا الإسلام و تاريخ الشعوب و الحضارات الإسلامية.

إن الاستشراق بالمفهوم التقليدي الكلاسيكي قد انتهى أو إنه في طريق النهاية. أما ما تبقى منه محافظ على إيديولوجيته القديمة و ما تشيعه من قيم العنصرية و الاستعمار و الاحتقار و تدنيس الثقافة العربية الإسلامية و الشعوب العربية، فهذا لا يمكن أن يصنف ضمن الدراسات العلمية، فهو امتداد للحركة

الاستعمارية و الامبريالية التي تمتطي الثقافة لأغراض استعمارية ليس إلا، و من ثم من واجب التصدي له و الحذر منه، و محاربته جزء لا يتجزأ من الحركة التحريرية و الدفاع عن الذات و الهوية و عن الأصالة الفكرية و التراثية و الحضارية و الدينية[21].

فالاستشراق سواء أكان ايجابيا أو سلبيا، فهو أنواع مختلفة و قد حاول الأستاذ إدوارد سعيد[22] تصنيفه ضمن أربعة تصنيفات و هي :

1 – الاستشراق الأكاديمي العلمي.

2 – الاستشراق الديني.

3 – الاستشراق المبطن.

4 – الاستشراق السياسي.

و من هذا المنطلق لا يمكن للمنظومة الفكرية العربية أن تنظر للاستشراق نظرة أحادية، كما لا يمكنها أن ترفضه جملة و تفصيلا. فلقد تعامل بعض المستشرقين مع التراث الإسلامي تعاملا علميا نزيها و شريفا و موضوعيا. بل أبعد من كل هذا، لقد تعلقوا بهذا التراث و أحيوه بصدق معرفي إلى درجة العشق و الذوبان و تبنوه ثقافة و فكرا وعقيدة حيث أن عددا كبيرا منهم قد اعتنقوا الإسلام. ومن ثمة فإن رفض و تنكر لنتائج الإستشراق بالطرق التي عهدناها و من قبل... لمجرد كونه فضولا أجنبيا أو تلصصا على البيت ذي الحرمات أو حتى في مرحلة لاحقة بوصفه تابعا ميكانيكيا للغزو... هذا الرفض لم يعد ممكنا الآن، و أصبح تطور الاستشراق يتطلب وعيا متطورا للاستشراق أيضا، وهنا من حالات للاستشراق و نماذجه ما يدعوا إلى التأمل بحق"[23].

فلم يعد الاستشراق كله معاديا للشرق، لو لم يعد كل مستشرق عدو بامتياز للشرق أو باحث من أجل الإساءة إليه و إلى إنسانه و ثقافته...

لقد تفطن بعض رواد الفكر العربي المعاصر إلى قيمة الرسالة المعرفية الاستشراقية و هي رسالة علمية آمنوا بها و ترجموها في دراستهم و اهتماماتهم بالثقافة العربية الإسلامية فهي رسالة علمية

و ثقافية و حضارية و إنسانية، و إن الثقافات سواء أكانت شرقية أو غربية فهي أوجه لثقافة واحدة

و هي الثقافة الإنسانية، هذا إضافة إلى أن كل ثقافة إلا و تحمل أشياء من الثقافة الأخرى، فالتفاعل الثقافي بين الثقافات أمر طبيعي. وأن كل الثقافات تتحاور و تتفاعل و تتكامل. و قد أثبت التاريخ أن الثقافة الغربية أخذت أشياء كثيرة من الثقافة الشرقية و أن هذه الأخيرة قد تأثرت في مواطن كثيرة من

الثقافة اليونانية و اللاتينية و هو الأمر يحرر المستشرقين من إصدار أحكام في حق الثقافات وخاصة المستشرقين الغربيين الذين اهتموا بالثقافة الشرقية حيث بينت الدراسات التاريخية للعلوم الغرب المتطورة أنها ولدت في أحضان المسيرة المعرفية لعلوم الشرق و التي شكلت في وقت من الأوقات المصدر و المرجع الأساسي و بامتياز لعلماء الغرب خاصة في مرحلة نهاية القرن الثامن عشر أين غدا تاريخ الشرق بالنسبة لأوروبا نموذجا و أمثولة للقدم والأصالة، و هما الوظيفتان اللتان استشارتا اهتمام أوروبا بأفعال التعرف والاعتراف"[24] .

إن الاستشراق حقيقة تاريخية و معرفية و ثقافية و حضارية و إنسانية، و من هذا المنطلق فلا بد وأن تكون مقاربة موضوع الاستشراق مقاربة ثقافية وفكرية بعيدة وحرة عن إصدار أحكام فاصلة بين الغرب الذي يدرس الشرق بنية السيطرة عليه و استغلاله و استغلال ثرواته و تقديمه في ثوب المتخلف، الهمجي، الخشن، الشرير، الإرهابي... وفق صور النمطية وقوالب تحط من قيمة الشعوب الشرقية وثقافتها و حضارتها و عقيدتها.

نسعى إلى البحث في موضوع الاستشراق العلمي النزيه و الشريف و المقبول كمادة لتقارب الثقافات والتحاور و هو أمر قد يساعد على تأسيس لثقافة الحوار بين الشعوب و ثقافتها و حضاراتها و عقائدها، ذلك

لما أنتجه هذا الاستشراق من مادة غزيرة قد تكون في نفس الوقت مادة خام وخصبة و همزة وصل بين الشرق و الغرب وفق قانون ثقافي و حضاري و فكري اتصالي تواصلي.

لقد أصبح الحوار بين الشعوب و الثقافات ي و الحضارات و الديانات ضرورة ملحة في خضم التهافت الفكري و الإيديولوجي الحديث و الذي أوقع عددا من شعوب المعمورة في صراعات و حروب قاسية ودامية. و من ثم قد يشكل الاستشراق إذا اتجه اتجاها علميا نزيها و شريفا وواعيا و بمسؤوليته العلمية والأخلاقية – قد يشكل – وسيلة فعالة و دعما قويا لتفعيل و نشر ثقافة الحوار حيث يمكن الشعوب على معرفة بعضها البعض فكريا و ثقافيا و حضاريا و دينيا و على التعايش السلمي بعيدا عن الصراعات الاثنية و الثقافية و العقائدية ، فالاستشراق يعرف شعوب الشرق و الغرب ببعضها البعض و الاستفادة من بعضها البعض ، فهو أرقى أشكال المعرفة الإنسانية و أسماها ، و من هذا المنطلق لابد من إقامة جسور معرفية وثقافية بين مفكري الإسلام و المعتدلين من المستشرقين ذوي النيات العلمية النزيهة و الشريفة و ذلك قصد تحقيق هذا الحوار المنشود و هذا التواصل المثمر و المفيد بين الأطراف المتفاعلة علميا و ثقافيا و

حضاريا و دينيا مع التراث العربي الإسلامي ....و قد توجد صلات فردية بين بعض علماء المسلمين و بعض المستشرقين، و هناك مستشرقون يتوخون الموضوعية و على استعداد للحوار العلمي مع العلماء المسلمين وتجري منذ فترة محاولات لإقامة قنوات اتصال بين الجانبين لتنظيم الحوار على المستوى العلمي بين الطرفين، و من المصلحة الإسلامية أن يكون هناك مثل هذا الحوار". (25)

الخاتمـة :

إن الاستشراق حقيقة تاريخية و ثقافية و معرفية و سياسية و حضارية و عقائدية إنسانية ، عرف عبر مسيرته الكونية حالات و محطات ايجابية و سلبية كما أن نتائجه تراوحت بين المقبول و الجيد و بين المرفوض و السيئ ، غير أن المنطق العلمي لا يسمح أن تصنف كل هذه الدراسات الاستشراقية و نتائجها تصنيفا واحدا و فق حكم واحد . فلابد و أن تكون المقاربة لموضوع الاستشراق مقاربة واعية بمفهومه وبمقاصد أصحابه من المستشرقين أنفسهم و الذين عرفوا بوعي و بمسؤولية أعمالهم" لأن الظروف التي تجعل الاستشراق، نمطا مقنعا باستمرار، سوف تستمر بإلحاح، و ثمة توقع عقلاني ... بأنه ليس حتميا إن يظل الاستشراق كما هو، دون تحدٍ – فكريا و عقائديا و سياسيا ،كما أن الباحثين في فروع الاستشراق قادرون تماما على تحرير أنفسهم من العقائدية القديمة"(26).

الهوامش :

1- ادوارد سعيد : الاستشراق : المعرفة – السلطة – الإنشاء : ترجمة كمال أبو ديب – مؤسسة الأبحاث العربية لبنان ط.4-1990-ص38

2- ن – م : ص.39

3- محمد إبراهيم الفيومي : الاستشراق- رسالة استعمار- دار الفكر العربي -1992 .ص149

4- عقيلة حسين : المرأة المسلمة و الفكر الاستشراقي- دار ابن حزم – ط1. 2004- ص31

5-محمد سيد الجليند : الاستشراق و التبشير – قراءة تاريخية موجزة – دار القباء – القاهرة . ص7

6- ادوارد سعيد : م .س : 2

7- ادوارد سعيد : م . س : 3

8- ادوارد سعيد: م . س : 3

9- عقيلة حسين : م . س : 47

10- محمد إبراهيم الفيومي : م . س. ص . 154

11- عجيل جاسم النشمي : المستشرقون و مصادر التشريع الإسلامي- المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب الكويت – ط1 - 1984 – ص. ص. 22-23

12- يوسف شاخت : أصول الفقه –ترجمة إبراهيم خورشيد و عبد الحميد يونس و حسن عثمان – دار الكتاب اللبناني بيروت-.1981

13-جولد تسهير : مذاهب التفسير الإسلامي –ترجمة عبد الحليم النجار – مطبعة السنة المحمدية – مصر 1955 .

14- حسن حنفي : هموم الفكرو الوطن – دار قباء – القاهرة ط . 2 -1998 –ص545

15- ميشيل جحا :آفاق عربية-سلسلة كتب الثقافة المقارنة العدد 1- 1987-ص . ص 35- 36

16- محمد ابراهيم الفيومي : م . س . ص .157

17- عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين – المؤسسة العربية للنشر و التوزيع – ط4 -2003

18- سعدون محمود الساموك : الاستشراق الروسي – دراسة تاريخية شاملة –دار المناهج للنشر والتوزيع عمان – ط1 -2003 .

19- نجيب العقيقي : المستشرقون – دار المعارف – مصر 1965 .

20- خيري منصور : الاستشراق و الوعي السالب – مكتبة مدبولي ط2 -2005 – ص33

21- مازن المطبقاني : احذروا خطر الاستشراق – فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثنا النشر الرياض – 1425 هـ

22- ادوارد سعيد : م .س . ص ص (20-322)

23- خيري منصور : م . س . ص 129

24- إعجاز أحمد و ادوارد سعيد : الاستشراق و ما بعده.

ادوارد سعيد من منظور النقد الماركسي –ترجمة ثائر ديب .ورد للطباعة و النشر و التوزيع دمشق – ط1 -2004 . ص . ص . 156 -157

25- محمد حمدي زقزوق : الإسلام في مرآة الفكر العربي – دار الفكر العربي –ط4 – 1994 – ص77

26- ادوارد سعيد : م . س . ص 322 .

الاستشراق حقل معرفي تعريفي بالإسلام
ودعوي في بلاد الغرب الوجه الآخر للاستشراق

الدكتورة عقيلة حسين

المقدمة

الاستشراق حقل معرفي قديم، أذكاه علماء كثيرون من الغرب؛ الذين اهتموا بدراسة الشرق . وأهم ما في الشرق: الإسلام؛ بمصادره القرآن و السنّة، و رسوله **ص**، ولغته وكل ما يتعلق به من واقع و متخيل، وقد بلغ ما أنتجه المستشرقون في أقل من قرنين من الزمن 260 ألف مصنف.بين كتاب و دورية .

كان الاستشراق في نشأته أوروبيا– وقد أصبح الآن أمريكيا – مرتبطا بالحروب الصليبية وحملات التبشير، و دوائر صنع القرار.و مثّل في الكثير من الأحيان—وما زال— الخلفية الفكرية للاستعمار، وغزو دول الشرق.

والباحث الغربي الذي اتخذ الشرق حقلا معرفيا و إبداعيا له ،كان و مازال يهتم بكلّ صغيرة وكبيرة، و يدرس كل المجالات ؛ فكوّن : الاستشراق السياسي، الاستشراق الديني، الاستشراق التاريخي، الاستشراق الثقافي (اللغوي والأدبي)،الاستشراق الأنثربولوجى والاجتماعي، الاستشراق الصحفي، الاستشراق السياحي، والاستشراق الفني.

ساهم الاستشراق رغم كونه حقلا معرفيا خصبا لدراسة الشرق ، و مربوطا بقرارات السياسة.

في إثراء ساحة المسلمين، سواء من حيث العدد، أو من حيث التصنيف في الدراسات الشرعية والعربية و التاريخ و تحقيق المخطوطات و غيرها.

وتساؤلات علمية التي تطرح في هذا البحث هي :

هل الاستشراق حقل معرفي تعريفي بالإسلام في الغرب ؟

ماذا قدم الاستشراق للباحث المستشرق و القارئ في الغرب ؟

ماذا قدم الاستشراق للغرب من معارف حول الإسلام ومن تصحيح مفاهيم و حقائق؟

هل الاستشراق حقل معرفي يؤدي إلى الاعتناق الإسلام أو الخروج عنه؟

هل الاستشراق يعتمد على الخلفية الاستعمارية و الصراع الحضاري و المسيحية ؟ أم فيه مساهمة في تعريف الغرب بالإسلام و اعتناق الإسلام من الدارسين له ؟

المبحث الأول : الاستشراق ..المفهوم و المنهج

الاستشراق زمان و مكان و إنسان و ثقافة ومفهوم اختلف في تحديده بين الشرق والغرب وبين الغرب و الشرق , كما اختلف في أنساقه ومناهجه منذ قرون عديدة.

عرف الاستشراق بتعريفات اصطلاحية كثيرة؛ من طرف الباحثين العرب والمسلمين والمستشرقين عرفه ادوارد سعيد : (هو فرع من فروع المعرفة الذي تناول به الشرق — و به يتناول— بطريقة منظمة من حيث هو موضوع للتعلم و الاكتشاف و التطبيق) [1]

وقال في موضع آخر : (الاستشراق قراءة الشرق بنطق سلطوي ويؤسس للتمييز بين نمط المعرفة الغربية التي توصف دائما بالعقلانية،وبين الثقافة الشرقية التي بدت في كل التقريرات الاستشراقية عنوانا لنمط التفكير الأسطوري ، و نموذجا لعقل لا يمتلك الربط بين البرهان ، وبين المقدمات و النتائج) [2]

ويحدد مالك بن نبي مصطلح الاستشراق بقوله : " إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية . وأنّ صفة مستشرق ينبغي أن تقتصر على من ليس شرقيّاً ، لأنّها تصف حالة طلب لشيء غير متوفر في البيئة التي نشأ فيها الطالب.) (3)

المبحث الثاني : الاستشراق مناهج و أنساق

والاستشراق، كبنية معرفية، ارتبط منذ نشأته بالمصلحة والسلطة معا، مكونا مؤسسة أوروبية وأمريكية – فيما بعد– مشتركة للتعامل مع الشرق وفهمه وإعادة إنتاجه : علميا ، وسياسيا وإيديولوجيا .

إن من المهم قبل دراسة الموقف الفكري الغربي من كل قضايا الشرق أن نبين أن الغرب ليس كياناً واحداً فيما يتعلق بالسياسات وطبائع الشعوب، ومواقف الدول من العالم العربي والإسلامي. كما أن الغرب ليس كياناً واحداً أيضاً فيما يتعلق باهتماماته الدينية ومدى اقترابه أو ابتعاده عن دعوة ورسالة نبي الله عيسى عليه السلام. فليس كل الغرب متديناً وليس كل الغرب علمانياً أيضاً، وهناك فوارق كبيرة بين المدارس والمذاهب الدينية المختلفة داخل المسيحية في الغرب. لكن رغم كل هذا التباين والاختلاف في السياسات والطبائع والتوجهات، إلا أن الغرب يكاد يكون كياناً واحداً عندما يتعلق الأمر بالجوانب الفكرية المتعلقة بعلاقاته مع الحضارات الأخرى والديانات التي تختلف عن ديانات الغرب. فرغم تعدد المدارس الفلسفية والفكرية في الغرب، إلا أن هناك قدر مشترك وواضح من المفاهيم الفكرية الأساسية عندما يتعلق الأمر بالرؤى المقابلة حول مستقبل البشرية وهدف الإنسان من الحياة على الأرض. لذلك فإن من الممكن أن يتم الحديث عن الغرب بوصفه كياناً واحداً عندما يتعلق الأمر بالحياة الفكرية الغربية في مقابل الحضارات الأخرى.

---

(1) ادوارد سعيد – الاستشراق ...المعرفة –السلطة –الإنشاء–ترجمة كمال أبو ديب–مؤسسة الأبحاث العربية –بيروت –ط5–2003م– ص 42

(2) الاستشراق ...المعرفة –السلطة –الإنشاء –ادوارد سعيد –ص 56

(3) مالك بن نبي إنتاج المستشرقين–مجلة العربي – في مقال له تحت عنوان إنتاج المستشرقين

المطلب الأول : انعدام الموضوعية و العلمية

وهي كثيرة في الدراسات الاستشراقية المربوطة بالدوائر الاستعمارية و الصليبية و الصهيونية ، ويبرز ذلك تشويه الحقائق ، و الانطلاق من المواقف المسبقة ، وحقد دفين ، التعمد في الإساءة .

يقول أليكسي جورافيسكي: "إن الأغلبية المطلقة من المستشرقين لم يتخلصوا من المواقف المعادية للإسلام" [1]

وحول ذلك تحدثت المؤلفة البريطانية كارين أرمسترونج – صاحبة كتاب "محمد" قائلة: "علينا أن نتذكر أن الاتجاه العدائي ضد الإسلام في الغرب هو جزء من منظومة القيم الغربية، التي بدأت في التشكل مع عصر النهضة والحملات الصليبية وهي بداية استعادة الغرب لذاته الخاصة مرة أخرى. فالقرن الحادي عشر كان بداية لأوروبا الجديدة وكانت الحملات الصليبية بمثابة أول رد فعل جماعي تقوم به أوروبا الجديدة." [1]

ومن هؤلاء المستشرقين المتعصبين :

•جولدزيهر1920 :1850 مGoldizher مجري يهودي، من كتبه تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي، والعقيدة والشريعة. ولقد أصبح زعيم الإسلامي في أوروبا بلا منازع.

•جون مايناردMaynard J. أمريكي،متعصب،من محرري مجلة الدراسات الإسلامية.

•ص م. زويمر S.M. Zweimer مستشرق مبشر، مؤسس مجلة العالم الإسلامي الأمريكية، له كتاب الإسلام تحد لعقيدة صدر 1908م، وله كتاب الإسلام عبارة عن مجموعة مقالات قدمت للمؤتمر التبشيري الثاني سنة 1911م ي لكهنئو بالهند.

•غ. فون. غرونباوم G. Von Grunbaum ألماني يهودي، درَّس في جامعات أمريكا، له كتاب الأعياد المحمدية 1951م ودراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية 1954 م.

•أ.ج. فينسينك A.J. Wensink عدو للإسلام، له كتاب عقيدة الإسلام 1932م. وهو ناشر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي في لغته الأولى.

•كينيث كراج K. Gragg أمريكي، متعصب، له كتاب دعوة المئذنة 1956م

•. لوي ماسينيون L.Massignon فرنسي، مبشر، مستشار في وزارة المستعمرات الفرنسية لشؤون شمال أفريقيا، له كتاب الحلاج الصوفي شهيد الإسلام 1922م

•د.ب. ماكدونالد D.B. Macdonald أمريكي، متعصب، مبشر، له كتاب تطور علم الكلام والفقه والنظرية لدستورية1930 م. وله الموقف الديني والحياة في الإسلام 1908م.

•مايلز جرين M. Green سكرتير تحرير مجلة الشرق الأوسط.

[1] الإسلام والمسيحية) أليكسي جورافيسكي ص (105) .

[1] الإسلام في مرآة الغرب –حمدي زقزوق –ص 62-63

•د.س. مرجليوث 1885: 1940 م D.S. Margoliouth إنجليزي، متعصب، من مدرسته طه حسين وأحمد أمين، وله كتاب التطورات المبكرة في الإسلام صدر 1913م وله محمد ومطلع الإسلام صدر 1905م وله الجامعة الإسلامية صدر 1912م.

•بارون كارادي فو Baron Carra de Voux فرنسي، متعصب، من كبار محرري دائرة المعارف الإسلامية.

•هـ.أ.ر. جب 1895: 1965م H.A.r. Gibb إنجليزي، من كتبه المذهب المحمدي 1947م والاتجاهات الحديثة في الإسلام 1947م.

•ر.أ. نيكولسون r.A. Nicholson إنجليزي، ينكر أن يكون الإسلام ديناً روحيًّا وينعته بالمادية وعدم السمو الإنساني، وله كتاب متصوفو الإسلام 1910م وله التاريخ الأدبي للعرب 1930م.

•هنري لامنس اليسوعي 1872: 1937م H.Lammans فرنسي، متعصب، له كتاب الإسلام وله كتاب الطائف، من محرري دائرة المعارف الإسلامية.

•جوزيف شاخت J. Schacht ألماني، متعصب ضد الإسلام، له كتاب أصول الفقه الإسلامي.

•بلاشير كان يعمل في وزارة الخارجية الفرنسية كخبير في شؤون العرب والمسلمين.

•ألفرد غيوم A. Geom إنجليزي، متعصب ضد الإسلام من كتبه الإسلام.

المطلب الثاني: الخطأ في المنهج مع تحري الموضوعية

المستشرقون غرباء عن هذه الأمة في دينها و حياتها ، وفي أعماقهم من الرواسب الكثيرة، من عداوة، و عقدة استعلاء ، وخلفيات متعددة ؛ وهذا يؤدي بهم إلى الخطأ والبعد عن مقتضى الحقيقة.يقول المستشرق(اسطفان فيلد):إن الكثير من المستشرقين أخطئوا في الكثير مما كتبوا، بعضهم أخطأ لغويا في النحو و الصرف ، و بعضهم كسر العروض، وهناك أخطاء في البلاغة والبيان، وكذلك في تفسير القرآن و شرح الحديث،ونجد في كتاباتهم أخطاء تاريخية وفقهية،كل هذا صحيح، وعلى المستشرقين الاعتراف بذلك قبل غيرهم ...)

المطلب الثالث: الإنصاف و الإقرار بحقائق الإسلام

هم الذين أنصفوا أنفسهم أولاً قبل أن ينصفوا الحقيقة، لم يكلفوا أنفسهم سوى أن يكونوا موضوعيين في تفكيرهم وفي أحكامهم، فقادهم التفكير المنصف إلى أعتاب الإسلام، فاعتنقوه عقيدة وسلوكاً ومنهجاً، ويأتي في مقدمة هؤلاء:

•هادريان ريلاند ت1718م Hardrian roland أستاذ اللغات الشرقية في جامعة أوترشت بهولندا، له كتاب الديانة المحمدية في جزأين باللغة اللاتينية 1705م، لكن الكنيسة في أوروبا وضعت كتابه في قائمة الكتب المحرم تداولها.

•يوهان ج. رايسكه 1716: 1774م J.J.reiske وهو مستشرق ألماني جدير بالذكر، إتهم بالزندقة لموقفه الإيجابي من الإسلام، عاش بائساً ومات متسلولاً، وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية بألمانيا.

•سلفستر دي ساسي: 1838م Silvestre de Sacy اهتم بالأدب والنحو مبتعداً عن الخوض في الدراسات الإسلامية، وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزاً للدراسات العربية، وكان ممن اتصل به رفاعة الطهطاوي.

•توماس أرنولد 1930:1864م إنجليزي، له الدعوة إلى الإسلام الذي نقل إلى التركية والأردية والعربية.

•غوستاف لوبون :مستشرق وفيلسوف مادي، لا يؤمن بالأديان مطلقاً، جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلامية – وإن كانت له أخطاء في بعض القضايا– مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره.

•زيجريد هونكه: اتسمت كتابتها بالإنصاف وذلك بإبرازها تأثير الحضارة العربية على الغرب في مؤلفها الشهير شمس العرب تسطع على الغرب.

•ومنهم: أنا ماري شمل، وكارلايل، ورينيه جينو، والدكتور جرينيه، وجوته الألماني

•أ.ج. أربريA.J. Arberry ، من كتبه الإسلام اليوم صدر 1943م، وله التصوف صدر 1950م، وترجمة معاني القرآن الكريم. وليوبولد فايس، ومراد هوفمان، وأحمد فون دنفر، ومحمد أسد، وعبد الكريم جرمانوس، وموريس بوكاي وغيرهم كثير .

فمنهم من أسلم و منهم من لم يسلم ولكنهم التقوا في تعريف الغرب بالحضارة الإسلامية ونقل حقائق الإسلام و المجتمع الشرقي بموضوعية وهذا ساهم بشكل كبير في أن يتلمس الغرب مفاهيم أخرى عن الإسلام غير تلك التي صنعها المتعصبون والعاملون في دوائر الاستعمار و هذا ما يفسر وجود عدد كبير من الغربيين الذين يدخلون في دين الله أفواجا, وكذلك تغير النظرة للشرق عند بعض الفئات مقارنة بما كانت عليه من قبل .

المبحث الثالث : الاستشراق حقل معرفي غير حيادي

إن الاستشراق مناهج وأنساق، ومدارس ومذاهب، منذ نشأته إلى الآن، وقد تعرض الاستشراق التقليدي إلى الكثير من النقد، وإبراز عدم موضوعيته، وتحامل الدارسين له من الشرق والغرب .

وقد ناقش هذا الأمر الباحث (ادوارد سعيد) بشكل جلي ومميز في كتابه الاستشراق (... و تحت العنوان العام للمعرفة بالشرق و تحت مظلة التسلط الغربي على الشرق منذ نهاية القرن الثامن عشر، برز شق معقد متشابك للدراسة في الحياة الجامعية، وللعرض في المتاحف، وللاستبناء في المكاتب الاستعمارية، وللإيضاح النظري في أطروحات علم الإنسان ، وعلوم الحياة والألسنية والأعراق والتاريخ حول الإنسان والكون،...والاكتناه للأشياء الشرقية كان يقوم ، بصورة حصرية نوعا، على وعي غربي ذي سيادة برز من مركزيته ... ولمجموعة من الرغبات، والمقموعات والاستثمارات، والإسقاطات... ومن يستطع أن ينكر أنها كانت أفكارا مشبعة بمذهب التفوق الأوروبي، و بشتى أنواع العنصرية العرقية، وبالامبريالية وما إليها، وبأفكار مذهبية جامدة...)[1]

[1] الاستشراق ..المعرفة –السلطة –الإنشاء –إدوارد سعيد –ترجمة كمال أبو ديب–مؤسسة الأبحاث العربية –لبنان –ط4–2003م

إن سعيدا لم يستطع أن يغير جذريا المنظور الاستشراقي القائم على شرخ وجودي ومعرفي في تدبر علاقة الشرق بالغرب، مع أنه هيأ المناخ الفكري لنقد جريء و منظم للاستشراق التقليدي ، ولا سيما من جانب الباحثين الغربيين لجدد ، الذين أرادوا أن يقطعوا ما بينهم ،و مابين هذا الموروث المعيق للإرادة الفردية في إنتاج معرفة إنسانية تقارب موضوعها مقاربة الراغب في الارتقاء بجوانب حياته. وتقوم الباحثة (بيانكا سكارسيا)بتحليل عميق لهذه الفئة فتقول:"عمل الاستشراق لصالح الاستعمار بدلاً من إجراء التقارب بين الثقافتين . إن إنشاء هذا العلم لم يكن إلا من أجل تقديم أدوات للاختراق أكثر براعة،فهناك فعلاً عملية ثقافية مستترة ماكرة ومرائية،وهذا ما يفسر ريبة المسلمين حيال كل ما يقال عنهم في الغرب"[2]

وإذا كان إدوارد سعيد ينتقد الاستشراق وهو من الشرق المدروس فأن الكاتب الشهير برنارد شو الذي هو من الغرب يقول متأسفاً ومعترفا بخطأ المستشرقين: " مضت على الغرب القرون وهو يقرأ كتباً ملأى بالأكاذيب على الإسلام"[1]

وقد ذكر د/ عبد الرحمن الميداني في كتابه (أجنحة المكر الثلاثة) : أنّ للمستشرقين وسائل فكرية مختلفة يتبين من خلالها خطر الاستشراق على الأمة الإسلامية مجملاً هذه المسائل (التشكيك، إلقاء الشبهات المغالطات، تزيين الأفكار البديلة ، افتراء الأكاذيب.)

المبحث الرابع: الاستشراق و إسهامه في التعريف بالإسلام

كان الشرق ومازال محل اهتمام: الباحثين، والدارسين، والرحالة والصحفيين الغربيين على اختلاف مللهم ودولهم.وهذا الاهتمام تجلى في دراسات أكاديمية بجامعات الغرب ولوحات فنية، ومقالات صحفية بمجلات وجرائد، وكتب و مطبوعات. وتحقيق مخطوطات وترجمة القرآن والكتب العربية في مختلف العلوم والفنون، وإعداد أفلام وأشرطة مرئية ومسموعة، كما كتبت هذه البحوث بمختلف اللغات، مما مكنّ الجمهور العريض في أوروبا و أمريكا من معرفة الكثير عن الشرق، عاداته، لغته، دينه وقيمه. وهذه المعرفة قد تكون موضوعية وصحيحة، وقد تحوي الكثير من الإسقاطات الاستعمارية، والعقدة الاستعلائية.المهم أن تصورات الغرب تكوّن من خلال هذه البحوث والدراسات واللوحات والأفلام .

وقد أصدر الكثير من الباحثين الغربيين كتبا ودراسات و مقالات تتضمن:

*تصحيح الحقائق في مصادر الدين .

*إثبات صحة نبوة النبي محمد ص

*دحض الشبهات حول أحكام الإسلام التشريعية ومصادرها .

---

[2] (العالم الإسلامي وقضاياه التاريخية) بيانكا سكارسيا (214) .

[1]أنظر كتاب (الإسلام بعد مائة عام) جروج برنارد شو .

*التشكيك في أهداف و غايات الأفكار البديلة عن الإسلام.

*رد الأكاذيب وإبطال التعليلات والتفسيرات الباطلة .

*دعوة الغرب إلى فهم حقائق الإسلام قبل الحكم عليه

و هذه ض مقولات وآراء هؤلاء العلماء و الباحثين المنصفين –من أسلموا و غيرهم–

1-يقول الباحث (جون ل-اسبوزيتو):(...بسبب التاريخ الطويل، غالبا ما كان العالم المسيحي خلاله يسب النبي والإسلام الذي كانت صورته مشوهة جدا بالنسبة لهم، وبسبب تاريخ حديث كان الإسلام خلاله يوضع على قدم المساواة مع الإرهاب والتطرف، فأن بعض الفهم للإسلام يكون ضروريا قبل أن نتحرك لدراسة العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي، وعلاوة على ذلك فإن بعض الوعي بالقرآن والنبي ص والفترة الإسلامية الباكرة لا غنى عنه لفهم الإسلام ...) [1]

ويقول مترجم هذا الكتاب : (ما يلفت النظر حقا في هذا الكتاب، هو ما يقف المؤلف ضده ويحاول تصحيحه ؛ تلك النظرة الغربية التي ترى أنّ كلّ ما يخالف الغرب في رؤاه وأساليبه ، ونظامه القيمي والأخلاقي متخلف وخطير بالضرورة ؟!!). [2]

2-وتقول المستشرقة الألمانية آنا ماري شيمل: (لا تلوموني علي حبي لرسول الإسلام .. حبي وشغفي بالإسلام ورسوله بلا حدود، حتى إنَّ البعض يقول إنني أخفي إسلامي وأنا أقول مقولة لشاعر هندوسي: (قد أكون كافراً أو مؤمناً فهذا شيء علمه عند الله وحده، ولكني أود أن أنذر نفسي كمحب مخلص لسيد المدينة العظيم محمد رسول الله **ص**.. فلماذا تلوموني على حبي ودفاعي عن رسول الإسلام الذي أحبُّه، في حين لم يتعرَّض شخص في التاريخ للظلم الذي تعرَّض له محمد في الغرب.. فأساطير القرون الوسطى اتهمته بأنَّه كان كاردينالاً استاء لعدم تعيينه بابا فانفصل عن الكنيسة وأسس ديانة جديدة ، واتهمته رواية فرنسية بأنَّه شارك مع شخصين آخرين في تكوين نوع من الثالوث الشيطاني! وجريمة لا تُغتفر في حق محمد ارتكبها الأدباء الإنجليز؛ حوَّلوا اسم محمد ليكون مرادفاً للشيطان..وحوَّل الأدب الألماني (محمد (إلى (ماحوم)، واتهموا المسلمين بأنَّهم يعبدون أصناماً ذهبية لماحوم.. وللأسف فإنَّ مثل هذه الصور الشنيعة راسخة في اللاوعي الجماعي للغرب، وهو ما يفسر العداء الغربي للإسلام ..أليس هذا الظلم دافعاً لي لتوضيح حقيقة رسول الإسلام والدفاع عنه حتى لو كلفني ذلك حياتي.. فإنَّ (الساكت عن الحق شيطان أخرس)؟ ![1]

3-يقول الباحث الغربي المسلم* خالد شلدريك :(تساءلت في نفسي: إذا كان الإسلام لا أهمية له ، فلماذا يبذل الغربيون كل هذه الجهود لمقاومته ؟ وليس عندي ريب في أن الإسلام سيسود العالم أجمع بشرط أن يكون المسلمون مثالاً حسناً يعلن عن الإسلام ويعرّف الأمم به عملياً" (2)

---

[1] أنظر كتاب (التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة -(جون ل-اسبوزيتو)-ترجمة قاسم عبده قاسم -دار الشروق -القاهرة -2001م ص 45

[2] أ المرجع نفسه -ص 13

[1] أنظر كتاب آنا ماري شيمل محمد عمارة ص23

[2] أنظر كتاب عن (آفاق جديدة للدعوة) أنور الجندي (154) .

مهما كان هذا المستشرق فهو بشر خلقه الله – عز وجل – وركب فيه العقل والفطرة التي تتقبل الدين الخالص و العقيدة الصحيحة التي ليس تناقض "عقيدة التوحيد الخالص التي امتاز بها الإسلام هي أصح العقائد التي عرفها البشر ، وهي كاملة في توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، وفي إعلان صفات الكمال لبارئ الكون .. إن الإسلام لا يُخفيه انتقادُ منتقديه... وإذا كان هناك دين انتشر بالسيف فليس هو الإسلام بل غيره"(3)

وتكمن إسهامات المستشرقين الذين أسلموا في الدعوة إلى الله في الغرب ؛ في كثرة التأليف و نشر الكتب وإلقاء محاضرات و عقد ندوات و دروس بالمساجد و النوادي ، و ترجمة القرآن الكريم . و الخطاب الدعوي للمسلم الغربي يكون أقوى تأثرا من غيره ،لاعتبارات كثيرة :معرفته بشؤون مجتمعه ، ولغتهم , و دينهم و مذاهبهم ، و الخطاب يكون أيسر وأكثر تأثيرا من غيره .

المبحث الخامس: الإسلام وقضاياه أكبر حقل معرفي وخطابي للمستشرق

شكلت الدراسات الإسلامية:القرآن الكريم، السنة النبوية الشريفة، السيرة النبوية ، الفقه وأصوله ، التاريخ والتراث الإسلامي، اللغة العربية ، أكبر حيز في المنتوج العلمي الاستشراقي؛ وهذا مفسر،لأن الاستشراق بدأ مع الحروب الصليبية والاستعمار ومعظم المستشرقين كانوا من الديانة اليهودية أو المسيحية.

وتناول المستشرقون هذه الدراسات بمناهج علمية متعددة منها ما كان علميا موضوعيا ومنها ما كان غير ذلك.

ومالا يخفى على كلّ متتبع للحركة العلمية في الغرب، أن الموضوع الرئيس في الجامعات وصحف و ووسائل الإعلام؛ هو الإسلام بقضاياه المختلفة. والإسلام هو محل دراسة من طرف الباحثين و الساسة و الصحفيين و غيرهم.

ويري الباحث الطيب بن إبراهيم (1):أنّ الاستشراق لا يعتبر تاريخاً أو جغرافيا فقط، ولا إنسانيا أو ثقافة فحسب، وإنما هو مجموع ذلك كله، فهو مكان وزمان وإنسان وثقافة. والحديث عن الاستشراق مرتبط ارتباطا عضوياً وتكاملياً مع هذه العناصر الأربعة الأساسية، إذ لا بد له من مسافة زمنية ومساحة مكانية ونوع إنساني وإنتاج ثقافي وفكري. ويري أن الشرق الذي اهتم الغرب بدراسته والتخصص في ثقافته وتراثه، ليس هو الشرق الجغرافي الطبيعي، وإنما هو ''الشرق الهوية'' وهو محور ما استهدفه علم الاستشراق ومصدر العناية والاهتمام، فهدف الاستشراق هو معرفة ''الشرق الهوية والتاريخ'' المتمثل في الإسلام والمسلمين.

المطلب الأول: ترجمات القرآن الكريم

كان الاهتمام بترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية مبكرا ، ويعيده الكثير من الباحثين إلى الحروب الصليبية، حيث ترجم القرآن الكريم إلى اللاتينية في القرن الحادي عشر ثم ترجم إلى اللغات الأخرى فيما بعد؛ كالفرنسية والانجليزية والاسبانية والروسية والايطالية والألمانية وغيرها .

---

[3] أنظر موسوعة (مقدمات العلوم والمناهج) للعلامة أنور الجندي – مجلد 8 ص (172) .

[1] أنظر الاستشراق في الميزان– مقال للباحث :أنور محمود زناتي –كلية التربية – جامعة عين شمس

يقول 'محمد صالح البنداق' في كتابه[1]: : 'أول ترجمة للقرآن الكريم باللغات الأوروبية كانت باللاتينية، وقد تمت بإيعاز وإشراف رئيس دير 'كلوني' في جنوب فرنسا الراهب 'بطرس المبجل'، وهذا اسمه وكان ذلك سنة 1143م، وعلى يد راهب إنجليزي يدعى 'روبرت الرتيني' وراهب ألماني يدعى 'هرمان'... والمثير للاستغراب، أن الدوائر الكنسية منعت طبع هذه الترجمة وإخراجها إلى الوجود، لأن إخراجها من شأنه أن يساعد على انتشار الإسلام بدلاً من أن يخدم الهدف الذي سعت إليه الكنيسة أصلاً وهو محاربة الإسلام، يقول G.H Bousquet: 'منذ سنة 1141م، اجتمع رجال الدين بإيعاز من 'بيتر المحترم' رئيس 'دير كلوني' لترجمة القرآن إلى اللاتينية، قصد محاربة الإسلام'.

وقد مرت ترجمة القرآن الكريم بمراحل رئيسة هي:

1. مرحلة الترجمة من اللاتينية إلى اللغة الفرنسية و الإيطالية و الألمانية وغيرها.
2. مرحلة الترجمة من اللغة العربية مباشرة إلى اللغة الفرنسية، وغيرها من اللغات .
3. مرحلة دخول المسلمين ميدان الترجمة إلى اللغة الفرنسية.

ومعظم الترجمات التي أعدها المستشرقون فيها أخطاء وفي بعض الأحيان تحريف وتجاوزات و خاصة إذا لم يكن المستشرق مسلما.(قال 'لامينز':'إننا لا نملك ترجمة جيدة للقرآن لا عيب فيها'، بسبب أن المترجمين للقرآن الكريم:

1. لم يحاولوا فهم القرآن قبل كل شيء من نصه،كما يقضي بذلك قانون علم التفسير، بل إنهم انزلقوا دون تريث في البحث عن معاني الألفاظ.
2. لم يعنوا بمعاني الآيات ولا بمدلولات الألفاظ.
3. لم يكونوا من المسيطرين على دقائق علم النحو ولا هم من المتمكنين من المجاز والاستعارة.
4. عدم اعتنائهم بأسباب النزول.
5. عدم اعتنائهم ببيان الأحكام الفقهية وغيرها من الأحكام الواردة في الآيات.
6. عدم تعرضهم لبعض الأدوات الضرورية التي تساعد على فهم الآيات القرآنية كالنصوص الحديثية مثلاً.

ورغم كل هذه القضايا فإن ترجمات القرآن الكريم تسهم بشكل كبير في تعريف الغرب بالإسلام، حيث يطلع على معاني القرآن بلغته الأصلية ، ويفهم الكثير من المسائل .

وقد تفطن الذين أسلموا من أوروبا إلى أهمية إعداد ترجمات وافية جيدة لماني القرآن الكريم، لأن الإقبال عليها كبير جدا، و لها دور فعال في تبليغ الناس دين الله الحنيف.

أكد المستشرق البلغاري الدكتور(توفيان تيوفا نوفا)الأستاذ في جامعة(صوفيا) والعضو في جمعية المستشرقين الأميركيين وعضو اتحاد المستشرقين الأوروبيين، أنه اعتنق الإسلام عن اقتناع تام حيث قال : (ترجمت معاني القرآن الكريم فاعتنقتُ الإسلام ، ولأنه الدين الحق الذي يُساوي بين البشر ويصون جميع الحقوق الإنسانية ويُرسى قواعد السلم والأمن في المجتمعات البشرية كافة•

[1]أنظر نحو ترجمات للقرآن الكريم –'محمد صالح البنداق'ص23

وأوضح في حواره أنه قضى أكثر من 12 عاماً لإنجاز ترجمة صحيحة لمعاني القرآن الكريم باللغة البلغارية... وبعد الانتهاء من إنجازها أعلن اعتناقه للإسلام بعد أن تفهَّم معاني الآيات القرآنية الكريمة... نتيجة لتعمقه في دراسة الإسلام ومعطياته الحضارية والثقافية الوفيرة...حيث ثبت لديه أن الحضارة الإسلامية هي أم الحضارات العالمية المعاصرة ، وأرقى أنواع الحضارات في العالم كله•

ويقول: لاحظت أن بعض المستشرقين . غير الموضوعيين . يطعنون في الإسلام.. وتركّز طعنهم على القرآن الكريم.. فقالوا: إنه كلام بشري لا رباني، كما طعنوا في الآيات المكيّة والآيات المدنيّة... وأنكروا حقيقة الوحي وغير ذلك من الافتراءات التي تعوّدوا على ترديدها في الساحة العلمية... وأنا . وكل مستشرق موضوعي . يرفض هذا المنهج الاستشراقي الذي يشوّه صورة الاستشراق الموضوعي ويطعن في الإسلام بلا مبرر.

وأضاف: وأنا أؤكد هنا.. أن الاستشراق ليس شراً كله على الإسلام والمسلمين.. صحيح أن هناك الكثير من الأخطاء في ترجمات معاني القرآن الكريم.. التي أعدّها نفر من المستشرقين .. إلا أننا يجب أن نفرّق بين الأخطاء المتعمّدة والأخطاء غير المتعمدة ... فالذين يُخطئون . بصورة عفوية . يكون ذلك دائماً نتيجة عدم إلمامهم باللغة العربية . التي هي لغة القرآن الكريم . ونتيجة أيضاً لعدم فهمهم لمعاني الآيات القرآنية الكريمة... وأنا شخصياً من المحتمل أن أخطئ في بعض دراساتي ولكنها أخطاء غير متعمّدة...والذي أود أن أوضحه هنا أن لكل مستشرق إسهاماته في فهم الإسلام والحضارة الإسلامية.. وكل مستشرق في هذا المجال له خبرته.. وأنا أحمد الله تعالى أن وفقني لإنجاز الترجمة التي قمت بها لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة البلغارية•• حيث التزمت فيها بدقة المعنى وموسيقا النص.. ما جعل دار الإفتاء العامة في بلغاريا تعتمدها وتقوم بتوزيعها على عدد كبير من المؤسسات الإسلامية، وفي مقدمتها المساجد، بالإضافة إلى عدد لا بأس به من المسلمين.

يقول المستشرق البلغاري د•"توفيان نوفا": لقد أصدرتُ مجموعة من الكتب التي قمتُ فيها بالردّ على هذه المزاعم والافتراءات الاستشراقية.. وقد تضمّنت مؤلفاتي الكثير من الحقائق التي نادى بها الإسلام...ومنها أن يكون لكل إنسان حرية اختيار العقيدة التي يؤمن به... لأن العقيدة اقتناع داخلي وعمل باطني لا يُجدي فيه الإكراه.. وأن لصاحب هذه العقيدة الحق الكامل في ممارسة شعائرها والعمل وفقاً لشريعتها . في حرية وعلنية تامة . وقد تمتع بهذه الحرية المطلقة أتباع الديانات الأخرى في ظل الدولة الإسلامية الأولى وحتى اليوم... وتوفّر لهم الدولة الإسلامية جميع الضمانات للعيش في أمن وسلام. وأنا كمستشرق أدت بي الدراسات الموضوعية الصحيحة لاعتناق الإسلام.. ومن ثمَّ أتصدى لهذه المنهجية الاستشراقية المعادية للإسلام والمسلمين .. وأدافع عن الدين الإسلامي الذي درسته واعتنقته.. وأنا واحد من المستشرقين الذين التزموا بالمنهج الموضوعي في دراساتهم الإسلامية.. ولا شك أن المنهج الاستشراقي غير الموضوعي هو وليد الحركة الاستعمارية والتبشيرية التي استهدفت تشويه الإسلام وصورته، وبث الأخطاء المتعمّدة حول الإسلام.. وأنا أعتقد أن هذا هو الجزء الأكبر في الحركة الاستشراقية العالمية التي يجب التصدي لها بكل السبل المتاحة لدى المؤسسات الإسلامية العالمية•

وقال: أما المنهج الاستشراقي الموضوعي، فيرتبط بغاية علمية واضحة المعالم..وهي دراسة الإسلام والتعرّف إلى حقائقه، ودراسة التراث الإسلامي والتأكد من دور الحضارة والثقافة الإسلاميتين في ترقية المجتمعات البشرية.. ولا شك أن نظرتي للمؤسسات الاستشراقية غير الموضوعية هي نظرة الحذر الشديد لكل ما يصدر عنها من دراسات.. واعتناقي للإسلام جعلني في موقف المدافع عن الإسلام ضد كل هذه الدراسات الاستشراقية المعادية للإسلام والمسلمين.

المثال الآخر هو ترجمة المفكر الأوربي محمد أسد لمعاني القرآن والتي صارت من أهم وأكثر الترجمات في العالم .)

هذا نموذج من النماذج المشرقة التي صنفت ضمن الدراسات الاستشراقية ولكنها كانت حقلا معرفيا إيجابيا في دراسته للشرق واعتناق الدين الحنيف والدفاع عنه وخدمة القرآن الكريم بترجمة معانيه للغة الأوربية من أجل الدعوة و غيره كثير.

المطلب الثاني: كثرة التصنيف في قضايا الإسلام

من الجهود المبذولة من طرف المستشرقين بمختلف فئاتهم، كثرة التصانيف والنشر الكتب والبحوث والمقالات ومن هذا النتاج الفكري هناك نتاج فكري يصب في دائرة التعريف بالإسلام وتصحيح المفاهيم

يقول في هذا الصدد الدكتور مراد هوفمان : (... هناك نتاج فكري وفقهي في الغرب أكثر من الشرق... فعلى سبيل المثال هناك كتب تنشر باللغة الإنجليزية أكثر مما ينشر بالعربية عن الإسلام... وفي الغرب هناك مراكز ضخمة يقوم على إدارتها فقهاء ومفكرون كبار يبذلون كل الجهد لخدمة الفكر والفقه الإسلامي ... فأنا أقوم منذ فترة بمراجعة الكتب التي تكتب عن الإسلام في الغرب وهو ما يتطلب مني قراءة، وهذا يعني أني أقرأ الكثير مما يكتب عن الإسلام كل يوم وأراجع عشرات الكتب في هذا الموضوع.. وأود أن أقول بأن هناك مفكرين مسلمين في الغرب يعملون ويكتبون بدون رقابة ولا حجر عليهم، وإنتاجهم أساس – في رأيي – لتطوير الإسلام ولتحديد معالمه .إن المسلمين في أمريكا وأوربا سيصبحون– كما أتوقع– قادة لتجديد الحضارة في الشرق .ولتأكيد ما قلته فإنني أضرب مثلا على ذلك؛ فقبل 3 سنوات وجهت لي مؤسسة العبيكان التي تنشر كتبي في السعودية دعوة لإلقاء محاضرة، فكان مما يثير العجب أن نحو 800 طالب استمعوا للمحاضرة وبعد انتهائها تم شراء 1500 نسخة من الكتابين التي قمت بتأليفهما (الإسلام كبديل، ورحلة إلى مكة) والدلالة هنا في أن هناك عدم ممانعة بل رغبة تصل إلى التعطش لقراءة إنتاج فكري إسلامي من الغرب. وتتأكد الدلالة حين تأتي الرغبة من طلاب وأتباع المذهب الوهابي في السعودية! الاستشراق ليس سلباً كله، يجب أن ندرك أن المستشرقين حينما بدأوا في دراسة الحضارة الإسلامية بدأوا بهدف معرفة إنجازات هذه الأمة، حتى يستطيعوا بناء حضارتهم ففي الوقت الذي كان في قرطبة ثلاثمائة حمام عام لم يكن في أوروبا كلها من يغتسل في الشهر مرة واحدة. فنحن أيضاً ننبهر بما في أوروبا من شوارع فسيحة ولطيفة وهم أيضاً كانوا منبهرين بما لدينا من رقي حضاري. وهنا لابد من ذكر كتاب الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله (من روائع حضارتنا) حينما يتكلم عن الأندلس ونظافة شوارعها، والمحتسب ودوره في مراقبة الأسواق. ونحو ذلك. فالمستشرقون درسوا الحضارة الإسلامية بهدف معرفة الإنجازات العظيمة التي حققتها هذه الحضارة في الرياضيات والطب والهندسة والفلك وفي غيرها، ولذلك عندما نقول إن المستشرقين بذلوا

جهوداً في نفض الغبار عن الكثير من تراثنا فإننا نعني ما نقول وهذا من الإنصاف. وما كنّا لنعرف الكثير من الكتب التراثية المهمة في التفسير وفي التاريخ إلاّ بتحقيقات المستشرقين ، وعندما تدرس سير المستشرقين تدرك كم كان لديهم من الدأب والصبر والجلد والتحمل والغوص في الكتب، وإنفاق العمر بل إن بعضهم أنفق أمواله من أجل هذا العلم ولم يكن ليخدم إمبراطورية أو حكومة. وإنما كان مترهباً في محراب العلم. وقال الله –عز وجل – (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن لا عدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى). مما ذكر في مجال الإنصاف أن مستشرقة كندية كانت تقدم بحثاً في مؤتمر عالمي في بودابست(المجر) عن فتاوى الونشريسي (العالم الأندلسي) حول المرأة وحقوقها المالية. مما أزعج بعض اليهود الذين كانوا يحضرون المؤتمر، وحاولوا أن ينتقدوها. إلاّ أنها كانت قوية وبينت أن الإسلام أعطى المرأة حقوقاً لم تحصل عليها في الغرب حتى بعد منتصف القرن العشرين.إذن هناك من بذل جهداً طيباً، وعلّم بعض أبناء المسلمين المنهجية العلمية كما علّمهم الدقة في العمل.

ويقول " هربرت ويلز": (كم من الأجيال ستكابد الخوف والشقاء قبل أن يبزغ فجر الإسلام العظيم الذي يبدو أن التاريخ بأكمله يتجه صوبه ! وسلام يومئذ يغمر الدنيا ... وسلام يغمر القلوب.)

يقول أستاذ الفلسفة راما كريشنا راو: (إن إلقاء نظرة على شخصية محمد تسمح لنا بالإطلاع على عدد كبير من المشاهد: فهناك محمد الرسول، ومحمد المجاهد ، ومحمد الحاكم، ومحمد الخطيب، ومحمد المصلح، ومحمد ملجأ الأيتام، ومحمد محرر العبيد ، ومحمد حامي المرأة، ومحمد القاضي، ومحمد العابد لله.. كل هذه الأدوار الرائعة تجعل منه أسوة للروح الإنسانية)(3) ،

ويقول برنارد شو:"إن أتباع محمد أوفر أدباً في كلامهم عن المسيح"(4)- هذه البحوث وغيرها كلها تصب في كثرة التصانيف عن الإسلام من طرف المستشرقين والتصنيف الموضوعي والمنصف الذي عرّف الغرب بالإسلام والقرآن والنبي محمدρ ومكانة المرأة و القيم العليا بمختلف اللغات و المناهج و الأنساق المعرفية .وهذا الأمر قد فرط فيه الكثير من المسلمين بمختلف تخصصاتهم و مراتبهم العلمية هذا هو مناخ التخلف الذي أناخ فوق صدر أمتنا ، فحجب الإسلام عن الأنام . يقول الإمام جمال الدين الأفغاني : "أفضل وسيلة لإقناع الغربيين بالإسلام أن نقنعهم أولاً بأننا لسنا مسلمين كما ينبغي" ، إذ أن نُدرة من الغربيين يستطعون التمييز بين الإسلام والمسلمين كعالم اللاهوت د. ميشيل لولونغ الذي يقول: "لا بد أن نقوّم الإسلام بعمل المسلمين الملتزمين ، وليس بعمل المنحرفين"(5).

(3) (محمد نبي الإسلام) د. راما كريشنا راو .

(4) (برناردشو) لعباس محمود العقاد ص (147) .

(5)عن (حوارات مع أوربيين غي مسلمين) د. عبد الله الأهدل (182)

الخاتمة

كان الاستشراق و مازال حقلا معرفيا خصبا لدراسة الشرق ،بكل مميزاته وقيمه وقد تصب الحقول المعرفية لدى هؤلاء في دراسة الإسلام ومقوماته من القرآن والسنة والمصادر والفقه ومن السيرة و التاريخ والمجتمع .

ومن خلال هذه الدراسات وخاصة إذا كانت موضوعية و تتسم بالأمانة و تعتمد على المصادر الموثوقة تصبح حقلا دعويا و تعريفيا بالإسلام في بلاد الغرب بمنهجهم و لغتهم ومن بني جلدتهم .

أن الاستشراق يحقق بعيد عن دوائر الاستشراق الكلاسيكية و التقليدية والقريبة من دوائر الحكومات و بخلفيات الاستعمار يحقق وجها آخر للاستشراق.

الهوامش

أضواء على الاستشراق، د. محمد عبد الفتاح عليان – ط1 – دار البحوث العلمية – الكويت1980 م.

آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب- أنور الجندي-مؤسسة الرسالة 1984م

أوروبا والإسلام، هشام جعيط – ترجمة طلال عتريسي – دار الحقيقة – بيروت 1980م.

الاستشراق ...المعرفة -السلطة –الإنشاء–الدكتور ادوارد سعيد ترجمة كمال أبو ديب-مؤسسة الأبحاث العربية –بيروت -ط5-2003م

الاستشراق في الميزان- مقال للباحث :أنور محمود زناتي –كلية التربية – جامعة عين شمس الاستتشراق، إدوارد سعيد- ترجمة كمال أبو ديب- مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت 1981

الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق – ط1 –كتاب الأمة 1404هـ.

الاستشراق والمستشرقون، د. مصطفى السباعي - ط2 -المكتب الإسلامي 1979م. الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم- أليكسي جورافيسكي ترجمة:د. خلف محمد الجراد السنة ورقم الطبعة : 2/ 2005

الإسلام بعد مائة عام -جروج برنارد شو . الأعمال الكاملة لعباس محمود العقاد - دار الكتاب اللبناني –1981م

الإسلام كبديل – مراد هوفمان – مكتبة العبيكان –الرياض - ط2- 1997م

الإسلام في الفكر الغربي، محمود حمدي زقزوق – دار القلم – الكويت 1981م.

الإسلام في مرآة الغرب –حمدي زقزوق – القاهرة، عام 1994.

الإسلام و الثقافة الغربية في مواجهة تحديات الاستعمار – أنور الجندي – مطبعة الرسالة – القاهرة

إنتاج المستشرقين- مالك بن نبي – مقال منشور في مجلة العربي -1970

برنارد شو - لعباس محمود العقاد المجلد التاسع عشر: تراجم وسير-دار الكتاب اللبناني - 1981

التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة -(جون ل-اسبوزيتو)-ترجمة قاسم عبده قاسم –دار الشروق –القاهرة -2001م

الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، د. جورج سارطون – ترجمة د. عمر فروخ – ط1- مكتبة المعارف – بيروت 1952م.

الدراسات الإسلامية بالعربية في الجامعات الألمانية، رودي بارت – ترجمة د. مصطفى ماهر – القاهرة 1967م.

السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي – بيروت 1978م.

العالم الإسلامي وقضاياه التاريخية- بيانكا سكارسيا. دار إبن خلدون 1984

عن (حوارات مع أوربيين غي مسلمين) د. عبد الله الأهدل
الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي – دار الفكر – بيروت 1973م.
المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د .عبد الكريم زيدان – مؤسسة الرسالة – بيروت 1981م.
المستشرقون، نجيب العقيقي – دار المعارف – القاهرة 1981م.
موسوعة (مقدمات العلوم والمناهج) للعلامة أنور الجندي – مجلد 8 –مطبعة الرسالة – القاهرة نحو ترجمات للقرآن الكريم –'محمد صالح البنداق'

موقف الإستشراق من أصالة الفلسفة الإسلامية

الدكتور مرزوق العمري
قسم العلوم الإسلامية
جامعة باتنة – الجزائر

مقدمة:

انشغل الإستشراق الحديث بكل النواحي المعرفية الإسلامية، وذلك بغرض الإفادة من هذه المعارف حينا لطبيعة الحاجة إليها لظروف تاريخية مرّ بها الغرب كالحربين العالميتين، ولأهداف معرفية لم تنفصل عن الصراع الثقافي القديم المتجدد بين الإسلام والغرب حينا آخر.

ومما تميز به الدرس الإستشراقي في العصر الحديث محاولة ربطه النصوص والمعارف الإسلامية بالمنظومة الغربية؛ فكما حاول ربط النص القرآني بغيره من نصوص الكتاب المقدس، وربط الفقه الإسلامي بالقانون الروماني، حاول كذلك ربط الفلسفة الإسلامية بالفلسفة اليونانية، مدعيا عدم وجود فلسفة إسلامية أصلا.

من هنا تبلور الباعث على البحث في هذا الموضوع والذي يتمثل في المبررين التاليين:

1-إن الفلسفة تسجل عودتها إلى ساحة المعرفة كما يؤكد ذلك المهتمون بالشأن الفكري، وهذا بعدما حوصرت من قبل العلم في تاريخها الحديث عقودا عديدة.

2-إن الفلسفة الإسلامية صفحة من صفحات المنظومة المعرفية الإسلامية التي طالتها شبهات الإستشراق، فكما طالت هذه الشبهات اللغة والعلوم الشرعية طالت الفلسفة أيضا، والمسؤولية المعرفية تحتم على المتخصصين رد هذه الشبهات.

انطلاقا من هذا الباعث المتنوع يمكن تصور الإشكالية التي تطرحها هذه الدراسة والتي يمكن صياغتها في التساؤلات التالية: ما المراد بأصالة الفلسفة الإسلامية؟

ما طبيعة الموقف الإستشراقي من أصالة الفلسفة الإسلامية؟ ما هي مبررات هذا الموقف؟ وما هي تداعياته عربيا ؟ ما هو رد فعل المسلمين إزاء هذه الشبهة؟

وقد اقتضت طبيعة هذه الإشكالية التعاطي معها بمنهجية خاصة تمثلت في المنهج التاريخي من جهة وفي المنهج التحليلي النقدي من جهة أخرى، وذلك حتى يمكننا عرض الموقف الإستشراقي كما هو من جهة وحتى يمكن عرضه على محك النقد من جهة أخرى.

كما اقتضى هذا الموضوع العودة إلى بعض الدراسات السابقة مثل كتابات الشيخ مصطفى عبد الرازق، والدكتور إبراهيم مذكور... وغيرهما ممن انخرط في الكتابة في هذا الموضوع.

1-أصالة الفلسفة الإسلامية: المراد بأصالة الفلسفة الإسلامية استقلاليتها بشخصيتها؛ أي أنها ليست فلسفة منقولة عن أي فلسفة أخرى، ولا هي مجرد ترجمة لها، ولا هي ناقلة عن غيرها، ولا هي منتحلة لصفة، فأصالتها كما هو

مستوحى من اسمها – فلسفة إسلامية- تعني أنها: فلسفة نبتت في الفضاء المعرفي الإسلامي، مرجعتها الإسلام، أعلامها مسلمون، إشكالياتها على صلة بالإسلام وقضايا المسلمين، ومنهجها يتفق مع تعاليم الإسلام وعقائده، نتائجها المرتسمة أو المتوصل إليها تصب في المصب العام للتصور الإسلامي، فإذا كانت كذلك فقد اكتسبت تميزها و فرادتها فكانت بحق فلسفة إسلامية أصيلة، وليست دخيلة وافدة تم نقلها إلى العربية وصيغت صياغة عربية كما قيل.

2- **طبيعة الموقف الإستشراقي:** مسألة أصالة الفلسفة الإسلامية وعدم أصالتها مسألة على ارتباط بالتحولات التي عرفها درس الإستشراق في العصر الحديث، فالمستشرقون هم الذين أثاروا هذه المسألة في إطار مناقشتهم لجدلية التأثير والتأثر بين الفلسفتين الغربية والإسلامية، وقد آلت الرؤية الإستشراقية إلى القول بإنكار وجود فلسفة إسلامية، وأن هذا الاسم – فلسفة إسلامية – اسم لا مسمى له؛ لأنه حسب هذه الرؤية لا يعد أن يكون ترجمة للفلسفة اليونانية، وقد مثل هذا الاتجاه الكثير من المستشرقين الذين اشتهروا ببحوثهم في مجال الفلسفة الإسلامية مثل :دي بور(DeBoer)([6])الذي قال:" **ظلت الفلسفة العربية على الدوام فلسفة انتخابية عمادها الاقتباس الصرف مما ترجم من كتب الإغريق، ومجرى تاريخها أدنى أن يكون فهما وتشربا لمعارف السابقين لا ابتكارا، ولم تتميز تميزا يذكر عن الفلسفة التي سبقتها لا بإنتاج مشكلات جديدة ولا هي استقلت بجديد فيما حاولته من معالجة المسائل القديمة فلا نجد لها في عالم الفكر خطوات جديدة تستحق أن نسجلها لها**" ([7]).

إن هذا النموذج الإستشراقي قدم لنا بوضوح رؤية الإستشراق لأصالة الفلسفة الإسلامية، وهي رؤية تنفي كلية وجود مسمى الفلسفة الإسلامية.

3- مبررات الموقف الإستشراقي:إذا ما تؤمل هذا الموقف نجده يقوم على عدة عوامل ومبررات هي:

3-1- العامل العرقي: وهو عامل رئيس لدى المستشرقين في نظرتهم لأصالة الفلسفة الإسلامية ومضمونه أن: التفلسف قمة التنظير وقمة التجريد، ومنتهى التأمل، وهو أمر اختص به الجنس الآري ولم يكن للجنس السامي حظ منه، ولذلك تم إنكار الفلسفة عند المسلمين لأنهم ساميون وفلسفتهم اعتبرت نقل ودراسة لفلسفة الآريين المتمثلة في الفلسفة اليونانية خاصة. وقد كانت هذه وجهة نظر المستشرق الفرنسي إرنست رينان خاصة (Ernest Renane ([8]). الذي كان يقول:"**ما يكون لنا أن نلتمس عند الجنس السامي دروسا فلسفية، ومن عجائب القدر أن هذا الجنس الذي استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة في أسمى درجاتها لم يثمر أدنى بحث فلسفي خاص، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباسا صرفا جديبا وتقليدا للفلسفة اليونانية**" ([9]).

من خلال هذا الكلام يبدو أن الأساس الذي اعتمده رينان في نفي الفلسفة الإسلامية هو الأساس العرقي، فكون العرب ساميين ذلك ما حال بينهم وبين التلفسف، وهذا الرأي أخذ به أيضا المستشرق الإنجليزي دي بور الذي اعتبر انطلاق

[6] - هو فيلسوف إنجليزي من مؤلفاته: تاريخ الفلسفة في الإسلام.

[7] – دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبوريده، دار النهضة العربية- بيروت بلا تاريخ، ص53.

[8] – مستشرق فرنسي من مؤلفاته ابن رشد و الرشدية

[9]- Ernest Renane : Averroes et L'averroisme ,8=eme ed,(1925) p7-8.

التفلسف عند المسلمين مرتبط باطلاعهم على الفلسفة اليونانية فقال:" **لم تكن للعقل السامي قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات في الفلسفة وراء الأحاجي والأمثال الحكمية، وكان هذا التفكير السامي يقوم على نظرات في شؤون الطبيعة متفرقة لا رباط بينها، ويقوم بوجه خاص على النظر في حياة الإنسان وفي مصيره، وإذا عرض للعقل السامي ما يعجز عن إدراكه لم يشق عليه أن يرده إلى إرادة الله التي لا يعجزها شيء والتي لا ندرك مداها ولا أسرارها**"([10]).

وإذا كان هذا النص على منوال نص رينان في نفي وجود فلسفة الإسلامية بسبب عجز العقل السامي فإننا نجد هذا الموقف يتجلي بشكل آخر عند إميل برييه(Emile Brehier) ([11]). الذي لم ينف وجود فلسفة إسلامية، بل أثبتها لكن أعلامها ليسوا ساميين بل آريين اعتنقوا الإسلام وهذا ما يتجلى في قوله:" **كان فلاسفة العرب ممن اعتنقوا الإسلام وكانوا يكتبون آثارهم بالعربية لكن جمهرتهم لم تكن من أصل سامي بل من أصل آري**"([12]).

والمتأمل في اعتماد المستشرقين على هذا العامل في نفي وجود فلسفة إسلامية يسجل الملاحظات التالية:

أ–إن ما قاله رينان من عجز العقل السامي عن التلفسف ومن ثم التأسيس لفلسفة متكاملة رغم نفيه ذلك إلا أنه أشاد بمقدرة العقل السامي في مجال الأديان مما يدل على أن الدين مجال فلسفي وقد عرف عند الساميين أكثر من غيرهم، كما أن الإسلام يرفض العصبية للعرق ويجعلها للدين لأنه الحق. وترتب على ذلك موقف المسلمين، فهم لم يقولوا فلسفة سامية أو غير سامية بل قالوا فلسفة إسلامية ؛ أي أن العبرة للدين لا لشيء آخر مهما كان، وقد انتبه الدكتور محمد عل أبو ريان في مناقشته لهذه الرؤية الإستشراقية فذهب إلى أن:" **المسلمين أنتجوا فلسفة خاصة بهم جديرة بأن تسمى فلسفة إسلامية أسهم فيها مفكروا الإسلام من الشعوب المختلفة من عرب وفرس وروم وسريان**"([13]). إذا فالعرقية لا عبرة بها في الإسلام.

ب– إن التفلسف يأخذ البعد الفطري الطبيعي في الإنسان وهذا ما تؤكده الفلسفة من أن الإنسان منذ فجره الأول وجد نفسه مجابها بأسئلة فلسفية كبيرة على غرار ما يعرف بالأسئلة الخالدة : من؟، ومن أين؟ وإلى أين؟. و بالتالي فجعل الفلسفة حكرا على عرق دون عرق وسلالة دون أخرى أمر مناف لطبيعة الفلسفة في حد ذاتها.

ج– ما ذهب إليه إميل برييه يؤكد وجود فلسفة إسلامية ولكنه اعتبر أعلامها غير ساميين. إن النظرة الإسلامية لا تهتم بالعرق بقدر ما تهتم بالدين والولاء له، ولذلك هذا الرأي في صف الإسلام وتاريخ الفلسفة الإسلامية.

3–2– العامل الديني: بالإضافة إلى العامل العرقي الذي اعتبره المستشرقون حال دون وجود فلسفة إسلامية هناك العامل الديني ومضمونه طبيعة نظرة الدين الإسلامي إلى الفكر الحر، وإلى ملكة التجريد ومدى تشجيعه أو نهيه عن ذلك؟. لقد ذهب المستشرقون إلى أن الإسلام نهى معتنقيه عن الخوض في مسائل الفلسفة على غرار: مسألة الألوهية،

[10] – دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص24.

[11] – مسترق فرنسي من أهم مؤلفاته : تاريخ الفلسفة.

7- Emile Brehier: Histoire de la philosophie,T1, p610.

[13] – محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية بيروت(1976)، ص22.

ومسألة الجبر والاختيار.. وغير ذلك، وهذا ما ذهب إليه رينان؛ إذ يعتبر الإسلام ضيق آفاق العرب وانتزع منهم كل بحث نظري.

وما يلاحظ على هذا العامل أنه وظف بشكل انتقائي؛ فإذا كان من المسلمين من انتقد الفلسفة بحجة معارضتها للدين فهناك من امتدحها منهم بحجة أنها طريق للإيمان وأنها الأخت الرضيعة للشريعة، وكان خير من مثل هذا الاتجاه أبو الوليد ابن رشد([14])، وقد تميز بتعريفه ذي البعد الإيماني للفلسفة الذي قال فيه:" **فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على وجود الصانع**" ([15]).

3-3- العامل التاريخي: ومضمونه أن تاريخ العرب لم يسجل أنهم أمة متفلسفة أو اشتهرت بفلاسفتها و ربما كان هذا الحكم مبنيا على ما ذهب إليه بعض مؤرخي الإسلام؛ لقد كان صاعد الأندلسي يقول عن العرب: " **وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز وجل شيئا منه ولا هيأ طباعهم للعناية به، ولا أعلم أحدا من صميم العرب شهر به إلا أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي وأبا محمد الحسن الهمذاني**"([16]). فهذه شهادة مؤرخ مسلم ينفي وجود فلسفة عند العرب، ويحكم بأن التاريخ لم يسجل لهم أي شيء من ذلك.

ويشبه هذا الموقف موقف الشهرستاني الذي اعتبر الاشتغال بالفلسفة عند العرب:" **أقرب إلى فلتات الطبع وخطرات الفكر والغالب عليهم الفطرة والطبع**"([17]). من خلال هذا الموقف وموقف صاعد الأندلسي اللذان اطلع عليهما المستشرقون بالتأكيد بالإضافة إلى عدم وجود فلسفة عربية في مستوى درجة تنظيم وشهرة فلسفة اليونان تكرس في النهاية موقف استشراقي ينفي أصالة الفلسفة الإسلامية، وقد تجلى ذلك في موقف حاسم عند رينان الذي قال:" **من الخطأ وسوء الدلالة بالألفاظ على المعاني أن نطلق على فلسفة اليونان المنقولة إلى العربية لفظ فلسفة عربية مع أنه لم يظهر لهذه الفلسفة في شبه جيرة العرب مبادئ ولا مقدمات فكل ما في الأمر أنها مكتوبة بلغة عربية**"([18]).

4- تداعيات هذا الموقف عربيا: وما تجدر الإشارة إليه أن هذا الموقف الإستشراقي صار له امتداد داخل الإطار الثقافي العربي فمن المفكرين العرب من يعتبر العقل العربي ليس بعقل فلسفي وأن العرب ما عرفوا الفلسفة قبل اطلاعهم على فلسفة اليونان، يقول أحمد أمين:" **لم يكن العرب يعرفون الفلسفة؛ لأنها ليست من طبيعتهم فقد اشتهروا بأنهم أهل لسن لا أهل فلسفة عميقة وهم أقرب إلى الحكمة منهم إلى الفلسفة، ولكل منهما ميزة، إنما عرفوا الفلسفة**

[14] – أبو الوليد ابن رشد قاض وطبيب وفقيه وفيلسوف أندلسي من أهم مؤلفاته: فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، بداية المجتهد ونهاية المقتصد...توفي سنة505هـ.

[15] – ابن رشد: فصل المقال، تعليق الدكتور أبو عمران الشيخ والأستاذ جلول البدوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1(1982) ص، 24.

[16] – صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، نقلا عن الشيخ مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ط1(1426هـ/2005م)، ص35.

[17] – الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كلاني، دار المعرفة بيروت، ج2، ص.60

18- Ernest Renane, Averroes et L'averroisme, p11

بعد أن اختلطوا باليونان والفرس والهند والروم، ونقلوا إليهم كتبهم الفلسفية"([19]) . وغير أحمد أمين العديد من الكتاب من يأخذ بهذا الرأي. وهكذا صار هذا الموقف الإستشراقي من يروج له في الفضاء المعرفي العربي.

5– رد الفعل الإسلامي: لقد ولد هذا الموقف الإستشراقي موقفا آخر مناوئا للرؤية الإستشراقية هو رد فعل إسلامي أنجزه من سموا بأنصار المدرسة الفسلفية الحديثة مثل: الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور إبراهيم مذكور... وغيرهما، فعن وجود فلسفة إسلامية وعدم وجودها؛ أي متميزة بخصوصياتها و إشكالياتها يقول الدكتور إبراهيم مذكور:" **نعم هناك فلسفة إسلامية امتازت بموضوعاتها وبحوثها ومسائلها ومعضلاتها وبما قدمت لهذه وتلك من حلول** "([20]) .

والمتأمل في هذه الرؤية الإسلامية وهذا الاتجاه يجده يقوم على عدة عوامل أيضا:

5–1–العامل التاريخي: وهو ذات العامل الذي وظفه خطاب الإستشراق من زاوية وظفته الرؤية الإسلامية من زاوية أخرى، وهذا لطبيعة الموقع الذي تموقعت في هذه الرؤية؛ إذ أنها كانت تتابع شبهات الإستشراق من أجل تفنيدها والرد على أصاحبها ولذلك عادت الرؤية الإسلامية إلى التاريخ مستندة إليه للبرهنة على أصالة الفلسفة الإسلامية، وقد ركزت الرؤية الإسلامية في تعاطيها مع العنصر التاريخي على عاملين اثنين:

أ– **طبيعة العقل العربي**: فما عرف عن هذا العقل أنه لم يكن ساذجا حتى في الجاهلية وبشكل خاص لحظة ظهور الإسلام وكيف كان موقفه من مسألة الوحي و الألوهية والنبوة وما جاء به الإسلام من تعاليم لها بعدها الفلسفي، وكيف أنها أفرز مواقف مختلفة لم تكن بمنأى عن الطرح الفلسفي كما هو عند الفلاسفة؛ فناقش مسألة التوحيد التي هي جوهر الإسلام، وناقش مسألة النبوة التي طرحت من خلالها مسألة الوحي وكيفية الاتصال بين الخالق والمخلوق، وموضوع الإنسان ...وغير ذلك مما كان محل مجادلة مشركي العرب للنبي صلى الله عليه وسلم.

وطبيعة هذا العقل هي التي جعلته يثير إشكاليات فلسفية قبل الإسلام مثل: الجدل الديني، التفكير العملي، الحكمة...وغير ذلك، وهي الإشكاليات التي اعتبرتها الرؤية الإسلامية بذورا عربية للتفكير الفلسفي في الإسلام.

فالجدل الديني منشأه تعدد الديانات في البيئة العربية التي ضمت: اليهود، النصارى، الصابئة، المجوس، المشركين. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الطوائف في قوله تعالى:" **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء قدير**"(الحج/17). ومن الطبيعي أن تثار في هذه البيئة المتعددة الديانات مناقشات وأن يكون صدام بين معتنقيها. قال الإمام الشافعي:" **كانت المجوس يدينون غير دين أهل الأوثان ويخالفون أهل الكتاب من اليهود والنصارى في بعض دينهم، وكان أهل الكتاب اليهود والنصارى يختلفون في بعض دينهم**"([21]). **وظاهرة الجدل هذه هي التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى:" وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء**"(البقرة/113).

[19] – أحمد أمين: ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي بيروت، ط3، ج2، ص127.

[20] – إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، سيريكو للطباعة والنشر، ط2 بلا تاريخ، ج1، ص19.

[21] – الإمام الشافعي: الأم، دار المعرفة، بيروت، ط2(1393ه)، ج4، ص173.

أما التفكير العملي فهو ضرب من التفكير عادة ما تدفع إليه الحاجة وهذا عند جميع الأمم فيأخذ بذلك البعد الطبيعي الواقعي، والفلسفة من أبعادها البعد العملي وهذا ما يصطلح عليه بالحكمة العملية، وهذا النمط من التفكير أكد وجوده عند العرب صاعد الأندلسي على الرغم من نفيه الفلسفة عندهم كما سبق الذكر حيث قال عنهم في اهتمامهم بهذا النوع من التفكير بأنهم:" **أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب في العلوم**"([22]).

أما ظاهرة الحكمة فقد اشتهر بها العرب قبل الإسلام بشكل ملفت للانتباه؛ حيث تم تخليدها في أشعارهم وحكمهم وأمثالهم، وبقي قول الحكمة له شأن عند العرب حتى بعد مجيء الإسلام، بل اعتبر الإسلام ذلك من الفضائل والنعم التي يمن الله عز وجل بها على من يشاء لأنها الخير الكثير كما في قوله تعالى:" **ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا**"(البقرة/269) يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق عن هذه الظاهرة عند العرب:" **كان لهؤلاء المفكرين أمثال تجري على ألسنتهم شعرا أو نثرا حكما بالغة من ثمار الاختبار والتجربة والعقل الراجح، وكانت هذه الأمثال عند العرب تراثا علميا ثمينا يتنافسون في الاحتفاظ به**"([23]) .

ب– أعلام العرب: بالإضافة إلى الجانب الأول الذي ركزت عليه الرؤية الإسلامية لإثباتها أصالة الفلسفة الإسلامية وهو طبيعة العقل العربي الذي لم يكن ساذجا والذي أسس لبعض الإشكاليات الفلسفية، تتجه هذه الرؤية إلى إثبات وجود أعلام ومفكرين عرب أصلاء هم الذين كانوا يثيرون هذه المسائل الفلسفية، هؤلاء الأعلام كان لهم شأنهم عند العرب لما اتصفوا به من حكمة ورجاحة عقل، وبعد نظر، وتأمل، ومواقف ميزتهم عن غيرهم حتى حفظ تاريخ العرب أسماءهم ومواقفهم. وقد أشار الجاحظ إلى هؤلاء بقوله:" **ومن القدماء من كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء**"([24]).

ومن هؤلاء الأعلام أكثم بن صيفي بن رباح الذي اشتهر بحكم مثلت نظرته الفلسفية للحياة من ذلك قوله:

" إن قول الحق لم يدع لي صديقا"

"يتشابه الأمر إذا أقبل وإذا أدبر يعرفه الكيس والأحمق"

" لا تغضوا عن اليسير فإنه يجني الكثير"([25]).

5–2– التميّز الموضوعي: مادامت الرؤية الإستشراقية هي التي أثارت مسألة أصالة الفلسفة الإسلامية ووجدنا كيف أن المستشرقين نفوا تميز الفلسفة الإسلامية بأية إشكالية، ذهبت الرؤية الإسلامية في ردها على ذلك بإثبات مواضيع فلسفية إسلامية مثلت بتكاملها موضوع الفلسفة الإسلامية ومن ثم فهي فلسفة ذات تميز موضوعي وهذا يؤدي إلى القول بأصالتها. يقول الدكتور إبراهيم مذكور:" **إن الفلسفة الإسلامية ذات طابع خاص وشخصية مستقلة أخص**

[22] – صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، نقلا عن الشيخ مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص111.

[23] – مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص112.

[24] – الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط1(1998م)، ج1، ص192.

[25] – المصدر نفسه.

خصائصها التوفيق والاختيار؛ توفق بين النقل والعقل وتؤاخي بين الدين والفلسفة، وذلك لأن فلاسفة الإسلام يرون أنه يمكن كشف الحقيقة من طرق شتى وبوسائل متعددة، فيقودنا إليها المنطق والبرهان كما يقودنا إليها الوحي والإلهام "([26]).كما أن الشيخ مصطفى عبد الرازق في وصفه للفلسفة الإسلامية أشار إلى أنها تستوعب مسائل الحكمة وكذا قضايا علم الكلام والتصوف وأصول الفقه([27]).

من خلال هذا يبدو أن الفلسفة الإسلامية تميزت عن غيرها من الفلسفات بموضوعها حيث استوعبت أقسام الحكمة النظرية والعملية، وتناولت بالبحث المشكلات الفلسفية الكبرى مثل: نظرية الوجود، وعالجت مسألة الزمان والمكان والمادة، ونظرية المعرفة، وفصلت القول في نظرية السعادة، كما اعتنت بمشكلة الواحد والمتعدد، والصلة بين الله ومخلوقاته، وتحاول التوفيق بين النقل والعقل، فاكتسبت بذلك خاصية أخرى وهي الروحانية وعدت فلسفة روحية في مقابل الفلسفات المادية كفلسفة اليونان، ثم اتسعت موضوعات الفلسفة الإسلامية وانتظمت وخضعت للضبط المنهجي إلى أن صارت معارف مكتملة شكلت بتكاملها ما يسمى بالفلسفة الإسلامية التي هي اسم له مسمى خلاف ما ذهب إليه المستشرقون.

ومسماها يتمثل في: علم الكلام، علم أصول الفقه، علم التصوف بالإضافة إلى مسائل الحكمة، وهذا بالنظر إلى طبيعة هذه المعارف فمن جهة نشأتها في بيئة إسلامية بحتة، ومن جهة أخرى مسائلها على صلة بالدين الإسلامي، ومن جهة ثالثة انشغل بها المسلمون قبل اطلاعهم على الفلسفة اليونانية. وهذا الأمر شهد به المستشرقون أنفسهم فقد كان رينان يقول:" **إن الحركة الفلسفية الحقيقية في الإسلام يجب أن تلتمس في مذاهب المتكلمين**"([28]).

بناء على ما تقدم من إثبات تميز الفلسفة الإسلامية بموضوعاتها و إشكاليتها، وبناء على شهادات المستشرقين من أن الواجهة الأساسية للفلسفة الإسلامية تتمثل في علم الكلام وهو علم إسلامي أصيل بناء على ذلك أكدت الرؤية الإسلامية أصالة الفلسفة الإسلامية. وهذه النظرة التأصيلية للفلسفة الإسلامية يمكن القول أنها انتبه إليها في وقت مبكر شيئا ما الذين اشتغلوا بتصنيف العلوم عند المسلمين على غرار التهانوي في كتابه كشاف اصطلاحات الفنون الذي قال فيه:" **إذ التحقيق أن الكلام والفقه من الحكمة**"([29]).

وذهب حاجي خليفة إلى اعتبار الطريق إلى التفلسف يتم من وجهتين:

1- إحداهما طريقة أهل النظر والاستدلال، والسالكون لهذا الطريق إن التزموا ملّة من ملل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهم المتكلمون، وإلا فهم الحكماء المشاؤون.

[26] – إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، ج1، ص190.

[27] – الشيخ مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص .31

[24] –Ernest Renane: Averroes et l'Averroesme, p89.

[29] – التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، ط بيروت(1966)، ص37.

2- طريقة أهل الرياضة والمجاهدات، والسالكون لهذه الطريقة إذا افقوا في رياضتهم أحكام الشرع فهم المتصوفة وإلا فهم الإشراقيون([30]).

ثم كان لهذا الموقف تجلّ واضح عند الكثيرين فالشيخ مصطفى عبد الرازق ذهب إلى أن علم أصول الفقه ليس ضعيف الصلة بالفلسفة([31])، وكان الدكتور إبراهيم مذكور ينادي بضرورة ضم علم الكلام وعلم أصول الفقه إلى مباحث الفكر الفلسفي عند المسلمين([32]).

مما سبق وبناء على العمل الأول- تاريخ العرب- الذي أكد وجود بذور فكر فلسفي عربي، ومن خلال العامل الثاني – التميز الموضوعي- الذي أكد استقلالية الفلسفة الإسلامية بإشكالياتها، بناء على ذلك آلت الرؤية الإسلامية إلى إثبات أصالة الفلسفة الإسلامية، وأن هذا الإسم له مسمى يتمثل في: مسائل الحكمة وعلم الكلام والتصوف وعلم أصول الفقه([33]). ومما لاشك فيه أن هذه معارف إسلامية أصيلة بعضها عرفه المسلمون قبل اطلاعهم على الفلسفة اليونانية مثل علم الكلام، وبعضه كانت نشأته لحاجة إسلامية بحتة مثل علم أصول الفقه.

الخاتمة:

مما سبق ومن خلال عرض الموقف الإستشراقي وبيان العوامل التي انبنى عليها، ومن خلال عرض رد الفعل الإسلامي أيضا يمكن تقرير النتائج التالية:

1- بناء على تحديد دلالة الأصالة وإسقاطها على الفلسفة الإسلامية يمكن القول أنها موسومة بهذه الأصالة، وإذا كانت هناك جوانب فيها تأثر للمسلمين بفلسفة اليونان فهذا لا يلغي خاصية الأصالة عن الفلسفة الإسلامية؛ لأن طبيعة الفكر الإنساني أنه يؤثر ويتأثر.

2- إن الموقف الإستشراقي في إنكاره أصلة الفلسفة الإسلامية أسس هذه الرؤية على أساس عرقي وهو أساس غير علمي، كما أنه في اعتباره الدين الإسلامي حجر على المسلمين مهمة النظر و التفكير هذا تحامل على الإسلام لا يعتد به، فالإسلام يأمر بالتأمل والنظر وليس العكس.

3- إن التداعيات التي أحدثها الموقف الإستشراقي عربيا يمكن إدراجها في خانة التأثر والإعجاب بالآخر واحتقار الذات ليس إلا.

4- إن رد الفعل الإسلامي إزاء هذه الشبهة فيه تتبع للشبهة ومحاولة الرد عليها من مختلف الجوانب، وهو رد فعل يمكن استثماره في الراهن المعرفي لتوكيد التميز الإسلامي.

[30] – حاجي خليفة : كشف الظنون بأسامي الكتب والفنون، ج1، ص443.

[31] – الشيخ مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص 27.

[32] – إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، ج1، ص17.

[33] – عبد الحميد عرفان: الفلسفة الإسلامية دراسة ونقد، مؤسسة الرسالة، ط2(404هـ/1984م)، ص20.

الاستشراق والإسلام من خلال
شخصية كرستيان سنوك هورخرونيه.

الأستاذ خشاب الصادق

جامعة المدية

الاستشراق تيار فكري، يتجه صوب الشرق لدراسة حضارته وأديانه ولغته وأدابه.اللفظة مأخوذة من كلمة شرق ثم أضيف إليها ثلاثة حروف هي الألف والسين والتاء ،ومعناها طلب الشرق ، وليس طلب الشرق سوى طلب علوم الشرق وآدابه ولغاته وأديانه.ولعل هذا التعريف اللغوي بالنسبة للغة العربية. أما في اللغات الأوروبية فثمة تعريف آخر يدل على أن المقصود بالشرق ليس الشرق الجغرافي وإنما الشرق المقترن معنى الشروق والضياء والنور والهداية.

فان كلمة استشراق لا ترتبط فقط بالمشرق الجغرافي وإنما تعني أن الشرق هو مشرق الشمس ولهذا دلالة معنوية بمعنى الشروق والضياء والنور والهداية بعكس الغروب بمعنى الأفول والانتهاء .

إن الاستشراق مصطلح في غاية الغموض و الإبهام لأن الشرق هو اصطلاح ابتدعته أوروبا لكل أرض تقع وراء حدودها شرقا إلى اليابان،بيد أن المصطلح بدأ ينحصر عبر القرون الوسطى في مفهومه العام و الغامض على الشرق الأوسط وما فيه من أديان و ثقافات أو حضارات مختلفة[34]. كما يشكل الاستشراق شبكة المصالح التي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها في كل مناسبة يكون فيها ذلك الكيان العجيب هو الشرق موضوعا للتفكير في الغرب[35]. أما في الاصطلاح فإننا نعود إلى ما كتبه الغربيون أولاً عن هذا المجال المعرفي الذي أنشئت المعاهد والكليات والأقسام العلمية لدراسته. ويرى بعض الباحثين الغربيين أن مصطلح الاستشراق ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان على تفاوت بسيط بالنسبة للمعاجم الأوروبية المختلفة، لكن الأمر المتيقن منه هو البحث في لغات الشرق وأديانه وبخاصة الإسلام قد ظهر قبل ذلك بكثير. ولو انتقلنا إلى العرب والمسلمين الذين تناولوا هذا المصطلح نجد أن إدوارد سعيد قدم عدة تعريفات للاستشراق منها أنه : " أسلوب في التفكير مبني على تميّز متعلق بوجود المعرفة بين "الشرق"
(معظم الوقت) وبين الغرب"ويضيف سعيد بأن الاستشراق ليس مجرد موضوع سياسي أو حقل بحثي ينعكس سلباً باختلاف الثقافات والدراسات أو المؤسسات وليس تكديساً لمجموعة كبيرة من النصوص حول المشرق ... إنه بالتالي توزيع للوعي الجغرافي إلى نصوص جمالية وعلمية واقتصادية واجتماعية وفي فقه اللغة . وفي موضع آخر يعرف سعيد الاستشراق بأنه المجال المعرفي أو العلم الذي يُتوصل به إلى الشرق بصورة منظمّة كموضوع للتعلم والاكتشاف والتطبيق.ويقول في موضع آخر إنّ الاستشراق: نوع من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة حكم الغرب للشرق."
لقد قدّم أحمد عبد الحميد غراب مجموعة من التعريفات للاستشراق استناداً إلى العديد من المراجع في هذا المجال ثم اختار أن يجمع بينها في تعريف واحد وهذا التعريف هو : " هو دراسات "أكاديمية " يقوم بها غربيون. كافرون – من أهل

[34] – قاسم السامرائي ، الاستشراق(بين الموضوعية و الافتعالية)،ط1،دار الرفاعي للنشر والطباعة و التوزيع، الرياض،1983.ص107

[35] – ادوارد سعيد، الاستشراق،تر،كمال أبوديب ،مؤسسة الأبحاث العربية،بيروت ،1981.ص39.

الكتاب بوجه خاص– للإسلام والمسلمين، من شتى الجوانب : عقيدة ،وشريعة ، وثقافة ، وحضارة ، وتاريخاً، ونظماً، وثروات وإمكانات .. .بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه ، وتضليلهم عنه ، وفرض التبعية للغرب عليهم ، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية ، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي.

اختلف الباحثون في نشأة الاستشراق في تحديد سنة معنية أو فترة معينة لنشأة الاستشراق فيرى البعض أن الاستشراق ظهر مع ظهور الإسلام. ولعل اهتمام النصارى بهذا الدين يعود إلى هجرة المسلمين إلى الحبشة وقد كان ملكها النجاشي نصرانياً وما دار من حديث حول هذا الدين بين البطارقة في مجلسه، وكيف أدرك هذا الملك حقيقة هذا الدين فاعتنقه. وكانت الفرصة الثانية لتعرف النصارى على هذا الدين حينما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم رسله إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية وكان هرقل عظيم الروم أحد هؤلاء الملوك وكان أبو سفيان في تجارة له إلى الشام فاستدعاه هرقل وسأله عن الإسلام وأظهر هرقل اقتناعه بصدق هذا الدين وحقيقته.و هناك رأي بأن غزوة مؤتة التي كانت أول احتكاك عسكري تعد من البدايات للاستشراق ويرى آخرون أن أول اهتمام بالإسلام والرد عليه بدأ مع يوحنا الدمشقي وكتابه الذي حاول فيه أن يوضح للنصارى كيف يجادلون المسلمين. ويرى آخرون أن الحروب الصليبية هي بداية الاحتكاك الفعلي بين المسلمين والنصارى الأمر الذي دفع النصارى إلى محاولة التعرف على المسلمين. وبخاصة أنه بعد هزيمة لويس التاسع وأسره في المنصورة واقتناعه بصعوبة هزيمة المسلمين عسكرياً فلا بد من التخطيط الفكري بجانب التخطيط الحربي والسياسي مما تمخض عنه بداية الدراسات الاستشراقية.

وثمة رأي له عدد من المؤيدين أن احتكاك النصارى بالمسلمين في الأندلس هو الانطلاقة الحقيقية لمعرفة النصارى بالمسلمين والاهتمام بالعلوم الإسلامية ويميل إلى هذا الرأي بعض رواد البحث في الاستشراق من المسلمين ومنهم الشيخ الدكتور مصطفى السباعي.

إن الاستشراق في الحقيقة امتداد للحروب الصليبية ضدّ الإسلام وحقائقه الناصعة؛ لأن الحروب الصليبية لم تنته، وإنما اتخذت أشكالا وألوانا مختلفة، منها الاستشراق؛ فالمستشرق يجيء إلى الإسلام مدّعيا البحث عن الحقيقة، ولكنه في الباطن قد عقد النية على جمع المطاعن الملفقة عن الإسلام؛ فلا يلبث أن يرمي الإسلام بكل ما يحمل صدره من غل، وينفث قلمه من سم؛ فهو يتنكر لمنهج العلم الصحيح الذي من شأنه أن يعرض الحقائق، وأن يترك للناس الحكم عليها، دون أن يمزجها بمرارة حقده، و نفثات عداوته، ودون أن يحاول تشويه هذه الحقائق بصورة من الصور والمتتبع لحركة الاستشراق يجد أنه مواكب لحركة الاستعمار الغربي لبلاد الشرق والإسلام، مما يدل على أنه امتداد للحروب الصليبية، وشكل من إشكالها، وقد نشطت حركة الاستشراق وبلغت أشدها منذ قرنين من الزمان في صورة حركة تابعة لحركة الاستعمار.

و من أهم دوافع الاستشراق،الدافع العلمي الصرف،والدافع السياسي

و الاستعماري، والدافع الديني التبشيري وأخيرا الدافع الاقتصادي[36] والمستشرقون جماعة من علماء الغرب درسوا اللغات الشرقية من عربية وفارسية وعبرية وسريانية وغيرها، كثير منهم له إطلاع واسع على اللغة العربية علومها ومعارفها؛ لاتخاذ هذه الدراسة وسيلة لبث كثير من المفتريات والأباطيل في محيط الإسلام للتهوين من شأن الدعوة الإسلامية والتقليل من أثرها في الحياة، وبدورها في إنقاذ الإنسانية وتحريرها من العبودية، وإخراجها من الظلمات إلى النور. ودورها في نشر العلوم والمعارف، وفي نقل أوربا من العصور الوسطى – عصور الجهل والظلام – إلى مشارف العصر الحديث، وما ظهر فيها من علوم ومعارف يفخر بها العالم الغربي .

من بين ما يفخر به الغرب اليوم العولمة و التي لها أثر كبير في الإعلام و الثقافة و القيم ،مع العلم أن العولمة لا قيم لها ،و من أثار العولمة ضرب الهوية الثقافية، فهم يملكون إعلاما بلا قيم و نحن نملك قيما بلا إعلام[37]. في معناها اللغوي هو تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله. يمكن تحديد مفهوم العولمة بأنها نظام غربي حديث يمتلك زمام التكنولوجيا، يسعى نحو تحقيق أهداف كبرى في مقدمتها الإحاطة باقتصاد العالم وصولا إلى نسيجه الاجتماعي والثقافي، وذلك من خلال إقامة نظام كوني بديل، تذوب فيه الثقافات القومية المتنوعة لتحل مكانها حضارة كونية عالمية موحدة. وفي ذلك انقلاب في طبيعة العلاقات التي تربط الإنسان بواقعه وتاريخه الحضاري وميراثه الثقافي. و لهذا سرعان ما انتقل مفهوم العولمة إلى القنوات الثقافية فظهرت مصطلحات جديدة نحو : الثقافة الشاملة، والأدب العالمي، مما أثار جملة من الإشكالات في الفكر والثقافة، وفي مقدمتها إشكالية الهوية والخصوصية الحضارية.

تهدف العولمة إلى توحيد الأنماط الثقافية المختلفة وجعلها في منظومة ثقافية واحدة تؤمن بها الدولة الفاعلة وهي الولايات المتحدة الأمريكية تحقيقا لمصالح اقتصادية معينة بالدرجة الأولى. ولذلك فهي عولمة متوحشة تعمل على إقصاء الآخر من خلال أنجع السبل والوسائل ألا وهي سياسة الاختراق الثقافي. مما يعني أن العولمة لا تحترم خصوصيات المجتمعات الإنسانية وهوياتها الثقافية. وهكذا فإن العولمة تطال الثقافات بالذات، بما أنها مرجعيات للدلالة وأنماط للوجود والحياة الخاصة بكل أمة أو دولة أو مجتمع.

ومن خصائص العولمة التحكم في آليات التفكير والتحليل والتصور والتماثل، أي ما يمكن أن نسميه بكلمة واحدة بالمخيال. وحين تتم السيطرة على مخيال المجتمع يصبح بذلك التعبير عن وجوده منقوصا ومتحكما فيه. فالعولمة تعمل على ما يلي :

1- التحكم بالمخيال الجماعي من خلال الصورة الإعلامية والتلفزيونية التي تؤثر في الشباب مما يؤدي بهم إلى تغيير سلوكاتهم بما يتلاءم مع ثقافة تروج لها العولمة.

[36] قاسم السامرائي ، الاستشراق،108

[37]– محمد إبراهيم مبروك ،الإسلام والعولمة ،الدار القومية العربية ،القاهرة ،1999.ص 79

2- تنميط الحياة اليومية بحكم فراغ المخيال الجماعي بحيث يؤدي ذلك إلى ظهور نمط معيشي يومي واحد، ومشاعر إنسانية واحدة لدى الشعوب المتأثرة بثقافة العولمة.

3-تهميش كل إبداع فكري وثقافي لا يتصل بالسوق كليا أو جزئيا، بحيث يصبح ملغى ولا قيمة له.

4-انقطاع الشعوب عن التواصل مع التراث والممارسات الثقافية التقليدية، بحيث ترمي العولمة في العالم إلى إحلال ثقافة سطحية.

والعولمة ليست هي العالمية، بحيث يختلف مصطلح العولمة عن مصطلح العالمية. فالعالمية لا تهدف إلى إقصاء الآخر، وإنما هي التفتح على العالم في إطار احترام الثقافات المتنوعة. أما العولمة فهي نفي للآخر وإحلال الاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي و الاستشراق هو ذلك النوع من المعرفة التي شيدها الغرب لنفسه عن الشرق[38]. فالعالمية قيمة إنسانية نبيلة وشريفة تفيد انضواء الإنسانية كلها تحت قيم أخلاقية نظيفة واحدة فهما وعلما وعملا.و منها قيم البر والعمل والعلم و الإحسان والعدل والوفاء و الصبر.

أما وقد تعاظم دور اللغة العربية في عصر العولمة والمتغير المعلوماتي، فثمة معركة لغوية بالسر والعلانية نتيجة إحساس كثير من دول العالم بخطر لغة العولمة.

فبعد سقوط الأندلس عكف المستشرقون على التحليل و البحث في نوادر المؤلفات العربية و في شتى أنواع المعرفة ،و لم يتركوا جانبا من جوانب هذه العلوم إلا و تناولوها بالتحقيق والدرس ،فتكونت لديهم معارف واسعة عن الشر من حيث سكانه و عاداته و اقتصادياته وطرق تجارته ومواطن القوة و الضعف فيه ،حاجتهم إلى الزيادة بمعرفة الشرق و أحواله لم تتوقف أبدا،حيث قام أغلب المستشرقين برحلات من الغرب إلى الشرق طمعا في الاستيلاء على هذه البلاد ، وذلك لما تزخر به من ثروات اقتصادية و كنوز حضارية. فسخرت الحكومات الغربية هؤلاء الناس لخدمة أغراضها الاستعمارية التوسعية ،تمثلت في تلك الرحلات التي قام بها الرواد المستشرقون لتقديم صورة واضحة وأكثر دقة عن الشرق.

لا أستطيع التعرض بالتفصيل إلى كل هذه الأعمال التي قام بها هؤلاء المستشرقون في هذه المرحلة لاتساعها وشموليتها ، والأهداف الاستعمارية والسياسية المتعددة التي سعوا إلى تحقيقها ، فسأكتفي بعرض شخصية مهمة بالنسبة لتاريخ الاستشراق الهولندي وهو(كريستيان سنوك هورخرونيه)الذي خدم الاستعمار الهولندي في آسيا و خاصة اندونيسيا بتقاريره الاستخباراتية دراساته الاستشراقية . عمل على ربط المستعمرات الهولندية في اندونيسيا بروابط ثقافية وإنكار الدور السياسي للقران والسنة لإقامة نظام سياسي وهذا يظهر في معظم كتاباته الاستشراقية .علق ادوارد سعيد على سنوك قائلا عند كريستيان سنوك هورخرونيه معرفة الشرق إما تزيد أو تحقق أو تعمق الخلاف الذي بواسطته تسطيع السيادة الاوربية أن تمتد الى اسيا [39].

[1] – محمد عابد الجابري ، مسألة الهوية العروبةوالاسلام والغرب،ط1،مركز الدراسات الوحدة العربية ،بيروت،1995.ص128

[39] – ادوارد سعيد، الاستشراق،ص255.

كرستيان سنوك هورخرونيه هو أشهر مستشرق هولندي معروف في الجزيرة العربية وأندونيسيا لنشاطه في هذين البلدين، وقد عدّ عميد العربية بعد كولد زيهر وفي طليعة رواد الفقه الإسلامي والأصول والحديث في أوربا. فإن أثر كرستيان سنوك على الاستشراق الهولندي كان شاملا وعميقا حتى يومنا هذا، عمق هذا الأثر وشموله يتجلى في مكانته بين المستشرقين الهولنديين اليوم وطموحهم العميق في تقليده ومحاكاة نفسيته بل وحتى نشاطاته التنكرية[40].

لم تكن دراسة الشريعة عند كريستيان سنوك إلا لأغراض عملية، وهذه الأغراض العملية نعني منها استعمال واستخدام الشريعة لغرض الاستعمار والسيطرة، كلما ازدادات صلات أوربا الودية مع الشرق الإسلامي ازداد معها وقوع الأقطار الإسلامية تحت سيطرة أوربا، وازداد معها كذلك حاجة المستشرقين إلى معرفة الحياة الفكرية ومفاهيم الإسلام وشريعته الدينية[41].

وليس عبثا أن يعد كرستيان رائد الفقه الإسلامي والأصول والحديث في أوربا لأنه لم يترك أي مناسبة في كتاباته دون أن يؤكد على ان الشريعة الإسلامية المستندة على القرآن والسنة موجودة في الكتب النظرية أما علميا فإنها لم تصلح لإقامة نظام سياسي، قاصدا من وراء ذلك إبدال الإسلام بثقافة أوربية تسهل التبعية السياسية والدينية لأهل جاوة وسومطرة ... وكل مستعمرات هولندا في أندونيسيا.

التعريف بشخصية كرستيان سنوك هورخرونيه: ولد في سنة 1857 لأب قسيس وتوفي سنة 1926 قدم إلى مكة سنة 1884 تحت اسم عبد الغفار، ومكث بها مدة نصف عام، وقد سبق له أن أقام في جزيرة جاوة بأندونيسيا مدة 17 سنة، خدم الاستعمار الهولندي في المشرق الإسلامي بتقاريره وبحوثه، وهو صاحب نظرية الوحدة الروحية والثقافية أي الرغبة في العيش معا والرضا بحكم الهولنديين.

درس اللاهوت، ثم بدأ دراسته للعربية والإسلام وتخرج في سنة 1880 برسالة عن الحج إلى مكة، تعرف إلى الأستاذ أمين المدني الحلواني في مؤتمر للمستشرقين عقد في لايدن سنة 1883 وربط معه علاقات علمية، ويمكن أن نستخلص من المراسلات الشخصية العديدة التي كانت بين سنوك وأمين المدني أن هذا الأخير قد أبان الطريق لسنوك لدخول مكة وإعلان إسلامه وإشهاره على الملأ، استمر يمثل هذا الدور على المسلمين في مكة ومن ثم في أندونيسيا طيلة حياته، مكث سنوك ستة أشهر في مكة متخذا اسم عبد الغفار له وصار يختلف إلى مجالس العلماء، وشيوخ التعليم فوطد علاقته بالكثير من علماء مكة وبالكثير من علماء جاوه وسومطرة، وإيجي وغيرهم[42].

كل هذه الدراسات للعربية والإسلام وهذه العلاقات التي وطدها مع شيوخ وعلماء مكة والتوصيات والإجازات التي أخذها عنهم، ما كانت إلا خدمة للاستعمار الهولندي في آسيا وخاصة في أندونيسيا وبالأخص في قمع الثورات والتمردات كثورة إيجي.

[40] قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ط1، منشورات دار الرفاعي، 1983، الرياض، ص 104.

[41] نفس المرجع، ص 110.

[42] قاسم السمرائي، الاستشراق، ص 112.

كل ما كتب عن كريستيان سنوك من المستشرقين الهولنديين كان له المديح وكثرة الثناء، فإن دراسته الرائدة للشريعة الإسلامية وما يعنيه الإسلام في حياة أتباعه جعلته واحدا من مؤسسي علم الإسلاميات الحديث في الجامعات الغربية هذا حد قول (دريفس)، وقال فرانك شرودر، لقد صار خبيرا بالشريعة الإسلامية ... حتى وإن كان الاحترام للإسلام فإن سياسته الإسلامية كانت تعني رفض محتوى الإسلام السياسي وإبداله بقوانين العادات والأعراف والتقاليد.

يتحاشى الكثير ممن كتب عنه الاعتراف بأنه استطاع الدخول إلى مكة المكرمة لأنه أعلن إسلامه رسميا، وقد نجح في سنة 1885 في الدخول إلى المدينة المقدسة (مكة) حيث عاش بها خمسة أشهر ونصف.

اختلف الكثير ممن كتب عن هذا المستشرق وذلك في الهدف الذي أراد تحقيقه من سفره إلى مكة المكرمة وأكد بعضهم أنه سافر من أجل دعم معرفته النظرية بالعملية أو من أجل المعرفة والتعلم، لكن الحقيقة لازالت غامضة ذلك لأن أغلب المعلومات التي أوردها على الوثائق الرسمية وعلى بعض الرسائل والتي لم تنشر بعد[43]، فهناك مجرد احتمالات وتخمينات تشير إلى أن عملية طرده كانت بسبب النقوش الأثرية والخلاف الفرنسي والهولندي حول مقتل الجاسوس والباحث في الآثار وهو فرنسي في جدة ومنذ ذلك اتهم سنوك أنه هو من وراء عملية القتل ومن دبر الجريمة للحصول على نقوش الفرنسي، وبعد هذا يبدو أن الحكومة العثمانية أمرت الوالي بطرد بطرد وإبعاد سنوك عن الجزيرة العربية وعن مكة وجدة خاصة.

إن أثر كريستيان سنوك لم يقتصر على الجانب العلمي من العقلية الاستشراقية الهولندية، بل إن دوره البارع في إخفاء عملية إسلامه ويشير إلى ذلك في أحد كتبه بأن خداع المسلمين سهل بقوله: ليس هناك أسهل من التحول إلى دين كسهولة التحول إلى الإسلام، فإن الفرد يكلف بتقديم إثبات واحد على اعتقاده أو على عمله بالشريعة أو على إخلاصه، أن التلفظ بكلمتي الشهادة تجعل من الإنسان عضوا في الأمة المحمدية ولا يحق لأحد من المسلمين أن يشك بذلك، وقد صدق لأن الإسلام يؤكد على حرية الضمير الخلقي والإنساني في الإيمان وقد كذب لأنه لم يذكر قارئه بأن"من غشنا ليس منا."

لا نستغرب في شخصية سنوك ذلك لأن البيئة التي ولد فيها والعصر الذي عاش فيه والكلية التي درس فيها فهو ابن قسيس كان ينتمي إلى الكنيسة البروتستانتية الكالفنية المعروفة بشدة لاهوتها، فقد درس اللاهوت في كلية أنشئت خصيصا لأعداء القساوسة[44]. إذن فهو من وسط تبشيري تنصيري، كانت له مهمة معينة ووظيفة أداها بإتقان يسجل التاريخ خيانة هؤلاء فلاهم قضوا على الإسلام بخياناتهم ولا على أهله، ولا بقيت مستعمراتهم تحت سيطرتهم رغم إبادتهم، فلا ظل الاستشراق والاستعمار، لكن تغيرت الأوجه والكيفيات في عصرنا من أجل تدمير القيم والأخلاق والحضارات وخاصة المتعلقة بالإسلام بمصطلحات جديدة تمثلت في العالمية والعولمة ...وغيرها.

[43] نفس المرجع، ص 114.

[44] نفس المرجع، ص 123.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ادوارد سعيد، الاستشراق، تر،كمال أبوديب ،مؤسسة الأبحاث العربية،بيروت ،1981.
2. قاسم السامرائي ، الاستشراق(بين الموضوعية و الافتعالية)،ط1،دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض،1983.
3. محمد إبراهيم مبروك ،الإسلام والعولمة ،الدار القومية العربية، القاهرة، 1999.

محمد عابد الجابري ، مسألة الهوية العروبةوالاسلام والغرب،ط1، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت،1995.

نحو نظرية جديدة في حوار الثقافات
الإرث اللغوي والعقدي المشترك

د. وجيه حمد عبد الرحمن

عميد كلية الآداب

جامعة الإسراء– عمان – المملكة الأردنية الهاشمية

في ظل تفاقم الصراعات والأزمات العالمية الخانقة وما تمثله من خطر يتهدد الوجود الإنساني برمته؛ ويعرض المنجزات الحضارية للزوال يشهد العالم جهوداً مكثفةً في ميدان الحوار بهدف تعميق التفاهم وترسيخ السلم العالميْن. وقد أسفرت هذه الجهود عن تحقيق تقارب نسبي في وجهات النظر المتباينة إذ انتقل الحديث من حتمية صراع الحضارات إلى حوار الحضارات والثقافات ومن ثم إلى تحالف الحضارات. ولا شك أن هذا يمثل تقدماً لا يستهان به في هذا المجال الحيوي الذي يمسّ ماضي الأسرة البشرية وحاضرها ومستقبلها. لكن إذا ما أمعنّا النظر وجدنا أن التركيز في مثل هذه الحوارات ينصب على مظاهر يرى الباحث أنها سطحية مثل وجود قواسم لغوية ودينية مشتركة. إلا أن الغوص في أعماق المصادر اللغوية والدينية يظهر وجود وحدة لغوية وعقدية بين أفراد الأسرة الإنسانية الواحدة. فقد تبين للباحث أن اللغات الإنسانية تشترك في معجم لغوي واحد الأمر الذي من شأنه أن يحدث تغييراً جذرياً في النظرية اللغوية الحديثة لا سيما النظرية التشومسكية التي أحدثت ثورة في الفكر اللغوي المعاصر. أما على المستوى الديني فقد أثبت الباحث بالدليل القاطع استناداً إلى مصادر الوحي في الديانات المنزلة من عند الله سبحانه وتعالى أن العلاقة بين تلك الديانات تكاملية لا تصادمية بخلاف ما يسود أوساط البحث العلمي. وبطرح هذه النظرية الجديدة ثنائية البعد يأمل الباحث في تحقيق قدر أكبر من الاندماج الثقافي والحضاري الذي يؤمل في أن يعود على المجتمع الإنساني بمستقبل يبعث على الوئام بدلاً من الصدام المصطنع الذي يعوزه الدليل. فالبحث في التعددية اللغوية والدينية يخفي إرثاً إنسانياً لغوياً وعقدياً مشتركاً يوحّد ولا يفرّق. وإذا ما تُبُنّي هذا الإرث فإنه يؤسس لحقبة جديدة في التاريخ الإنساني بكل ما تحمل في طياتها من مضامين.

مقدمة

لعل مما لا يرقى إليه الشك أن الإنسانية قد بلغت شأواً بعيداً في التقدم الحضاري في عصرنا هذا. فقد ترجم ما يسمى بالخيال العلمي إلى واقع ملموس: فنحن نتحدث عن غزو الفضاء وعن طائرات تفوق سرعتها سرعة الصوت، وعن أجيال من الهواتف النقالة تربط أطراف الكرة الأرضية، وعن شبكة المعلومات العنكبوتية، وعن منجزات نووية ذات حدّيْن إلخ. لكننا نلاحظ في المقابل أن الأسرة الدولية تواجه جملة من التحديات قلما شهد لها التاريخ مثيلاً. فعقلاء العالم من مفكرين وفلاسفة ورجال دين ومؤرخين وسياسيين يدركون الأزمات الخانقة التي تعصف بالجسم الإنساني وبكوكبه على أكثر من صعيد. بل إن المتأمل في حاضر الإنسانية يلحظ أن وجودها ذاته تحدق به الأخطار. فالتقارير الصادرة عن منظمة الصحة العالمية (WHO) تشير إلى أن خمسين مليون نسمة مصابون بمرض الإيدز القاتل، وأن خمسة ملايين يقضون سنوياً بفعل التدخين، وأن نسبة الأبناء غير الشرعيين في بعض المجتمعات تبلغ 50%. والأنكى من ذلك أن مؤتمرات دولية للسكان تعقد تحت مظلة الشرعية الدولية تحاول ضرب نواة الأسرة، صمام أمان المجتمع الإنساني واستقراره، فتعرّف الأسرة بأنها تتكون من شخصين بغض النظر عن الجنس أو شرعية العلاقة بينهما. يضاف إلى ذلك الحروب الطاحنة على الصعيدين العالمي والإقليمي الناجمة عن جُدُر وحواجز مفتعلة مصطنعة بين أفراد الأسرة الدولية الواحدة. إننا نشهد ظواهر محرقة تطال البشر والشجر والحجر لم يسلم منها حتى غلافنا الجوي.

إن كل ما تقدم ينمّ عن الأزمات الخُلقية والعقدية والحضارية التي تمر بالأسرة الدولية. فعلى المستوى الخُلُقي يشهد عصرنا انقلاباً في مقاييس الفضيلة حيث غدت الفضيلة رذيلة والعكس صحيح. وغدا الإنسان سلعة تباع وتشترى.. يحدث هذا تحت ستار الدفاع عن حقوق الإنسان وحريته. أما على الصعيد العقدي فهناك فوضى عارمة من إلحادٍ ولا أدريّة وعبادة للشيطان والشهوانية والوثنية وغيرها كثير.

ثم إن هناك من يذكي الصراع والصدام بين الديانات السماوية التوحيدية المنزلة من عند الله سبحانه وتعالى نتيجة التأويل الخاطئ لجوهر تلك الرسالات. أما في الشأن الحضاري فيكثر الحديث عن حتمية الصدام الحضاري ومحاولة للنيل من حضارات ساهمت في إثراء الحضارة الإنسانية مساهمة عظيمة كما هو حال الحضارتين العربية الإسلامية والصينية.

يطرح الباحث هنا نظرية جديدة في حوار الثقافات والحضارات استناداً إلى الإرث الإنساني العقدي واللغوي والحضاري المشترك. ويذهب الباحث إلى أنّ الخلافات العقدية تفتقر إلى الأدلة المقنعة المستمدة من الوحي المنزل من عند الله، ذلك أن قراءة موضوعية لكتب الرسالات التوحيدية تثبت اشتراكها في " لا إله إلا الله محمد رسول الله ". وهذا بدوره يمهد الطريق أمام وحدة الأسرة البشرية عقدياً.

أما الجزء الثاني من النظرية فيعالج جذور الوحدة الإنسانية اللغوية. فرغم التقدم الهائل الذي أحرزه علماء اللغة، والحديث عن السمات اللغوية والعالمية لا سيما ما مثلته الثورة التشومسكية من تطوير هائل للنظرية اللغوية إلا أنها لم

تعالج قضية جوهرية ألا وهي مسألة الإرث الجذري المشترك.. أي البحث عن المعجم الإنساني أحادي اللغة الذي يُرْسي أسس الوحدة الإنسانية لغوياً.

هل العلاقة بين الحضارات تصادمية أم تكاملية ؟

دأب عدد لا يستهان به من المستشرقين والمترجمين لمعاني القرآن الكريم ومحرِّفي الكَلِم ورجال الدين والمفكرين السياسيين والاستراتيجيين، وعلى رأسهم صموئيل هنتنغتون على النيل من الحضارة العربية الإسلامية، ووصم الإسلام بأنه ديانة وضعية من وضع محمد صلى الله عليه وسلم، ووصف نبي الإسلام بأنه معادٍ للمسيح. ومن هنا برزت الدعوة إلى حتمية الصدام بين الحضارتين الغربية والعربية الإسلامية. فقد قسّم صموئيل هنتنغتون أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد والمفكر الاستراتيجي ذائع الصيت، في كتابه الشهير:صدام الحضارات
(The Clash of Civilizations) الصادر في العام 1996م الحضارات إلى ثلاثة أقسام :

الحضارات المتحدية : وهي الحضارة الإسلامية والصينية.

الحضارات الضعيفة: المتمثلة في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وهي تعتمد على الغرب.

الحضارات المتأرجحة: وهي الروسية واليابانية والهندوسية.

وذهب هنتنغتون إلى أن الحضارة الإسلامية ترفض الإندماج في الحضارة الغربية وترفض الغرْبنة. وعليه حُدِّدت بأنها العدو الأول حيث يحتمل أن يكون للغرب علاقات متوترة وغالباً علاقات جدّ عدائية. أما العلاقات بين الحضارات الضعيفة فيرى أنها ستتضمن مستويات دنيا من الصراع وخاصة دول أمريكا اللاتينية. وتتضمن العلاقات الغربية مع الحضارات المتأرجحة عناصر التعاون والصراع حيث إن الدول الأساسية الثلاث آنفة الذكر تقف أحياناً مع الحضارات المتحدية وأحياناً إلى جانب الغرب.

وتقوم آليات خطاب صدام الحضارات على ما يلي:

أولا:- الديانة هي المعيار للتمييز بين الحضارات.

ثانيا:- حتمية صراع الحضارات.

ثالثاً:- الإسلام العدو الأول:الصراعات المقبلة ستكون بين الغرب والحضارتين الإسلامية والكنفوشيوسية أو الحضارة الصينية.

رابعاً:- الحضارة تشكل السياسة والاقتصاد.

صورة الإسلام في الكتابات الغربية:

رسمت بعض الكتابات والترجمات الغربية صورة قاتمة وثنية عدائية للإسلام والمسلمين. فأول ترجمة لمعاني القرآن الكريم لألكسندر روس (Alexander Ross) حملت عنوان : The Quran of Mahmet (قرآن محمد) كي يتهيأ للقارئ الذي لم يطلع على حقيقة الإسلام من مصادره الرئيسة بأن القرآن الكريم من وضع محمد. وعليه فلا داعي لأن يقرأ أهل الكتاب كتاباً وضعياً مضى على وضعه قرون عديدة. كما وصفت كافة الترجمات الاستشراقية لمعاني القرآن الكريم القرآن بأنه ليس من عند الله. فقد اعتبره Arbery رائعة أدبية في حين زعم George Sale (جورج سيل) أن رسالة الإسلام دعوة محلية تخاطب العرب دون سواهم. فقد ترجم خطاب القرآن الكريم إلى بني آدم " يا أيها الناس " (البقرة:21) كالتالي :O men of Mecca أي " يا أهل مكة"، وعلق على تفسيره بأن الترجمة الحرفية هي O men " يا ناس " إلا أن الأمر– على حد زعمه – الذي ليس بخاف على أي مطلع هو أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يقصد إلا إصلاح بني قومه، ولم يكن في مستوى يطمح فيه إلى مخاطبة بني آدم جميعاً، فكل ما جاء في القرآن الكريم خطاباً عاماً موجهاً إلى الناس بصيغة العموم معناه أهل مكة. كذلك جانب سيل الحقيقة عندما ترجم معنى الآية الكريمة " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً " (سبأ:28)كما يلي:

O prophet, We have not sent thee otherwise than unto all common men.

أي " يا أيها الرسول ما أرسلناك إلا إلى العامة من الناس ". أما ترجمته لمعنى الآية " وكذلك جعلناكم أمةً وسطا" (البقرة :143) فتؤيد الزعم بأن القرآن الكريم يخاطب العرب دون سواهم حيث كتب سيل:

Thus have We placed you (O Arabian) intermediate nation

فقد سوّغ سيل لنفسه التلاعب بترجمة النص القرآني بإقحام كلمة " عربية " ليوهم القارئ غير المسلم بأن الإسلام ليس برسالة عالمية بل هو موجه إلى الأمة العربية.

أما مارجليوث – الذي قدّم لترجمة رودْيل – فزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى في الطائف أراضي خضراء وأنهاراً تجري على ضفاف البساتين لذا فقد أكثر من ذكر ذلك عند وصف الجنة " جناتٍ تجري من تحتها الأنهار" (الصف:12). وبهذا يتضح من التعبير " فقد أكثر " أن القرآن الكريم من وضع محمد وأنه يصف فيه تجاربه. وقد تجاهل مارجليوث أن القرآن الكريم قد وصف الظلمات في قوله تعالى" أو كظلمات في بحر لجّي يغشه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمت بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور " (النور:40) في حين لم يركب الرسول البحر ولم يمارس هذه التجربة فلم لا يبحثون عن أصل هذه التجربة؟

وتمشياً مع المزاعم الاستشراقية بأن القرآن الكريم من صنع محمد صلى الله عليه وسلم استخدم المستشرقون جملة من المصطلحات الدالة على أن الإسلام رسالة وضعية. ومن المؤسف أن بعض الأقلام العربية والإسلامية وأجهزة الإعلام اعتمدت مثل هذه المصطلحات المغرضة دون تمحيص. وفيما يلي أمثلة من هذه المصطلحات التي تعدّ من الأخطاء العقدية الجسيمة. كيف لا وهي تنفي عن القرآن الكريم صفة الوحي؟ :

استخدم مصطلح inspiration بدلاً من revelation للدلالة على الوحي. وتعرّف المعاجم الإنجليزية هذين المصطلحين على النحو التالي:

Inspiration: stimulation or arousal of the mind,feelings,etc,to special or unusal activity or creativity from such a state.

revelation: God's disclosure of his own nature and his purpose for mankind, esp. through the words of human intermediaries.

ويتضح البون الشاسع في معنى المصطلحين، ففي حين أن المصطلح الأول يعبّر عن انتاج بشري وهو ما يعادله " تفتق ذهني " نجد أن الآخر يعبر عن وحي رباني.

استخدام كلمة apostle مقابلاً لكلمة النبي أو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مع ما يمثله هذا المصطلح من انتقاص شديد من قدر خاتم الأنبياء وإمام المرسلين. وفيما يلي نورد تعريف الكلمة في معجم Collins:

a postle: 1. One of the 12 disciples chosen by Christ to preach his gospel.2. any prominent Christian missionary, esp . one who first converts a nation or people.3. a church reformer . 4 . an ardent early supporter of a cause, reform movement.

والتعريفات الأربعة لا تفي بأي حال من الأحوال بمعنى كلمة " النبي " أو " الرسول ": فالأول ينص على أنه أحد حواريي عيسى عليه السلام لنشر رسالة الإنجيل. أما الثاني فيعني أي مبشر نصراني مرموق ولا سيما من ينصر أمة أو شعباً. ويشير التعريف الثالث إلى مصلح كنسي، في حين يشير التعريف الأخير إلى أحد أوائل المساندين لقضية أو حركة إصلاحية.

ونرى أن المقابل الدقيق لمصطلح " النبي " هو the Prophet الذي يعرف في معجم Collins كالتالي:

1 the principal designation of Mohammed as the founder of Islam. 2 . A person who speaks by divine inspiration.

من الأخطاء العقدية الجسيمة التي وقع فيها المستشرقون في ترجماتهم وتسربت إلى الترجمات الأخرى بما فيها الإسلامية استخدام كلمة " verse " مقابلاً لمصطلح " آية ". وهو مصطلح استشراقي مغرض يهدف إلى وصف القرآن الكريم بالشعر ليتواءم مع زعمهم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان شاعراً. ولنقرأ معاً تعريف المعجم الإنجليزي لكلمة " verse " :

Verse: 1. Astanza or other short subdivision of a poem. 2. Poetry as distinct from prose. 3. A series of metrical feet forming a rhythmical unit of one line. 4.a specified type of metre or metrical structure: iambic verse.

5.One of the series of short subsection into which most of the writings on the Bible are divided. 6.a metrical composition, poem.

يتبين لنا من التعريفات أنها تعني مقطعاً من قصيدة أو الشعر أو أحد الأوزان الشعرية أو تشبيه الآية بأسلوب الإنجيل.وفيما يلي نوضح صورتين متناقضتين تماماً أحدهما تصور الإسلام بأنه منزل من عند الله، والأخرى تصمه بالوضعي:

Islam	Muhammadanism
Muslims	Muhammadans
revelation	inspiration
prophet	apostle
ayah	verse
surah	chapter
Servant/worshipper	slave
رسالة سماوية	رسالة وضعية

إلا أن الصورة المشوهة هذه سرعان ما تتغير لدى اطلاع علماء الغرب وباحثيه المنصفين على القرآن الكريم أو ترجماته الموضوعية. ولنقرأ ما كتبه الدكتور الفرنسي الجراح موريس بوكاي مؤلف كتاب:

La Bible,Le Coran et La Science (الإنجيل والقرآن والعلم: دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) لدى تناوله عشرات الموضوعات المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم مثل : علم الفلك، والأرض، وعالم النباتات، وعالم الحيوان، والتناسل الإنساني والتربية الجنسية، وخلق السموات والأرض:

" لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن الكريم دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة وذلك في نصٍّ دُوِّن منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً. في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة. وإذا كان هناك تأثير ما قد مورس فهو بالتأكيد تأثير التعاليم التي تلقيتها في شبابي، حيث لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أن المعني به دين أسسه رجل وبالتالي فهو دين عديم القيمة تماماً عند الله، وككثيرين كان يمكن أن أظل محتفظاً بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام، وهي على درجة من الانتشار بحيث إنني أدهش دائما حين ألتقي خارج نطاق المتخصصين بمحدثين مستنيرين في هذه النقاط. أعترف إذن بأنني كنت جاهلاً قبل أن تعطى لي عن الإسلام صورة تختلف عن تلك التي تلقيناها في الغرب" .

ولما أخفقت الأساليب المغرضة آنفة الذكر في صد القارئ غير المسلم بل في صد القارئ المنصف من غير المسلمين كالمستشرقة الألمانية زيغرد هونكه التي ألفت كتاباً بعنوان : شمس العرب تسطع على الغرب، بدأت مرحلة جديدة أخطر في محاولة النيل من الإسلام. وتمثلت تلك المرحلة في محاولة يائسة بائسة لمحاكاة لغة القرآن الكريم يمثل أبشع جريمة ترتكب بحق الإنسانية ألا وهو كتاب (الفرقان الحق The True Furqan).

ترى اللجنة المشرفة على هذا الكتاب المختلق أن القرآن الكريم لم يتعرض خلال أربعة عشر قرناً إلا إلى القليل من التحديات المتصلة بأنه وحي من عند الله سبحانه أو بنقائه، وأن تلك التحديات أخرست بالقوة. أما الآن فإن كتاب الإسلام المقدس يواجه تحدياً جديداً... " الفرقان الحق الذي يضاهي القرآن لغةً وأسلوباً لكنه يتحدى تعاليمه وأنه وحي من عند الله.

وقد حدّد عضو اللجنة المشرفة، المدعو " المهدي " الهدف من اختلاقهم لكتابهم " الفرقان الحق " قائلاً :

" الهدف من الفرقان الحق هو استخدامه أداة للتنصير لأننا حتى الآن لم نجد ثغرة ننفذ من خلالها للعالم الإسلامي... فقد حاولنا استخدام الطب، والمدارس، والكتب، والأفلام والعديد من الطرق الأخرى. ولا توجد ترجمة للإنجيل بالعربية الفصحى يرى المسلمون أنها جديرة بالقراءة. وهم يسخرون من ترجمات الإنجيل بالعامية وينظرون إليها نظرة دونية. أما الآن فإن " الفرقان الحق " لا يقدم رسالة الإنجيل بالعربية الفصحى فحسب بل يعتبر مفتاحاً لإيصال كلمة المسيح للعالم الإسلامي. فهو قبل التحدي الذي يعود تاريخه إلى أربعة عشر قرناً خلت : " قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً " (الإسراء:88).

أما منهج الكتاب فهو يجمع بين الانتحال، والتضليل والتحريف، والافتئات على الحقائق، والتطاول على الذات الإلهية وخاتم الأنبياء والمرسلين، والتشهير بالمسلمين، ووصفهم بأوصاف قاذعة، واستهزاء بتعاليم القرآن الكريم. وقسَّم الكتاب إلى سور، مثله مثل القرآن الكريم على حد زعمهم، يبلغ عددها سبعاً وسبعين سورة مفتراه من بنات أفكارهم الضالة المضلّة.

وفيما يلي أمثلة مما اقترفت أيدي اللجنة المشرفة على " الفرقان الحق " من اعتداء سافر على ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله سبحانه وتعالى في الوقت الذي تتعالى الدعوات إلى إجراء حوارات ثقافية وحضارية وحوارات بين الأديان لتحقيق الفهم العميق بين أبناء الأسرة الدولية الواحدة:

انتحل ناسجو هذا الكتاب عشرات الآيات القرآنية وأقحموا فيها عبارة " الفرقان الحق ". فقد ورد في الجملة الثانية من سورة (الإعجاز) ما يلي:

" ولا يزال الذين كفروا في مرية من الفرقان الحق حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب مقيم".

اتهام الإسلام بأنه دين لقيط ! ففي الجملة 29 من سورة الثالوث عندهم : " ولا تغلوا في دين لقيط ولا تقولوا علينا غير الحق المبين". والمقصود بعبارة " دين لقيط " كما يتضح من الترجمة الإنجليزية أنه من صنع البشر:

" Do not pride yourselves with a man-made religion. Furthermore you should never declare anything concerning us except the honest and total truth".

يروج مؤلفو الكتاب لمقولة انتشار الإسلام بحد السيف، ويتظاهرون بأنهم هم الحمل الوديع، وينبوع المحبة. ففي سورة " الإيمان " المزعومة الجملة (6) ورد :

" ونسمع دعوة القلب لا لغو اللسان فهمس المحبّة أجهر من صليل السيوف وضرب الرقاب والنصر للمحبة ولو كره المجرمون".

نظريتنا الجديدة في حوار الثقافات :

بحث في الإرث العقدي المشترك للديانات التوحيدية.

بحث في الإرث اللغوي المشترك بين ما يسمى " بلغات العالم ".

نظرية جديدة في حوار الثقافات:

تستند النظرية الجديدة المقترحة إلى ركنين رئيسين يؤديان دوراً كبيراً في تشكيل ثقافة الفرد والمجتمع المحلي والقومي والعالمي. وهذان الركنان هما: الدين واللغة والعلاقة بينهما لا تنفصم. وقد عدّ صموئيل هنتنغتون وغيره من كبار المفكرين من مستشرقين ومبشرين وسياسيين الدين من دوافع حتمية الصدام بين الحضارتين العربية الإسلامية والغربية. وهذا في رأينا يجانب الحقيقة للأسباب التالية:

أن إيمان المسلم بالكتب السماوية المنزلة من عند الله سبحانه وتعالى يمثل جزءاً لا يتجزأ من عقيدته. وبالتالي فإن الإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام جزء من الإرث العقدي للمسلمين جميعاً استناداً إلى قوله تعالى:" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" (البقرة:285). وقد ترجم ذلك الإرث المشترك من جانب المسلمين في علاقاتهم مع أهل الكتاب من أحبار ورهبان وأباطره منذ بداية نزول الوحي. فقد اتجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ورقة بن نوفل والنجاشي امبراطور الحبشة، وهرقل عظيم الروم، والمقوقس، والحبر اليهودي عبد الله بن سلام وثبت بذلك أن العلاقة بين المسلمين وأقطاب أهل الكتاب العارفين بالكتب المقدسة كانت تكاملية وأقروا جميعاً بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم. فكان الدين عامل توحيد لا داعياً للصدام.

عدّ أولئك الأحبار والرهبان والأباطرة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " إرثاً عقدياً مشتركاً بين اليهود والنصارى والمسلمين إلا أن بعض من تبعهم فهم النصوص الدينية المقدسة فهماً مغايراً نتيجة التأويل غير السليم للوحي المنزل على موسى وعيسى عليهما السلام. وقد أدى ذلك الفهم إلى اتخاذ موقف معادٍ من الأرث العقدي السماوي المشترك.

فأنكر اليهود رسالتي عيسى ومحمد عليهما السلام، وأنكرت النصارى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. ومن هنا تنكر اليهود لإرثهم العقدي المشترك مع النصرانية والإسلام فناصبوا عيسى ومحمداً العداء المخالف لرسالة موسى عليه السلام. أما النصارى فأقروا بالإرث المشترك بينهم وبين اليهود. وكثيراً ما يتحدث البابا عن الإرث النصراني–اليهودي المشترك لكنه يغفل الإرث اليهودي– النصراني– الإسلامي المشترك بل ولا يفتأ يؤازر التطاول على الركن الثالث من أركان ذلك الإرث العقدي الإنساني الذي يفترض أن يؤمن به ثلاثة مليارات من أفراد الأسرة الدولية. وكان أخر تصريح للبابا بهذا الشأن ما أوردته صحيفة الغد الأردنية يوم الثلاثاء 6 صفر 1432هـ الموافق 11 كانون الثاني 2011 تحت عنوان: " البابا يطالب بإلغاء قانون يجرم الإساءة إلى الإسلام " ورد فيه ما يلي:

الفاتيكان – أكد البابا بنديكتوس السادس عشر أمس أن " الاغتيال المفجع " لحاكم ولاية البنجاب يدل على أن إلغاء قانون تجريم الإساءة للإسلام " أمر ملح " في باكستان. ووجه بنديكتوس السادس عشر من جديد إلى احترام الحرية الدينية، خلال استقباله أفراد السلك الدبلوماسي المعتمدين لدى الفاتيكان في حفل التهاني التقليدي السنوي.

وخصّ البابا " القانون ضد الإساءة للإسلام في باكستان بإشارة محددة، مؤكداً أنه " يشجع " سلطات البلاد على " بذل الجهود اللازمة لإلغائه ومن المؤكد أنه يستخدم ذريعة للتسبب بحالات من الظلم والعنف ضد الأقليات الدينية. ورأى أن الاغتيال المفجع لحاكم البنجاب يدل على ضرورة القيام بخطوة في هذا الاتجاه، مؤكداً أن " إجلال الله ينشر الأخوة والحب وليس الكراهية والانقسام". (أ ف ب).

وهذا التصريح البابوي يطالب بفتح الباب على مصراعيه أمام كل من هبّ ودبّ للنيل من رسالة النبي الخاتم الموجهة إلى الغرب بنفس القدر الموجهة فيه إلى العرب وغيرهم –كما سنوضح أدناه من نصوص الكتاب المقدس التي تدعو للإيمان ب " لا إله إلا الله محمد رسول الله ". هذه الرسالة التي تنافح عن كتب الله ورسله جميعاً وتخصّ نبيّ الفاتيكان عيسى عليه السلام بسورة كاملة (سورة مريم).

ونتناول هنا بالتحليل أدلة من الكتاب المقدس تدعم نظريتنا الجديدة المقترحة بما ذهبنا إليه من وجود إرث عقدي مشترك بين اليهودية والمسيحية والإسلام، إرث ينبذ الصدام ويرسي جذور الوئام:

التوحيد في الإرث النصراني – الإسلامي العقدي المشترك

يمثل التوحيد جوهر الرسالات السماوية المنزلة من عند الله سبحانه وتعالى. وعكس التوحيد هو الشرك به سبحانه وتعالى وهو الظلم بعينه. لذا وعد الله سبحانه من في قلبه مثقال ذرة من التوحيد بعدم الخلود في النار" إن الله يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به " ذلك أن الشرك بالله من السبع الموبقات. وطالما أن الرسالات منزلة من عنده سبحانه فحاشا أن تدعو لخلاف ذلك.

وطالما أن الحوار مع الغير يقتضي مخاطبته، وإيراد الأدلة من مصادره المعتمدة، وطالما أن الإيمان بالكتب السماوية من أسس عقيدتنا فلنقرأ ما ورد في الكتاب المقدّس.

(NEW AMERICAN STANDARD BIBLE):

" And this is eternal life, that they may know thee the only true God "

وهو نص صريح في الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا لا يحتاج إلى كبير جهد لتحليله. فعيسى عليه السلام يقول " the ONLY " أي الواحد الأحد أي " وحده لا شريك له ". ثم يشير إلى نفسه بعيسى المسيح الذي بعثه الله سبحانه: And Jesus Chirst whom Thou has sent

وهو بذلك ينفي عن نفسه صفة الألوهية فهو المسيح عيسى (ابن مريم). وفي الإصحاح الخامس عشر يشير عيسى عليه السلام إلى " الأحد " باستخدام كلمة The One:

" because they do not know the One who sent me "

أما في الإصحاح الرابع عشر فيقر عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام بأن الإله الحقيقي أعظم منه: "...is greater than 1 " . يستنتج من ذلك أن العهد الجديد يشهد بوحدانية الله " لا إله إلا الله" فهو الأحد الذي لا شريك له، وهو الحقيقي (True)، وعكس ذلك هو (False)باطل. وهذا هو المشترك العقدي النصراني – الإسلامي الأول.

" محمد رسول الله " في الإرث النصراني – الإسلامي العقدي المشترك

لقد عاش الباحث في العاصمة البريطانية طالب دراسات عليا بجامعة لندن ثم معداً ومخرجاً ومقدماً للبرامج الإخبارية بهيئة الإذاعة البريطانية BBC ردحاً من الزمن. وتعرف لندن بتعدديتها اللغوية والثقافية والدينية والإثنية. وقد أتيحت لي فرصة التحاور مع ما يزيد عن ثمانين جنسية. وبما أن العقلانية تسود المجتمع البريطاني لا سيما الشريحة الجامعية فقد كان يدور حوارات هادئة مع الطلبة والأساتذة من مختلف المشارب الفكرية والدينية. ولما كان اهتمامي بدراسة الإنجيل نظراً لما يكنه المسلمون للمسيح عيسى عليه السلام من احترام وتقدير فقد أجريت عدداً من الحوارات مع رئيس الجمعية النصرانية بجامعة لندن سايمون فُلر (Simon Fuller) والدكتور الاسكتلندي Sprig وجيمس فارل وجوج اسانتي وغيرهم كثير. وكان الحوار بيننا ينصب على بشارات الكتاب المقدس الذي تعترف به الكنيسة حول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وتمخض الحوار عن إقرار بعضهم بنبوّة محمد وإشهار البعض إسلامه على الملأ.

ذات يوم زارني مبشر، وبادرني قائلاً :" Jesus loves you" " عيسى يحبك" فأجبت قائلاً: " I love him too" فتعجب وقال: How come? Aren't you Muslim? ، كيف ذلك؟ ألست مسلماً؟ قلت: بلى وهل يكتمل إيماني ما لم أؤمن بعيسى عليه السلام نبياً ؟ حينئذٍ أدركت أثر الحواجز الزائفة التي أقيمت لتصور للنصراني أن " المسلمين يناصبون المسيح العداء. وشرعت أحاوره محاولاً إقناعه بأن الكتاب المقدس يدعو للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً. فكما أن إيمان المسلم بعيسى ورسالته جزء لا يتجزأ من عقيدته فإن الإيمان بمحمد نبياً هو الآخر جزء مكمل لعقيدة اليهودي والنصراني بنص الكتاب المقدس. ويُلخص ذلك كما يلي:

أولا:- ورد اسم النبي العربي المبعوث رحمة للعالمين في الكتاب المقدس. لكنه ورد مترجماً خلافاً لما يتفق عليه المترجمون من عدم جواز ترجمة أسماء العلم. فقد ترجم اسمه صلى الله عليه وسلم " بالمعزّي "، و" النصير " و " الشفيع " في النصوص التالية التي تشير إلى الزمن المستقبل، أي إلى نبي سيبعث بعد عيسى عليه السلام:

" But the Helper, the Holy Spirit, whom the father will send in my name, He will teach you all things, and bring to your remembrance all that I said to you".

" وأما المعزي الروح القُدُس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كلّ شيء ويذكّركم بكل ما قلته لكم" (انجيل يوحنا، الاصحاح الرابع عشر الجملة 26).

وفي الإصحاح الخامس عشر من الإنجيل ذاته، الجملة 26 نقرأ ما يلي:

" When the Helper comes, whom I will send to you from the Father, that is the Spirit of truth, who proceeds from the Father, He will bear witness of me".

" ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي".

فهذه إشارة واضحة إلى رسول، روح الحق، يرسله الله ليشهد لعيسى عليه السلام. إذن فالشهادة متبادلة بين عيسى ومحمّد مما يدل على تكاملية العلاقة لا تصادميّتها.

ولنتوقف قليلاً عند الجملة السابعة من الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا في الإنجيل الأمريكي الجديد:

" But I tell you the truth, it is to your advantage that I go away; for if I do not go away, the Helper shall not come to you; but if I go, I will send him to you".

" لكن أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي. ولكن إن ذهبت أرسله لكم".

يوضح النص أن عيسى عليه السلام يخبر صراحة ببعثة نبي جديد من بعده. ثم إن الإنجيل الأمريكي يعلق على كلمة "The Helper" التي ترجمت إلى اليونانية (paracletos) التي يعرفها الإنجيل ذاته بما يلي:

"one called alongside to help; or , intercessor " أي الذي يستعان به(من الناس) أو(الشفيع). والشفيع والوكيل من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانيا:- تحدد الجهة التي بعث منها محمد صلى الله عليه وسلم وهي " فاران " (قفار مكة المكرمة). فالكلمات الواردة في التوراه الفصل (33) الجملة (2) تنص على ما يلي: " وجاء الربّ من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ قادماً من جبال فاران ".

ثالثا:- تحدد التوراة عدد الصحابة الذين فتحوا مكة المكرمة بقيادة خاتم الأنبياء والمرسلين؛ إذ ورد في الجملة الثانية من الفصل (33) ما يلي: " وجاء معه عشرة آلاف قديس، ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم ".

رابعا:- ورد في سفر التثنية من التوراة في الفصل الثامن عشر الجملة (18) ما يلي: " أقيم لهم نبيّاً من وسط اخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه ".

خامسا:- علّق العلامة عبد الأحد داوود – القسيس سابقاً- على عبارة " وسوف يأتي أحمد لكل الأمم " قائلاً:

" الترجمة المحرّفة لبعض الكتب المقدسة تأتي في الإصحاح الثاني من سفر حجّي هكذا : ويأتي مشتهى كل الأمم. وخلال تلك الفرصة النادرة أرسل الله خادمه النبي حجّي، ليسرّي عن هؤلاء المحزونين ومعه الرسالة الهامة: ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حمادة لكل الأمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد، كذلك قال رب الجنود، ولي الفضّة، ولي الذهب، يقول رب الجنود، وإن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول، وقال رب الجنود، وفي هذا المكان أعطي السلام، يقول رب الجنود " (الإصحاح الثاني من سفر حجّي الجملة 7-9).

يتضح مما تقدم أن هناك إرث عقدي مشترك بين اليهودية والنصرانية والإسلام يقوم على يلي:

لا إله إلا الله

موسى رسول الله

عيسى رسول الله

محمد رسول الله

وهذا ما توضحه الكتب المقدسة المعترف بها. ولعل هذه الحقائق تؤسس لحقبة جديدة في تاريخ الأسرة الإنسانية المعاصر، حقبة ربما شهدت وحدة اندماجية لاتباع الديانات التوحيدية تستند إلى الإقرار المتبادل بـ " لا إله إلا الله محمد رسول الله ".

لقد أقرّ جورج بوش George Bush (1796-1859) وهو من أعلام الاستشراق الأنجلو – سكسوني، وكان أستاذاً في جامعة نيويورك سيتي في اللغة العبرية، والذي يعتبر كتابه من مصادر الفكر الغربي الأمريكي، كما كان واعظاً ودرَّس في كلية اللاهوت في " برنستون "، وعين راعياً لإحدى الكنائس في انديانابولس، وله دراسات كثيرة عن أسفار العهد القديم، أقرّ في نهاية الفصل السادس عشر من كتابه بما يلي:

" إن الكتب المقدسة اليهودية، والمسيحية قد تنبأت بظهور محمد ودينه... ولكن يرى " أن الله أنزله سوط عذاب للكنائس التي ضلت السبيل، لكن إلى أجل محدود".

أما عن تقييم جورج بوش لما حققه نبي الإسلام فيجمله فيما يلي:

" لقد وضع محمد أساس امبراطورية استطاعت في ظرف ثمانين سنة فقط أن تبسط سلطانها على ممالك وبلاد، أكثر وأوسع مما استطاعته روما (أو الامبراطورية الرومانية) في ثمانمائة سنة. وتزداد دهشتنا أكثر وأكثر إذا تركنا هذا النجاح السياسي وتحدثنا عن صعود دينه وانتشاره السريع واستمراره ورسوخه الدائم. والحقيقة أن ما حققه نبي الإسلام لا يمكن

تفسيره إلا بأن الله كان يخصه برعاية خاصة، فالنجاح الذي حققه محمد لا يتناسب مع إمكاناته، ولا يمكن تفسيره بحسابات بشرية معقولة، ولا مناص إذن من القول أنه كان يعمل في ظل حماية الله ورعايته. ولا شك أنه يجب علينا أن ننظر للإسلام في أيامنا هذه بوصفه شاهداً قائماً ينطوي على حكمة غامضة لله سبحانه لا ندري مغزاها. حكمة لا تفهمها عقول البشر أو على الأقل لا تفهمها عقول البشر حتى يتحقق غرضها" . *

لعل مما تقدم من أدلة وبراهين يقنع الداعين إلى حتمية صدام الحضارات بالإرث العقدي اليهودي- النصراني – الإسلامي المشترك القائم على " لا إله إلا الله محمد رسول الله " كما وردت في الكتاب المقدّس في غير موضع. وهذا بدوره يقوض نظرية صموئيل هنتغتون ومن حذا حذوه من أركانها.

ولدى إقرار صناع القرار بذلك الإرث الإيماني المشترك فلا مناص من أن يبحثوا عن حلول للأزمات المعاصرة التي تعصف بالأسرة الدولية وكوكبها من واقع الهدي الرباني. وقد بدأت بوادر ذلك تلوح في الأفق بتصريحات سمو الأمير الملكي تشارلز ولي العهد البريطاني، وكبير أساقفة كانتربري في المملكة المتحدة، وبابا الفاتيكان، والدكتور مراد هوفمان سفير ألمانيا السابق لدى الرباط، تلك التصريحات التي تطالب بحل المشكلات المعاصرة استناداً إلى ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من وحي اختتمت به الرسالة السماوية الخالدة بعد أن جاءت تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لا عداءً وإرهاباً ومحاربة للعلم وأهله.. رسالة تبني ولا تهدم، رسالة تنصف ولا تظلم، رسالة " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " .. رسالة عبارة عن منجم للقيم العالمية النبيلة ومنارة هدى لكل باحث عن الحقيقة التي لا مواربة فيها... رسالة " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ".

ج. الإرث اللغوي الإنساني المشترك

اللغة نظام اتصال غاية في التعقيد يتميز به الإنسان عن سائر الكائنات نظراً لتمتعه بطبقتين وهما طبقة الأصوات (الفونيمات) المنفردة، وطبقة الفونيمات المجتمعة، كما يتميز ذلك النظام بالإبداعية أو الإنتاجية جراء استخدام اللغة للوسائل المحدودة للتعبير عن اللامتناهي واللامحدود. فعدد الجذور في اللغة محدود إلا أن عدد الألفاظ المولّدة منها لا يتوقف عند حد.. لذا يلاحظ أن عدد كلمات معجم أكسفورد أو المعجم الوسيط يناهز المليون.. ويزداد هذا العدد نتيجة المخترعات والمفاهيم الجديدة التي تتطلب مسميات لها.

قبل أربعين سنة خلت كانت الإحصاءات تشير إلى وجود أربعة آلاف وخمسمائة لغة تقريباً. إلا أن هذا العدد قفز ليبلغ حوالي سبعة آلاف لغة في يومنا هذا. ولنا أن نتساءل هنا : لماذا تضاعف بهذه السرعة ؟ وما الذي يحدد التصنيف إلى لغات أو لهجات ؟ وهل يجوز لنا الحديث عن وجود لغة واحدة تفرعت إلى آلاف اللهجات بدلاً من الحديث عن آلاف اللغات ؟ أدرك أن معالجة مثل هذه المسائل تحتاج إلى عشرات إن لم يكن مئات من الصفحات لكن تمشياً وتعليمات اللجنة المنظمة لهذا الملتقى الدولي الأول المبارك بألا تزيد عدد صفحات البحث عن عشرين صفحة سأحاول الإجابة عن هذه التساؤلات بإيجاز.

الكلمة العربية	الكلمة الإنجليزية	الجذر المشترك
فم (ثم)	mouth	m-□
قرنيّة	Cornea	k-r-n
نُطْق	Tongue	t-n-q
أيْس	is	
رُكن	corner	K – r – n – (r)
وسط	waist	w-s-t
بَدَن	body	b-d
قتل	kill	k-l
إبط	pit (arm)	p-t
عنق	neck	n-k
ذقن	chin	k-n
طول	tall	t-l

لا شك أن علم اللغة الحديث يشجع على ما يمكن أن يسمى " بالإنشطار اللغوي " ويعزره. فبعد أن كانت اللغة الرومانية من فرنسية وإسبانية وبرتغالية إلخ تعد لهجات من اللغة اللاتينية غدت لغات مستقلة. وقد تعالت الدعوات لتطبيق ذلك الأنموذج على اللغة العربية.. لكن تلك الدعوات لم يكتب لها النجاح. ولو تم ذلك لتحدثنا اليوم عن مائة لغة عربية ونيف نظراً لوجود غير في القطر العربي الواحد. كذلك حافظت الصين على لغة واحدة يتحدثها مليار ونصف من البشر رغم وجود عشرات اللهجات الصينية.

ولنا أن نتساءل هنا : هل يمكن تقسيم اللغات على أساس جغرافي ؟ ونجيب بلا. فالاختلاف الجغرافي بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا ونيوزيلنده لم ينجم عنه اختلاف في اللغة رغم وجود اختلافات في اللهجات المستخدمة هناك. هل يمكن تقسيم اللغات على أساس الجنسية؟ الإجابة هي لا. فكثير من العرب المقيمين في الولايات المتحدة وغيرها من دول أوروبا لا يتحدثون العربية.

والسؤال الآخر الذي يطرح نفسه هو: ما هي المعايير المستخدمة للتمييز بين اللغة واللهجة؟ إن قراءة متأنية في الواقع اللغوي وتاريخ اللغة يشير إلى أن عدداً كبيراً من اللهجات تطور ليصبح لغات بناءً على أسس ساسية لا إلى اعتبارات لغوية. فوجود الدول القومية مثلاً شجع تطوير الفرنسية والإيطالية والإسبانية إلى لغات بعد أن كانت لهجات للغة اللاتينية. وهذه اللغات تشترك مع اللاتينية في معجم موحد. وإذا عدنا إلى الوراء وجدنا أن مجموعة اللغات الأوروبية تشترك مع اللغة السنسكريتية في الكثير من السمات، لذا عُدَّت مجموعة اللغات الهندية – الأوروبية مجموعة واحدة.

ويرى الباحث أننا إذا ما غصنا في أعماق التاريخ، وتأملنا في القواسم المشتركة بين مجموعة اللغات الهندية – الأوروبية ومجموعة اللغات السامية نجد أنهما تشتركان في العديد من السمات بما فيها المعجم اللغوي. وفيما يلي أمثلة من اللغة العربية المنتمية لمجموعة اللغات السامية والإنجليزية التي تنتمي لمجموعة اللغات الهندية – الأوربية.

ويمكن لنا كذلك أن نطبق المعجم العربي- الإنجليزي أحادي اللغة على مستوى الجملة دون الحاجة إلى استخدام معجم ثنائي اللغة :

1. He is tall.
   Hua ais taweel.
2. He is good.
   Hua ais jayyid

(وقد ورد الفعل ليس وأيْس في المعجم الوسيط بمعنى لا يكون ويكون)

في ظل مئات بل آلاف الجذور المشتركة بين مجموعتي اللغات المذكورة أعلاه يمكن القول بوجود علاقة جينية بينهما بخلاف ما يسود الأوساط اللغوية. ومن هنا يمكن إطلاق المسمى التالي عليها : مجموعة اللغات الهندية- الأوروبية- السامية. وهذا بدوره ينسحب على المجموعات اللغوية الأخرى حتى نصل إلى لغة واحدة تفرعت منها آلاف اللهجات تطورت إلى لغات لاعتبارات غير لغوية.

إن الدلائل التاريخية والدينية واللغوية كلها تشير إلى أن اللغات تختلف في ظاهرها أما إذا ما دققنا النظر في القواسم المشتركة وجدناها تشترك حتى في معجم واحد بخلاف ما ذهب إليه تشومسكي، عالم اللغة الذي أسهم في تطوير الفكر اللغوي إسهاماً منقطع النظير.

إن الحديث عن الإرث اللغوي المشترك المتمثل في المعجم اللغوي الموحّد الذي تشترك فيه لغات العالم أو أو لنقل لهجات العالم التي تعدّ بالآلاف يمثل نقلة نوعية في الفكر اللغوي القديم والمعاصر. كما أن هذه النظرية اللغوية الجديدة سيكون لها انعكاسات كبيرة على الآتي:

تعلم اللغات وتعليمها : إن هذه النظرية ستمكن المدرسين والمتعلمين من تعلم آلاف الجذور دون استخدام المعاجم ثنائية اللغة.

المعجمية: ستؤدي هذه النظرية إلى إعادة النظر في كافة المعاجم التفصيلية بحيث لا تتوقف لدى أصيلها للكلمات عند حدود مجموعة لغوية معينة بل تعيدها إلى اللغة الأم التي كان يتحدثها آدم وحواء وسام وحام ويافث.

الترجمة : بفضل هذه النظرية سيتمكن المترجم من الترجمة على نحو أفضل وأسرع نظراً لعدم حاجته للرجوع إلى المعاجم ثنائية اللغة كثيراً. كما ستمكنه النظرية من إيجاد المعادلات على مستوى الكلمة والجملة والنص.

التخطيط اللغوي: من شأن هذه النظرية ترسيخ مبدأ وحدة اللغات الإنسانية باعتبارها لهجات للغة الأم : وبهذا يمكن تقليص عدد اللغات بشكل كبير.

إن الرجوع إلى الإرث العقدي واللغوي المشترك من شأنه أن يدعم الجهود الكبيرة التي يبذلها الحريصون على وحدة جسم الأسرة البشرية. وهذا ركن رئيسي من أركان السلام والفهم والتعاون العالمي. وهو يفند مقولات الداعين لتأجيج الصراعات بين الأمم والحضارات التي تمثل أخطر تهديد للكيان الإنساني.

التوصيات:

عقد مؤتمر دولي في إحدى العواصم العالمية بعنوان " محمد صلى الله عليه وسلم في الإرث العقدي الإنساني المشترك"

عقد مؤتمر دولي لمعالجة القضايا العالمية المعاصرة بعنوان : " مشكلات معاصرة:حلول من الإرث الإيماني المشترك ".

إنشاء مركز دولي في إحدى الجامعات العريقة تحت مسمى : " مركز الإرث الإيماني الإنساني المشترك"

يُعنى بالسير قدماً بحوار الحضارات والأديان للوصول إلى تحالف حقيقي بل واندماجي بين الديانات السماوية الثلاث بناءً على ما ورد في هذا البحث.

تنظيم معرض دولي متنقّل للحضارة العربية الإسلامية بهدف التعريف بإسهاماتها في الإرث الحضاري الإنساني المشترك واستلهام الدروس لبناء غد أفضل. ونرى أن يرافق المعرض ندوات، ومحاضرات، وحلقات نقاش، ومعرض للكتاب إضافة إلى عروض وثائقية تتناول الجوانب المشرقة لحضارتنا.

فتح قنوات حوار مباشر مع أقطاب الإستشراق وتنظيم مؤتمرات فيديو (video-conferences) بحضور جمهور من الجانبين.

تنظيم دورات في الثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية بلغات مختلفة لتمكين الدارسين من غير العرب استقاء المعلومات من ينابيعها الصافية.

عقد مؤتمر دولي لكبار المفكرين الغربيين وغيرهم الذين أسلموا لتجلية صورة الإسلام لأبناء شعوبهم وللبشرية قاطبة.

إنشاء دائرة للدراسات الاستغرابية تعنى بمخاطبة المجتمع الغربي بناءً على دراسات علمية.

وضع موسوعة دولية بعنوان " الإسلام والأزمات العالمية المعاصرة " تبرز دور الإسلام في حل المشاكل الاقتصادية، والأمنية ، والبيئية، والاجتماعية، والتربوية، والنفسية، سيما وأن الإيديولوجيات المختلفة فاقمت من الأزمات بدلاً من طرح حلول ناجعة لها.

عقد مؤتمر دولي حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بهدف تصويب بعض النظريات العلمية الخاطئة واكتشاف حقائق ومخترعات علمية لم تتوصل إليها البشرية بعد. ومن شأن مثل هذه الدراسات تحقيق براءات اختراع بعد إدخال العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة المختبرات العلمية. ويجبذ أن يجري ذلك ببحوث مشتركة بين أساتذة جامعات عرب ومسلمين ونظرائهم في الجامعات العالمية المرموقة.

إنشاء المزيد من معاهد تعليم اللغة العربية في مختلف أنحاء العالم. فاللغة هي وعاء الفكر والحضارة.

إنشاء موقع إلكتروني يُعنى بحوار الحضارات والأديان استناداً إلى الإرث الإيماني الإنساني المشترك.

مخاطبة المنظمات والهيئات الدولية المعنية بهذا الموضوع بهدف تنسيق الجهود المبذولة في هذا المجال وتطويرها.

إعداد ترجمة دولية معتمدة لمعاني القرآن الكريم بلغات مختلفة تحافظ على روح الإسلام تخاطب غير المسلمين لدحض الشبهات المثارة حول الإسلام.

تشجيع الإشراف العلمي المشترك بين الجامعات العربية – الإسلامية والجامعات العالمية لا سيما الغربية منها.

تبادل أساتذة الجامعات وطلبتها بهدف التعرف على الثقافات المختلفة مباشرة.

تنظيم معسكر صيفي سنوي يُعنى بتعميق التفاهم والتعاون الدوليين.

التركيز على ثنائية مصادر المعرفة (العقل والنقل) بدلاً من أحادية المصادر (العقل) لأن الأخيرة تمخّض عنها نظريات فتكت بوحدة الأسرة البشرية مثل الداروينية والإلحاد واللاأدريّة وغيرها كثير.

طرح مقرر دراسي في المدارس والجامعات بعنوان : " جذور الإرث العقدي الإنساني المشترك

(Roots of Common Human Ideological Legacy)

تشجيع إجراء الدراسات المستقبلية المستمدة من الإرث الإيماني المشترك.

ثبت المراجع

أولاً:- المراجع العربية:

القرآن الكريم.

تفسير القرآن الكريم لابن كثير.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري.

الندوة العالمية حول ترجمات معاني القرآن الكريم، طرابلس/ليبيا 1382هـ.

الهيئة العالمية للقرآن الكريم ضرورة للدعوة والتبليغ للدكتور حسن المعايرجي، مطابع الدوحة،قطر،1991.

ترجمات معاني القرآن الكريم وتطور فهمه عند الغرب للدكتور عبد الله عباس الندوي، سلسلة دعوة الحق، العدد (174) مكة المكرمة،1417هـ.

دور الترجمة الدينية في الدعوة إلى الله تعالى لأبي عبد الله عبده بوريما النيجري، دار البخاري، المدينة المنوّرة1416هـ/ 1996م (تقديم ومراجعة الدكتور وجيه حمد عبد الرحمن).

محمد في الكتاب المقدس للبروفسور عبد الأحد داود، ترجمة فهمي شما، دار الضياء، عمان،الأردن1405هـ-1985م.

لا سكوت بعد اليوم، لبول فندلي- شركة المطبوعات للنشر والتوزيع / بيروت،2001م.

وقفة مع بعض الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم للدكتور وجيه حمد عبد الرحمن، ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، في الفترة من 3-6 رجب 1421هـ الموافق 30 سبتمبر-3 أكتوبر 2000م.

ترجمات إنجليزية لمعاني القرآن الكريم في ميزان الإسلام للدكتور وجيه حمد عبد الرحمن، ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل، في الفترة من 10-12 صفر 1423 الموافق 23-25 أبريل 2002م.

شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبة للدكتورة زيغريد هونكه، بيروت، دار الآفاق الجديدة 1406هـ/1986م.

ثانياً:– المراجع الأجنبية

1. Abderrahman,W.H (1990) A Concise Dictionary of Scientific Roots, A New Approach to the Study of Neologisation, Librairie de Liban.
2. Abderrahman,W.H (1995) " Reflections on the Translation of Quranic Idioms" Linguistica Communicatio Vol .Vll , pp.3-11.
3. Abderrahman, W.H (2008) " Universal Roots Under the Linguistic Tree " FIT xviii Conference, China.
4. Ali, A.Y. (1946) The Holy Quran: Translation and Commentary, IPCI SA.
5. Arberry, A.J (1955) The Koran Interpreted, 2 vols, Allen & Unwin London.
6. Bell, R (1937) The Qur'an, 2 vols, T & T Clark, Edinburgh.
7. Bucaille ,M.(1978) La Bible, le Coran et la Science, I.I.F.S.O,Kuwait.
8.Bush, George (1837), The Life of Mohammed, Founder of the Religion of Islam, New York Harper & Brothers, pp156-157.
9. New American Standard Bible J.B.M.C. Cabe Company, Anaheim, California,1977.
10. Palmer, E.H (1980) The Koran (The Scared Books of the East,vol.vi) Oxford.
11. Rodwell, J.M (1961) The Koran, Williams & Norgate, London.
12. Sale, G. (1975) The Koran, London.
13. Sapir, E. (1970) Language, Harcourt, Brace & World. Inc.

عندما يقدم الأدب" الرواية التاريخية"
رسالة في حوار الحضارات
كتاب _الأمير لواسيني الأعرج– نموذجا–

أ_عرجون الباتول

إن إشكالية البحث عن موضوع حضاري إنساني في ركام القول بالصراع الحضاري العولمي مهمة أساسية لدى الطامحين إلى السلام العالمي في ظل حوار بناء قائم على الاحترام الحضاري المتبادل بين الشعوب.

وعلى هذا الأساس فان جامعة تلمسان قد أثارت من خلال هذا المحفل الفكري إشكالية جد هامة ،تدعو لتباحث حول" الإسلام والاستشراق وحوار الحضارات" في زمن العولمة التي تحاول أن تصبغ كل شيء بأصباغها، حاصدة كل ما يكون في طريقها في شبه خطة شاملة لإلغاء ما هو قائم مقابل نظام عالمي جديد يستفيد من آخر مبتكرات العلم والمعلوماتية والتكنولوجيا عموما وينظر بشكل مخيف لنهايات العالم وبدايات تاريخ جديد، ليس إلا تاريخ الدمار والتخريب للحضارات والمحليات والخصوصيات والثقافات والأديان واللغات بحجة إعادة البناء والتحضر . أي إيجاد حضارة عالمية واحدة.

ولما تضمن موضوع الملتقى عدة محاور تؤطر الإجابة على الإشكالية المطروحة فقد وقع اختيارنا على محور حوار الثقافات لندرس الحوار من زاوية أدبية فنية و ليكون هذا الأخير بؤرة محاولتنا الموسومة بـ:

" عندما يقدم الأدب رسالة في حوار الحضارات كتاب
الأمير– لواسيني الأعرج نموذجا.

تحديد المصطلح و المفهوم:

في البداية يجب أن نشير إلى تعريف الحوار الذي هو حسب ابن منظور [45] " الجواب أو الرد والمحاورة: المجاوبة

التحاور: التجاوب

يتحاورون: يتراجعون الكلام

إذن فالحوار هو تبادل الحديث والمجادلة والكلام ." محاور محاورون، محادث مخاطب د. ناقض محاورة لم يصغ إلى محاوريه". وأما الشخص الذي يمكن التحاور معه فهو محاور كفء.

محاور مص– جمع محاورات جدل يدور حول شخصين أو أكثر، تجادلا حاور احدهما الآخر – تحاور مع: تبادل الكلام، تحادث مع تمحور حول: دار حول[46].

[45] يراجع ابن منظور – لسان العرب– مادة حورع/217–222

[46] المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق– بيروت ط1–2000–ص 343

كرس ديننا الشريف مبدأ الحوار في التعامل مع الآخرين ليكون الإسلام دين الحوار" الذي يطلق للفكر أن يفكر في كل شيء و ليتحدث عن كل شيء ، وليحاور الآخرين على أساس الحجة والبرهان والدليل، ليعلمهم كيف يصلون إلى قناعاته آفاقه بالكلمة الحلوة والأسلوب الطيب والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن47".

فالجدال في الإسلام يكون بالتي هي أحسن وليس بالمعاندة والتنكر والتهرب والمراوغة والتكبر.

أما حضارات فمفردها حضارة، خلاف البداوة مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر، أو هي مجموعة الميزات والخصائص الاجتماعية والدينية والخلقية والتقنية والعلمية والأدبية والفنية عند شعب معين48.وبهذا المعنى تكون الحضارة متغيرة في زمن متغير متجددة منفتحة على كل جديد، جديدها وجديد الآخرين ما يوافق مسيراتها التاريخية وآنها ومستقبلها وما يحمي الإنسانية من غوائل الصدام والنزاع الذي ليس حضاريا في أي وجه من وجوهه إلا ما كان منه في سبيل الأفضل وسبيل خير الإنسانية.

ولما كانت كلمة حوار تعني الاتفاق أو الاختلاف حول مسائل مختلفة بين الطرفين، فإنها إذا أضيفت إلى لفظه حضارة أو حضارات تعني أن هناك " خلافا بين حضارتين أو بين حضارات ينبغي حله بالوسائل السلمية من اجل العيش الإنساني الهانئ الكريم، ومن المتعارف به أن الحوار يعني الحديث بين طرفين..49

وحوار الحضارات فكرة أول من تكلم بها المفكر الفرنسي روجيه جارودي،* عبر نظريته الرائدة ومشروعه للجمع بين الحضارات المختلفة على أساس أرضية مشتركة للتفاهم على مستوى شعوب الأرض وسماه بحوار الحضارات. pour un dialogue de civilisation.

ثم طرح الرئيس الإيراني محمد خاتمي نظرية حوار الحضارات في سبتمبر أيلول 1997 خلال كلمة ألقاها في الجمعية العامة للأمم المتحدة حيث يرى أن فكرة حوار الثقافات محاولة من اجل التفاهم بغية دحض التصادم، وتم إنشاء العديد من المؤتمرات والجمعيات والمؤسسات الداعية لترسيخ سياسة الحوار والتفاهم والتعايش السلمي بدل من الصدام وتبنى العديد من الكتاب هذه النظرية ودعوا إلى تنمية الحوار العالمي الإسلامي والغربي حتى يمكن لكل طرف أن يتفهم الآخر ويتعايش معه. يصبوا روجيه جارودي من خلال مشروعه حوار الحضارات إلى مطلب الكونية باعتباره ذلك الأفق الذي يمكن أن يتحقق في إنسانية الإنسان، إذ يقول الكاتب في هذا السياق " وبهذا الحوار بين الحضارات وحده يمكن أن يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل وذلك ابتغاء أن يخترع الجميع مستقبل الجميع".

---

[47] محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، أساليبه، معطياته، دار التعاون للمطبوعات، بيروت، ط5، 1987– من صفحات المقدمة

[48] المنجد في اللغة العربية المعاصرة –ص 296.

[49] سالم المعوش، الأدب وحوار الحضارات، المنهج والمصطلح والنماذج – دار النهضة العربية الطبعة الأولى 2007 ص 126

*روجيه جارودي، هو فيلسوف وكاتب فرنسي ولد بمارسيليا 1913 في الحري العالمية الثانية اخذ كأسير حرب في الجلفة بالجزائر كان شيوعيا لكنه طرد منه لانتقاداته المستمرة للاتحاد السوفياتي. كان منجذبا إلى الدين وحاول أن يجمع الكاثوليكية مع الشيوعية خلال عقد السبعينيات ثم ما لبث أن اعتنق الإسلام عام 1982 متخذا اسم رجاء بدل روجيه أي رجاء جارودي.

ومثل هذا الحوار لن يتحقق إلا إذا تخلص الغرب من عقدة التمركز الثقافي التي برزت بعد اتضاح تيار العولمة على اثر انهيار الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية وتفرد قطب العولمة الرئيس بالقرار الدولي واحتكار القوى المختلفة على مختلف الميادين والإعلان عن ذهنية الإلغاء لكل شيء لاسيما الحضارات والأديان، كما هو تبشير بانبثاق حضارة عالمية واحدة ودين عالمي واحد. وهو ما نظر له كل من فوكوياما* في كتابه نهاية التاريخ وصموئيل هنتغنتون* في كتابه صدام الحضارات50 ومن هنا يجب على الشعوب المتضررة والمهمشة والتي تتعرض للتخريب في كل شيء أن تتحد وان تتكتل وتقيم حوارا فيما بينها ينزع فعلا إلى تجنب كارثة كونية جديدة والابتعاد عن الفتن، وهو الحوار الحضاري الحقيقي الذي لا يفترض الصدام بل الحماية ولا يستند إلى الهيمنة بل إلى التعايش السلمي بين الحضارات وفق احترام متبادل لخصوصيات الشعوب، و" التوصل إلى صيغة فكرية

تكون بمثابة أيديولوجيا نهوضية تأخذ بأسباب التغيير نحو التقدم ومجابهة التحديات الآنية 51"

والأدب هو ذلك الفن اللغوي الجميل الذي كان ولا يزال صوتا معبرا عن الحضارات في كل زمان عن طريق الكلمة الطيبة التي تكثف الأسئلة وتتعمق في مظاهر الكون، في حدوده وتحاور وتولد في الكون إشعاعات حقيقية تنير النفوس والعقول، كما تنير المصائر والدروب.

فإذا كان الحوار بين الحضارات ينبغي أن يؤسس على المعرفة بين" الأنا" و"الآخر"، طرفي الحوار، فان الأدب بالتأكيد هو أفضل سبيل لمعرفة النفس ومعرفة الآخر والحضارة التي تود أن تقيم حوارا مع الحضارات الإنسانية الأخرى يمكن أن تستعين بالأدب على معرفة الحضارة الأخرى التي يمثل الأدب روحها ويجسد خصوصيتها. ضمن التنوع الإنساني الخلاق، مثلما يمكن أن تعهد إلى أدبها بالتعريف بها وتمثيلها، واختزال روحها، والإفصاح عن خصوصيتها، خصوصا إذا كان الأدب جديرا بهذه التسمية وبذلك فان معرفة الآخر من خلال الأدب بغرض إقامة حوار معه، ربما كانت من أجدى سبل المعرفة بالآخر.

وفي الحوار الأدبي يصبح السعي إلى الاتفاق أمرا أساسيا، لان الحوار يتم حول الاختلاف وليس حول الاتفاق وهو اختلاف لا يكون صراعا مميتا بقدر ما يحمل في طياته رسالة الأمل بالتعاون والسعي الإنساني الموحد.

تعتبر الرواية المعاصرة من أهم الفنون الأدبية التي قدمت رسالة حوار الحضارات * نذكر منها رواية نادية ليوسف السباعي التي ترسي دعائم الحوار الحضاري وتقيم مقارنة مستفيضة بين أحوال الشرق والغرب52 وروايته" الإقلاع بعكس الزمن لاميلي نصر الله" حيث تعالج ثنائية الشرق والغرب وتبرز اللاتكافؤ في العالمين53.

* فوكوياما– يوشيهيور و فرانسيس كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية ولد في مدينة شيكاغو الأمريكية عام 1952 من كتبه" نهاية التاريخ والإنسان الأخير " وانهيار أو التصدع العظيم .

* صموئيل هنتغنتون مفكر أمريكي أثار الجدل من خلال كتابه صدام الحضارات.

[50] يراجع صموئيل هنتغنتون صدام الحضارات وإعادة بناء النظام الحضاري الجديد، ترجمة مالك شهيوة ومحمود محمد خلف. دار الجماهيرية العظمى للنشر والتوزيع والإعلان ، أيلول 1999–ص 102.

[51] محمود إسماعيل، في نقد حوار المشرق المغرب بين حنفي و الجابري – رؤية للنشر والتوزيع –ط1، 2005–ص 13.

- * يمكن للرواية أن تنقل لك حوار حضاري عن طريق الاقتباس من التاريخ و المحافظة على قضاياه و أيضا عن طريق التزييف، ويمكن للأديب الفنان أن يوهم القارئ بحوار حضاري و يمكنه أن يجعل القارئ يتفاعل و يتعاطف مع الآخر و بهذا يكون هنا قد أسهم عن طريق الفن الأدبي (الرواية التاريخية) في إضفاء الثقة و المحبة و قبول الآخر.

ورواية الأشجار واغتيال مرزوق " لعبد الرحمن منيف " التي يظهر الحوار الحضاري فيها غائبا[54] أما رواية الأمير – مسالك أبواب الحديد– لواسيني الأعرج درسا حقيقيا في حوار الحضارات ومحاورة كبيرة بين المسيحية والإسلام وعلى هذا الأساس اختيرت كنموذج أدبي لموضوعنا" عندما يقدم الأدب رسالة في حوار الحضارات " أو بعبارة اصح اختير موضوع الحضارات كنموذج موضوعاتي دراسي تستحقه الرواية وتستفزه لمعاينتها من خلاله.

واسيني الأعرج ومضمون روايته* الأمير:

واسيني الأعرج من الروائيين الجزائريين القلائل الذين نجحوا من خلال إبداعهم الأدبي أن يتجاوزوا حدود الوطن ويفرضوا إنتاجهم الروائي في مختلف أرجاء الوطن العربي[55]. حيث أنجز خلال فترة قصيرة عددا لبأس به من الأعمال الروائية المميزة التي أهلته ليكون واحدا من الروائيين العرب المتميزين بإنتاجهم السردي[56].بالإضافة إلى انه استطاع تقديم منجزه ضمن لغتين العربية والفرنسية الأمر الذي كفل له الرواج ضمن دائرة واسعة من القراء.

ينتمي كتاب الأمير إلى جنس الرواية التاريخية، والنص بشكل عام مبني على حياة الأمير عبد القادر الجزائري وهو نص يعيد إنتاج الحقيقة عن طريق الخيال وإماطة اللثام عن قضايا هامة لفتها ألثمة عديدة، فتقول ما لا يستطيع التاريخ قوله حين تستمع إلى أنين الناس وأفراحهم وانكساراتهم من خلالها وحين تشاهد اندفاعات الأمير وهو يحتج على والده الذي أعدم دون استشارته قاضي ارزيو من خلالها وحين يستفزك غليان بيجو لان الأمير تركه ينتظر على حافة التافنة من خلالها وحين يركض مونسينيور بين غرفة الشعب بباريس وبيته للدفاع عن الأمير السجين بامبواز ولا يرتاح إلا عندما يراه يركب سفينة لابرادور Labrador متجها إلى القسطنطينية أيضا من خلالها.

هكذا تقوم الرواية على قصة هذا الرجل وهو أول قس عين في الجزائر في القرن التاسع عشر، وعلاقته بالأمير بدأت مع رغبة هذا القس بإطلاق السجناء الفرنسيين الذين سجنوا في عهد الأمير عبد القادر، فأرسل له رسالة إنسانية وبعد أن قرأها يطلق الأمير سراح السجناء جميعا[57]وكذلك يطلب الأمير من القس الذهاب إلى سجن القصبة وفيه السجناء الجزائريون، فذهب إليهم وقام بالصلاة وطلب من الجميع التبرع لهم بعد أن وجد حالتهم يرثى لها، فالناس يمكن أن يختلفوا دينيا ولكن هذا لا يمنع أن يستمعوا لبعضهم ويتحاوروا ويشعروا ببعضهم. فتوسط لهم وأطلق سراحهم.

---

[52] يراجع– سالم المعوش– الأدب وحوار الحضارات ص 144

[53] يراجع– سالم المعوش– الأدب وحوار الحضارات ص 177

[54] يراجع– سالم المعوش– الأدب وحوار الحضارات ص 184

- * استعمل الكاتب مصطلح كتاب بدل رواية ليترك هذا الجنس الأدبي مفتوح على التأويل حيث تتداخل الرواية مع التاريخ و تقدمه في قالب تخييلي جميل و هنا نصنف هذا الكتاب ضمن جنس الرواية التخيلية المبنية على الخيال و الجمال و ليس ضمن كتب التاريخ المبنية على الصدق و الأمانة التاريخية.

[55] سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، من اجل وعي جديد بالتراث ، رؤية للنشر والتوزيع–ط1–2005 ص 86.

[56] يراجع – جمال فوغالي– واسيني الأعرج– شعرية السرد الروائي– صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربي–2007.

[57] يراجع– ملاح احمد، الأمير عبد القادر المتصوف والمصلح–منشورات دار الأديب– ص13

وعلى هذا الأساس تعتبر رواية كتاب الأمير درسا في حوار الحضارات فيه محاورة كبيرة بين المسيحية والإسلام – بين الأمير من جهة ومونيسنيور ديبوش ونابليون الثالث من جهة ثانية، التي تقضي إلى تشكيل وعي كل الذين انغمسوا في حروب القرن التاسع عشر.

الرواية والتاريخ" جمالية التزييف والإيهام على مستوى المتخيل":

استدعى الروائي العربي المعاصر المؤرخ الذي لم يكتبه المؤرخون فأصبح متلقي الرواية يقرأ تاريخا مزيفا ومصفى من قبل الكاتب حين تأمل التاريخ واحتج عليه وصحح أسئلته عن طريق قالبها المرن الذي أذاب كل الأجناس ووظف كل اللغات وكسر آلاف التابوهات...

لينزاح التاريخ إلى رواية متخيلة من طرف المبدع الذي يخلخل الحقيقة بطريقة فتية تتولد منها إبعاد دلالية يعجز التاريخ وحده عن توليدها لهذا نحن دائما بحاجة إلى ثنائية سواء " ذكر وأنثى"أو أنا و آخر أو الذات و الهو .....

-أ-ملبسات كتابة رواية الأمير بين المرجعية التاريخية والمرجعية التخييلية:

تقتضي كل رواية وجود واقع تاريخي كامن وراء إنتاج تخييلية هذه الرواية، وتاريخها أيضا،"ويبقى مع ذلك تقدير المصدر وقصده ومعياره أساسيا لضبط سجل النص وتمثل مجال تحققاته تبعا لوضيعة الكتابة وطبيعة البنية السردية الراصدة لوقائع والأحداث،بين النص من جهة وما قبل النص من جهة ثانية "58وعندما سئل واسيني الأعرج في حوار صحفي عن المراحل الجنينية لكتابة رواية الأمير أجاب بقوله" هذا الموضوع يشغلني منذ فترة طويلة وما دفعني لكتابة هذه الرواية أمران:

الأول: حيرتي أمام مفارقة كبرى في التعامل مع الأمير في الجزائر، فعلى صعيد الخطاب السياسي ينظر إلى الرجل باعتباره مؤسس الدولة الجزائرية وبطلا من الأبطال الكبار بل أهمهم على الإطلاق وبالمقابل لم ينجز حوله فنيا لا مسلسل ولا فيلم سينمائي يجسد هذه الشخصية العظيمة، هناك إذن مفارقة عجيبة في الخطاب السياسي وواقع التعامل مع هذه الشخصية التي تكاد تهمش، واكتشفت كذلك انه ليس هناك رواية حول الرجل فلا الحكومة و لا القطاع العام قدما شيئا للرجل، ولا قدم الفرد له شيئا واقصد بالفرد الفنان المستقل، من هنا انطلقت حكايتي مع الأمير وبدأت بالبحث والتنقيب عن أخباره وأحواله.

[58] عبد الفتاح الحجمري، هل لدينا رواية تاريخية، مجلة النقد الأدبي. فصول، المجلد السادس عشر، العدد 3 شتاء 1998-ص 62.

الثاني: أردت البحث عن تجربة إبداعية جديدة خارج ما اصطلح عليه بأدب المحنة. الأمير جعلني اقضي أربع سنوات في البحث والقراءة والحب بكل ما تحمله كلمة حب من تعب وجفاء ودعوة وشوق... لكن سرعان ما عدلت عن كتابة الرواية عندما تحصلت على وثيقة متمثلة في رسالة تأديبية وجهت له من نابليون الثالث يقول فيها انه تبرأ من والده.

وبعد ذلك كان عندي صديق فرنسي يعلم انشغالي بموضوع الأمير حيث أنني كنت أجوب المكتبات وجمعت حوالي ثلاثمائة وثيقة حوله، فاهداني ذلك الصديق كتابا لقس الجزائر مونسنيور ديبوش وكان عنوان الكتاب " عبد القادر في قصر أمبواز"وهو عبارة عن رسالة وجهها ديبوش إلى نابليون الثالث وفيها يعطي القس صورة عن الأمير مذهلة فاستغربت من ذلك الحب والتقدير الذي كان يكنه ديبوش القس المسيحي للأمير المسلم وكيف كان يدافع عن الأمير دفاعا غريبا.

من هنا يتضح أن الرجوع إلى التاريخ لفهمه ضرورة من ضرورات كتابة الرواية التاريخية وهو رجوع مقصود لدراسة الماضي قصد استحضاره في المتخيل الروائي. وقد يكشف لك البحث في الماضي أشياء لم تقصد البحث عنها فشخصية مونسينيور هنا جاءت لوحدها وأثبتت نفسها بما تحمله من جمال وحب وخصوصية على الكاتب وعلى روايته.

فالبحث في الرواية التاريخية عبارة عن سلاسل متداخلة تدخلك كل سلسلة في الأخرى وتكشف لك عواملها المجهولة مثلما اكتشف واسيني الأعرج حوارا للحضارات مرجعيته التاريخية هي القرن التاسع عشر حين دار حوارا استثنائيا ليس فيه مكانا لثنائية ضعيف قوي رغم حساسية المواضيع التي كانت تناقش بين الرجلين والتي كانت تدور حول الفكر الإسلامي والفكر المسيحي.

وعليه فان المرجع الأول إن كان حقيقيا أو يقصد إلى الحقيقة فان المرجع الثاني " الروائي" يقصد إلى جمالية توظيف الحقيقة عن طريق الفن الروائي الذي يحمل التزييف والتعديل والتلاعب والمفارقة...

فمن المسافة الزمنية إلى المسافة الجمالية ومن الخاصية السردية إلى الخاصية المرجعية يكتسي مفهوم السرد دلالته حين يطابق أفقا زمنيا متوقعا، ولأجل ذلك فان كل سرد يروي هذا المحتمل حدوثه بهذا الشكل:

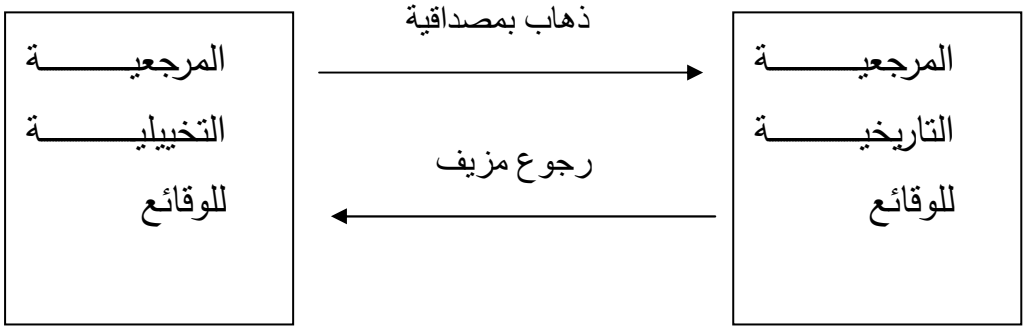

منهج الرواية بين المرجعية التاريخية و المرجعية التخييلية

ومن مظاهر تزييف الواقع المرجعي في رواية الأمير نذكر:

تحقق الأماني التي لم تتحقق في الواقع:

عندما يقحم الكاتب الخيال، ويظهر ذلك من خلال افتتاحية رواية الأمير التي تبتدئ بجون موبي jean moubet خادم منسينيور ديبوش وهو ينتظر وصول رفات سيده إلى الجزائر " عندما فتح جون موبي عينيه وقع على هسهسة المجدافين وهما يشقان عمق البحر، كأن الزورق قد ابتعد عن الميناء وزيت السفن والاميرالية، فتح الحقيبة الجلدية القديمة ثم اخرج بوقالات الأتربة التي كان خائفا عليها من الانكسار.

أنت تعرف قيمتها لقد حملت هذه الأتربة من بوردو وأخاف عليها أن تتبعثر قبل وقتها في مكان غير المكان الذي حدده منسينيور ديبوش"59 وجون موبي هذا هو خادم منسينيور ديبوش طوال حياته.رافقه في جلساته مع الأمير وهو الذي شهد وفاة سيده وحمل وصيته التي تقول أن منسينيور ديبوش أوصى بدفنه في الجزائر " لو حدث أي مكروه أوصيت حفيدي البارون سانت- سوران بان يسهر على تنفيذ هذه الأمنية سأكون سعيدا ومؤمنا لو ارتاحت رفاتي يوما وسط أبنائي في الجزائر، لقد جلبت رفاة القديس اوغستين إلى هيبونا، وكم أتمنى كذلك عند ما يحين دوري أن تعود رفاتي تجاه تلك التربة المقدسة التي منحنى الله حبهم إذا استطعت أن أقول من الآن لمن سيغمض عيني للمرة الأخيرة:

Redde ossa mea meis لا نتحكم في الأقدار ولكننا نتمناها60" وبالرجوع إلى المرجع التاريخي نجد أن جون موبي اعلم أهله و الجميع بهذه الوصية الشفوية ولكن منسينيور ديبوش دفن في فرنسا ولم يحول رفاته إلى الجزائر إلا عندما

[59] واسيني الأعرج، الأمير و مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر، ط1-2004-ص10.

[60] واسيني لأعرج، الأمير، ص 218-219.

عين قس جديد للجزائر وهو الذي طلب بتطبيق الوصية وجلب رفاة منسينيور ديبوش إلى الجزائر غير أن الخادم جون موبي لم يصاحب رفاة سيده بسبب الفاقة التي يعيشها رغم أنها كانت أمنيته الكبيرة.

الكاتب واسيني الأعرج قلمه مصباح سحري يسافر في الأزمان يحقق الأمنيات على مستوى المتخيل حيث حقق جون موبي رغبته تعاطفا معه ومجازات له على إخلاصه ورغبة في السيطرة على الوقائع من خلال خلخلتها خلخلة تفاعلية جميلة حين يسافر جون موبي إلى الجزائر لاستقبال رفاة سيده منسينيور ديبوش.

رواية الأمير والصوت السردي العادل (الراوي المحايد بين المسلم و المسيحي):

تفنن الكاتب واسيني الأعرج أيضا في توظيف الصوت السردي ففي السير التاريخية يحكي كاتب السيرة عن نفسه بصوته وبضميره أو يحكي بصوته عن سيرة الآخر، أما تقنية توظيف راوي الرواية فأصبحت لعبة فنية هامة على الكاتب مراعاتها،في رواية الأمير – مسالك أبواب الحديد- نجد الراوي محايدا،

والراوي غير الكاتب لان الأول ينتمي إلى عالم الأدب والمتخيل الفني الذي أبدعه الثاني شانه في ذلك شان الشخصيات الحكائية حتى لو كانت لها مرجعية تاريخية استعمل الكاتب في رواية الأمير راو محايد لأنه لو جعل الرواية على لسان واحد مثلا الأمير عبد القادر أو منسينيور ديبوش لكانت الرؤية من زاوية واحدة.

أما وجود شخصية جون موبي فقد وفرت الطابع البوليفوني- بهذا الشكل:

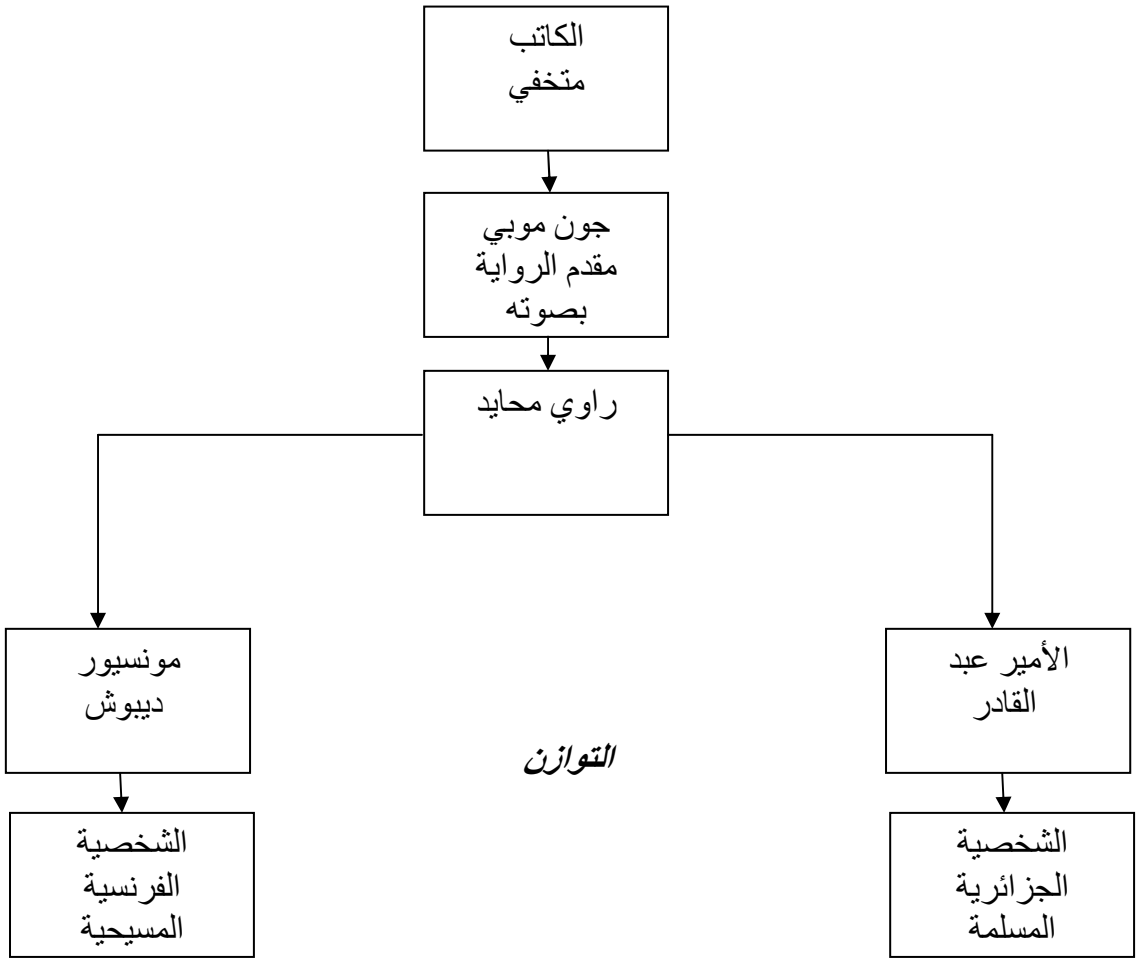

تقنية الراوي المحايد و الصوت السردي العادل

أجاد الكاتب في استعمال الراوي المحايد فلو كانت الرواية بصوت الأمير لشعر المتلقي بميل من طرف الكاتب للإسلام والعكس صحيح، فحوار حضاري كالذي هو موجود في رواية الأمير يليق به الراوي المحايد بنظرنا على الأقل.

–حوار الأناخر_الإسلامسيحي،وثبات الهوية:

يستعمل الكاتب لعبة فنية رائعة هي لعبة الإيهام بالحقيقة وهي من الوسائل الفنية التي يلجا إليها الكاتب ليقول الحقيقة، فالأدب الذي يمثل إرادة فرد أو مجموعة من الأفراد متشابهين في نزعتهم الاستعلائية والتفوقية... أدب لا يدخل إلى قعر النفس ليخرج البراءة منها ويصيب الإنسان الآخر في قعر نفسه ويحدث عنده الموقف الإنساني نفسه والآيل إلى خير البشر... أدب هزيل يتموضع في إطار مصطنع قبلي التطلعات . مرسوم له أن يحط من قدر الإنسان لا أن يرفعه61.

وهذا ما حدث مع الأمير الذي دخل الكاتب إلى قعر نفسه عن طريق العودة إلى التاريخ والى الآخر منسينيور ديبوش ليخرج موقفا تحييليا حقيقيا أو يوهم بالحقيقة يرنوا إلى خير الإنسانية، يقول جون موبي: "البارحة قضيت الليلة بكاملها أفلي كلماته الأخيرة لأفهم عميقا سر هذا الحب. الأمير كان وسيلته للوصول إلى المحبة العليا الحق أحيانا فوق الأديان — الرجل الحق هو الذي يجعل من الحق ضالته مونسنيور لم يفعل أكثر من ذلك طوال عمره وكان يظن نفسه دائما مقصرا في حق اللذين يطلبون عطفه وحنانه62" كان هذا الحب لأنه لم يرى من الأمير إلا المحبة حين أطلق السجناء المسيحيين.

حيث قال الأمير في رسالة منه إلى مونسنيور" مونسنيور أنطوان– ادولف ديبوش...لقد بلغني مكتوبك وفهت القصد ولم يفاجئني مطلقا في سخائه وطيبته لما سمعته عنكم. مع ذلك اعذرني أسجل ملاحظات لك بوصفك خادما لله وصديقا للإنسان: كان من واجبك أن تطلب مني إطلاق سراح كل المساجين المسيحيين الذين حبسناهم منذ عودة الحرب بعد فسخ معاهدة تافنة وليس سجينا واحدا ، كائنا من يكون وكان لفعلك هذا أن يزداد عظمة لو مس كذلك السجناء المسلمين الذين ينطفئون في سجونكم أحب لأخيك ما تحب لنفسك... "63 وبهذه الرسالة وهذا القبول نجد أن الأمير يحمل مشاعر إنسانية نبيلة وهي حماية جموع من المسيحيين من مجزرة بشعة من المسلمين الذين أصروا على إراقة دمائهم فهو الذي كان يقول" لو أصغى أليا المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا64".

فالأمير عبد القادر الجزائري يمثل صورة لنزعة إنسانية في اجلي مظاهرها وأروع صورها65.

عبر مونسينيور ديبوش عن فرحه بإطلاق السجناء عن طريق هدية للأمير" لم يستطيع مونسينيور أن يكتم سعادته عندما تذكر سخاء الأمير الذي بعث له من اجل

---

[61] سالم المعوش– الأدب والحوار الحضاري–ص 122.

[62] واسيني الأعرج– الأمير–ص 14

[63]. واسيني الأعرج– الأمير–ص 49– 50

[64] الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل–طبع ذكرى العاقل بيروت–ص 107

[65] يراجع فؤاد صالح السيد الأمير عبد القادر الجزائري– متصوفا وشاعرا– المؤسسة الوطنية للكتاب– ص 9.

شكره على مساعدته للسجناء العرب بالعديد من الزرابي التي أثثت بها دار اليتامى، – سانت سيبيريان–وبأربعين معزة مالطية ترعاها امرأة وطفلة صغيرة، بهذه المعاز ذات الضروع المدلات يمكنك إطعام الأطفال الذين تبنيتهم والذين فقدوا أمهاتهم66..

كثيرا ما كان يتبادلان الهدايا عربون محبة كبيرة بينهم وقد أشار الكاتب إلى تلك الهدايا في الرواية " نزع الأمير برنسه الأبيض الحريري الذي كان يرتديه والذي طرزته أياد نسائية كثيرة من بينها أنامل لآلة الزهراء في قصر امبوارز وأمضينا وقتا كبيرا لنسجه في ظروف الوحدة والعزلة والخوف من المستقبل الذي بدا غامضا إلى أقصى الحدود، ثم وضعه على ظهر مونسينيور ديبوش" 67فمن خلال العديد من مقاطع الرواية يتجلى الحوار بين ألانا والآخر أو بين المسيحي والمسلم حيث يجتمع رجلان من ديانتين مختلفتين يجمع بينهما البعد الإنساني فبد إطلاق أسرى الفرنسيين تغيرت صورة المسلم كآخر بنسبة للفرنسيين " الأخبار يا سيدي تقول أن العرب يقتلون سجناءهم ويبعثون آذانهم ورؤوسهم لمسؤوليهم لكي ينالوا حقوقهم بحسب عدد الرؤوس والآذان التي يقطعونها"68 فالملاحظ أن الأمير غير صورتنا عند الآخر وقد كانت ردة فعل مونسينيور طيبة وكريمة أيضا حينما أكرم السجناء المسلمين واعتنى بهم " لن انزل من هذه الهضبة إلا إذا تأكدت بضمان إطلاق سراحهم، يومها طلب مونسينيور أثناء صلواته بكتدرائية فيليب من كل ذوي البر والإحسان مساعدة السجناء بالألبسة والأغطية ومكن الجميع من تقديم مساعداتهم لقس، سانت فيليب أو لأخوات سانت–جوزيف أو لرئيس الجمعية الخيرية الجزائر العاصمة قبل أن يقنع السلطات العسكرية بضرورة إطلاق سراح السجناء العرب في مضيق موزيا الذي حدد كما كان لتبادل الأسرى"

وظل الحوار الحضاري متواصلا بينهم حين كان يذهب القس مونسينيور ديبوش إلى زيارة الأمير عبد القادر بعد أن تأكد من إنسانيته وعلم الرجل وعظمته في سجن امبواز، ففي هذه الزيارة نشا بينهما حوار إنساني عجيب في ذلك الوقت خال من كل تعصب ودون أدنى تنازل رغم حساسية المواضيع المطروقة والتي كانت تدور حول الفكر المسيحي والفكر الإسلامي.

وكان كل واحد يتمنى أن يدخل الآخر إلى ديانته، مونسينيور ديبوش أهدى إلى الأمير الإنجيل ووعده الأمير بقراءته وانه سيعتنق المسيحية إذا ما اقتنع بما فيه " كم اشتهي أن أحدثك عن كل ما يجمعنا . بدأت اقرأ كتابكم الإنجيل وفي فترة إقامتك إلى جانبي أتمنى أن تسمح لي بمساءلتك عن بعض القضايا الغامضة . لم تتح لي الحروب والتنقلات المستمرة إلا قراءة شذرات صغيرة هنا وهناك. لكن هذه المرة أنا مصمم على قراءته كاملا، وفهمه أن آمكن، سادتنا القدماء فعلوا مثل الأمر بدون أن يخل إيمانهم."

[66] واسيني الأعرج – الأمير–ص51.

[67] واسيني الأعرج – الأمير–ص 337

[68] واسيني الأعرج – الأمير–ص 48

الإيمان في القلب، وما في القلب ما يعلمه إلا الله، أنا مستعد من قلبي لأسئلتك 69 كم كان مونسينيور يتمنى أن يكون الأمير عبد القادر مسيحيا" اعتقد أني تذكرت الأمير سآتي إلى هذا المكان للحج، كنت أريده مسيحيا يخدم رسالة المسيح العالية وكان أقوى من أن يكون رجل دين واحد، فقد كان مسلما في قلب كل المعارك الكبرى لمصلحة الإنسان70"هكذا كان يمازح مونسينيور الأمير بقوله أتمنى أن تصبح مسيحيا لان واحدا مثلك يمكنه أن يمسح كل المسلمين بما له من مكانة في قلوبهم وعقولهم، وكان الأمير يرد عليه بذات الأسلوب وانتهى الأمر بالرجلين إلى أن بقي كل واحد منهما متمسكا بدينه وجمع بينهما الحس الإنساني المشترك فالإسلام أسس الأدب والحضارة فجعل الأدب رساليا71 وهكذا يتجلى الحوار الحضاري المنطقي من خلال المساواة بين الطرفين وإدراك أن كلا منهما في حاجة للآخر وأنهما لن يكونا مثالا ما لم يعملا معا، وان لكليهما طاقات وإمكانات لا يمكن الاستهانة بها ولذا في حالة الاختلاف قد يضر كل منهما بالآخر ولكي تعم المنفعة ويزول الضرر يجب أن يتم الحوار المحقق للاعتبار" قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقلوا اشهدوا بأنا مسلمون".72

والكلمة سواء هنا تعني كلمة الحق التي تستوي أمامها بالطاعة باعتبار المتحاورين أو المستهدفين بالحوار هم الإبراهيميون إذن الاعتبار تجعل في مكانة عندك واجعل لك مكانة عندي . وأن لا يستهين بعضنا ببعض أو يسخر منه وهو واضح من خلال الرواية . وعندما يتم الحوار الحضاري تجد نفسك في حالة تقدير. ولهذا كل الناس تسعى لنيل التقدير من الآخرين، تقدير الظروف بين المتحاورين أساسي، وان لم تقدر الإطراف ظروف بعضها البعض، ولا تتمكن من الاستيعاب الذي يؤدي إلى التفاهم.

والثقة هي الأخرى مكمن الإخلاص، فعندما تتوفر بين أطراف الحوار يتم الاستئناس والاطمئنان73.

وهكذا فان نجاح الرواية يكمن في أداء رسالتها في هذا المجال ، وفي مدى قدرتها على تحليل ملابسات علاقة الأنا بالآخر وإيضاح حقيقته أن هذه الأنا وذاك الآخر على اختلاف أنماط مهما ودواعي وجودهما وتنافرهما إلا أنهما في الأصل ...أنا واحدة...وأنا جزءا كبيرا من أمانة الإنسان ورسالته في الحياة و سلامه1، هو قدرته على قبول الآخر في حياته.

---

[69] واسيني الأعرج- الأمير-ص 42.

[70] واسيني الأعرج- الأمير-ص 542.

[71] حسن الامراني، الأدب والبناء الحضاري، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، ط1 2000 ص 8

[72] سورة ال عمران، الآية 64.

[73] عقيل حسين عقيل، منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط12004-ص 19-20-21.

قائمة المصادر و المراجع:

القران الكريم

المصدر:

واسيني الأعرج- الأمير مسالك أبواب الحديد- منشورات الفضاء الجد-ط1-2004

المراجع العربية

الأمير عبد القادر- ذكرى العاقل و تنبيه الغافل- طبع ذكرى العاقل بيروت.

جمال فوغالي- واسيني الأعرج- شعرية السرد الروائي – صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007.

حسن الأمراني- الأدب و البناء الحضاري- منشورات كلية الأدب و العلوم الإنسانية – ط1 2000

سالم الماعوش- الأدب و حوار الحضارات- المنهج و المصطلح و النماذج- دار النهضة ط1 2007.

سعيد يقطين- الرواية و التراث السردي- من اجل وعي جديد بالتراث- رؤية للنشر و التوزيع ط1 2005.

صلاح أحمد- الأمير عبد القادر المتصوف و المصلح- منشورات دار الأديب.

عقيل حسين عقيل- منطق الحوار بين الأنا و الآخر- دار الكتاب الجديد المتحدة- ط1 2004.

فؤاد صالح السيد- الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا و شاعرا- المؤسسة الوطنية للكتاب.

محمد إسماعيل- في نقد حوار المشرق و المغرب بين حنفي و الجابري- رؤية للنشر و التوزيع- ط1 2010.

محمد حسين فضل الله- الحوار في القرآن أساليبه و معطياته- دار التعاون للمطبوعات- بيروت ط5 1987.

المراجع المترجمة:

1/ صموئيل هنتغنتون- صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي الجديد- ترجمة مالك شهيوة- ومحمود محمد خلف- دار الجماهرية العظمى للنشر والتوزيع والإعلان الجماهرية العظمى- أيلول 1999.

المجلات والدوريات:

1/ عبد الفتاح الحجمري- هل لدينا رواية تاريخية – مجلة النقد الأدبي فصول- المجلد السادس عشر- العدد 3 شتاء 1998.

القواميس:

/1 ابن منظور لسان العرب- م4- دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .1961

2/ المنجد في اللغة العربية المعاصرة – دار الشروق بيروت-ط1-2000.

ماهية الاستشراق
(النشأة– المناهج والأهداف– الأصناف والوسائل)

الأستاذ عبد الحليم ريوقي
جامعة الجزائر –02– بوزريعة

مقدمة:

أخذ الاستشراق اهتماما بالغا في عصرنا هذا والذي قبله، وتنوعت أساليبه وأهدافه، ووسعت دائرته الأولى بعد أن كانت مقصورة على الحضارة الإسلامية لتشمل كل الحضارات والديانات الشرقية ومجتمعاتها، وتوظيف ما نتج منها وفيها لعدة غايات كالتشكيك في الديانات والتبشير، وتوظيف بعض الجوانب في التجارة والصناعة، والأهم من هذا وذاك الاستفادة مما نتج عند الشرقيين من أفكار وعلوم وآراء فطوروها وكيفوها وفق حاجياتهم، وما يرجون خدمة لأهدافهم، ومن العرب والمسلمين وغيرهم من المستهدفين بالاستشراق اهتموا أيضا به، فنظروا إلى ما قاله المستشرقون، فهذا يرد عن شكوكهم، والآخر يوثق ويجمع أراءهم وشروحهم، وثالث يقارن ويستنتج...، وللاستشراق عدة مستويات انطلق منها وله أهداف ووسائل، وقبل أن نبسط الآراء يجب أن نتناول مفهوم الاستشراق ودلالته لغة واصطلاحا.

الاستشراق ودلالته لغويا واصطلاحيا:

لكل لفظ له دلالته من ذاته أو من السياق الموجود فيه فلفظ استشراق / استشرق هي على وزن استفعال/ استفعل مؤلفة من مقطعين الأول وهو " است" والثانية "شرق"، ولفظ " است" لها دلالاتها في اللغة العربية، وهي دائما تدل على إبراز أو إظهار ما كان مخفيا أو ما حقه الظهور سواء علم أو لم يعلم، أو طلب أمر معين ويفسر دلالاتها ما تلحق به من لفظ، فيقال استخراج، أي إخراج أمر من باطن الأرض أو من غيره، مع العلم أنه موجود في ذلك المكان أو لم يعلم، ويقال استمراض – استغفال، أي إظهار أمر غير موجود كالمرض والغفلة، وكذلك استغفار أي أظهر العبد توبة، وإظهار طلب الغفران من ذنوبه، ويقال استعمار –كما يزعمون وهو في الأصح استدمار– أي إظهار التعمير و طلب إبرازه، نرجع لكلمة استشرق فإذا كان اللفظ " است" تعني إظهار أو إبراز ما كان مخفيا سواء علم أو لم يعلم، فحين لحقت به كلمة " شرق" فأصبحت تعني إظهار وإبراز ما كان موجودا في بلاد الشرق من علوم وأفكار، وما جادت به حضارات الشرق بصفة عامة، أو طلب ما فيه من أفكار وعلوم ومعارف.

أما إذا نظرنا لكلمة استشراق باللغة الأجنبية وهي Orientalism، فنجد في اللغة اللاتينية أن كلمةOrient " تعني يتعلم بحث عن أمر ما، وفي الألمانية Sich Orientiern تعني جمع معلومات أو معارف من مصدر ما، أما باللغة الفرنسية Orienter تعني التوجيه والإرشاد وبالإنجليزية Orientation" أو orientate لا تخرج عن مفهومها باللغة الفرنسية في أنها تعني التوجيه ولاهتمام بجوانب معينة[1]، وفي مجمل ما نجد من معاني الكلمة في هذه اللغات أنها

تعني جمع المعلومات ببحث أو توجيه وإرشاد، وهو ما يعكس المفهوم للاستشراق عند الغربيين بأنه جمع معلومات عن حضارات الشرق وما صاحبها من علوم ومعارف وأديان بالبحث والاهتمام.

الاستشراق من جهة شروق لشمس والسين تفيد الطلب، فيقال خدم واستخدام أي طلب الخدمة ويقال عمل واستعمل أي طلب العمل أما استشرق أي طلب علوم الشرق[2] أي حضارات الشرق: الإسلامية، الهندية، اليونانية،...، وأشرنا سابقا أن " است" الموجودة في الاستشراق أنها تعني إبراز أو إظهار أو طلب أمر ما علم أو لم يعلم بمكانه، أو بهيئته.

الاستشراق هو دراسة علوم الشرق وأحواله ومعتقداته، وديانته وتركيبته البشرية والعمرانية وحتى الطبيعية ودراسة لغاته ولهجاته وطبائع الأمم ومجتمعاتها وعاداتها، وعلومها وأفكارها[3]، وتوظيف هذه الدراسات عند الحاجة، كزرع النعرات والحروب في البلدان بمعرفة تركيباتها الاجتماعية واختلافاتها، أو توظيفها في المجال التجاري والاقتصادي بتصدير ما يتناسب مع المجتمعات، أو الاستيراد منها، أو النيل من المعتقدات الدينية بالتشكيك فيها، أو معرفة نقاط القوة والضعف في هذه المجتمعات أو يستفاد مما حفلت من علوم وأفكار.

إدوارد سعيد قسم الاستشراق ومن عمل في حقله إلى ثلاث مستويات:

- المستوي الأول: التعريف الأكاديمي للاستشراق وهو الذي يدرس في الجامعات والمستشرق هو كل من يقوم بتدريس لغات الشرق وعلومه أو الكتابة عنه أو بحثه،وهذا التعريف هو التعريف الشائع بين أوساط المثقفين
- المستوي الثاني: أسلوب من الفكر قائم علي تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب وهذا النوع قائم لإطلاق بعض الأحكام والنظريات عن الشرق ويدخل في إطاره الأعمال الفنية التي بها صور الشرق.
- المستوي الثالث: الاستشراق أسلوب غربي يهدف إلى السيطرة علي الشرق وبسط السيادة عليه،هذا النوع من الاستشراق ناتج عن قوي سياسية إمبريالية[4]،

وعند هذا الأقوال والآراء وجب علينا أن نصحح بعض الأغاليط حول مفهوم الاستشراق، أولا يذهب بعض الدارسين منا ومنهم أن الاستشراق يعنى باللغة العربية، وهذا خطأ لأن اللغة وسيلة وليست غاية، فلفهم ودراسة حضارات وفكر الشرق وعلومه ومجتمعاته وجب تعلم لغاتهم، فهي ليست مقصودة في ذاتها بل وسيلة تسهل البحث والتنقيب، فاللغة " من أهم مداخل الاستشراق الذي هو العلم بالشرق أو علم العالَم الشرقي. فالصلة بين الاستشراق واللغة قوية جداً، وقد بالغ بعض الدارسين في ذلك فذهب إلى أن الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة"[5] ومن التوهم أيضا أن المستشرقين يجعلون اللغة العربية وسيلة، فهذا وهم لأن المستشرقين يعنون بكل ما هو موجود في الشرق من حضارات الحضارة الإسلامية، الهندية، اليونانية، اليابانية، الصينية...، فاللغة العربية وحدها لا تكفي لدراسة هذه المجتمعات والحضارات فلكل واحد منها لغته، يمكن أن نستثني أمرا واحدا وهو أن جهودا انصبت على علوم اللغة العربية وغيرها لاستنباط الأحكام منها ونظريات ومحاولة تبنيها أو تطويرها مثلما فعل نعوم تشومسكي عندما أخذ نظرية العامل (مصدره باللغة الإنجليزية هو Government) من اللغة العربية ووظفها في اللسانيات الحديثة، بل حتى أن تشومسكي أقر بذلك فيما بعد بأنه أخذ النظرية من النحو العربي، وهو ما يؤكده الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح.[6] كذلك

نجد أن الفكر اللغوي أو ما يعرف باللسانيات الحديثة عند الأوربيين بنيت على أفكار الهنود في لغتهم السنسكريتية، ويقر بهذا البنويون إقرارا نزيها، وذلك كمثل التمييز الحاسم بين الصوت الدال وتأدياته المختلفة[7]، وأكبر دليل هنا هو أن المؤسس الفعلي للسانيات البنوية الحديثة *فرديناند دي سوسير F. De Saussure (1857-1913) ففي بدايات بحثه حول اللغة أصدر كتابين الأول سنه 1879 بعنوان " مذكرة في النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندية الأوربية Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes"، والثاني سنة 1881 بعنوان " استعمال المضاف المطلق في اللغة السنسكريتية De lémplois du génitif absolu en sinskrit"،[8] والتأثر واضح باللغة السنسكريتية الهندية، ووظف اللغة الهندية لاستجلاء الأحكام ومن ثم تعميمها، لتنطلق اللسانيات الحديثة على يديه، ومنها خرجت الكثير من المدارس اللسانية.

ودخلت الكثير من المفاهيم اللغوية العربية إلى أوربا عن طريق الفلسفة العربية التي نقلت إليهم الكثير من كتب العلوم من القرن العاشر والحادي عشر الميلادي، وقد تجند لترجمة الكتب العربية عدد كبير من المترجمين في الأندلس وصقلية وأروبا. (مثل حلقة أوكسفورد)،[9] ومن أشهر المترجمين آنذاك - Adelard of bath.- Hermann. j.de. sévilla-gundisalvi- r. of chester-g.cremonensi-m.scot.[10] ومن العلماء الأروبيين الذين تأثروا بالفكر العربي خاصة اللغوي نذكر اللغوي الإسباني Sanctius واسمه الكامل – F.sanchez el brocence (وهو غير الفيلسوف) وتأثر بالنحو العربي خاصة التقسيم الثلاثي للكلم، وتبنى هذا التقسيم من النحاة الفرنسيين Buffier و Dangeau.[11]، وعند هذا فهو اهتمام بما جاء في علوم اللغة العربية كغيرهما من العلوم والنهل منها، بتطوير نظرياتها ومحاولة تبنيها على أن ما اكتشفوه هو من نتاجهم الخالص، وهذا جانب من جوانب الاهتمام بما جادت به كل العلوم بما فيها اللغة العربية، ففي الأخير هي وسيلة وليست غاية إلا فيما ذكرنا آنفا.

حقيقة الاستشراق بدأ بالاهتمام بما زخرت به الحضارة الإسلامية من علوم وفكر ومجتمعات، فكان لزاما أن تكون اللغة العربية هي الوسيلة لتحقيق تلك الغاية، لكن الاستشراق فيما بعد وسعت دائرة الاهتمام فيه لتشمل كل الحضارات والديانات والمجتمعات الموجودة والتي كانت في الشرق، فالاستشراق انتقل عبر أربع دوائر أساسية:

أولا: محاولة الفهم بما كان عند المسلمين من علوم وأفكار، هذه المرحلة كانت منذ الاحتكاك الأول بين المسلمين والغرب في عدة مواقع أهمها احتكاكهم في الأندلس، فقد طال أمده وكان مجتمعا يحتك مع مجتمع وليس فردا مع مجتمع، هذا الفهم تجسد بالتقليد في الأكل واللباس والعادات كما نفعل نحن اليوم للأسف، لكن هم فيما سبق مع تقليدهم كانوا يحاولون الفهم بالتعلم وأخذ العلوم والمعارف، وكان عليهم لزاما تعلم اللغة العربية لأنها الوسيلة الوحيدة لتجسيد هذا الفهم.

ثانيا: التركيز على علوم الدين الفقه والتفسير وترجمات للقرآن الكريم، لأن فتح الأندلس كان منطلقه ديني وليس لسبب آخر، فكان التركيز على هذا الدين الذي دخل بينهم.

ثالثا: وسعت دائرة الاهتمام من معرفة وفهم الدين إلى استجلاء وأخذ من العلوم: الطب، الفلسفة، التاريخ، الرياضيات، الفلك، الكيمياء...، فقد كانوا في عصر الظلمات.

ولنعتبر من قصة إرسال هارون الرشيد الخليفة العباسي ساعة مائية دقاقة مع سفيره إسحاق إلى لملك فرنسا شارل آنذاك، فعندما رأوها تتحرك، فتراجعوا للخلف، وقالوا إن جنيا يسكنها وهو من يحركها، أو أنها مسحورة وحاولوا كسرها لينظروا ما في داخلها لولا أن الملك منعهم من ذلك، ويذكر التاريخ أيضا أنه كانت هناك بعثات علمية من أوربا ترد إلى البلاد الإسلامية من أجل نيل العلوم آنذاك،[12] فسبحان الله أين نحن من سلفنا، وأين هم من أسلافهم.

رابعا: وسعت دائرة اهتمام المستشرقين أكبر مما كانت عليه لتشمل كل العلوم والمعارف عند حضارات وديانات الشرق ومجتمعاته، الحضارة الإسلامية، الهندية، اليونانية، اليابانية، الصينية...

نشأة الاستشراق

تعددت الأقوال حول أول نشأة للاستشراق، فمنهم من يقول بأنها تعود للحروب الصليبية (ما بين 491هـ/644 هـ-1098م/1251م)، ومنهم من يقول بأن فكرة الاستشراق إلى غزوة مؤتة بين المسلمين والروم 8هـ/ 629م، وأقوال أخرى، ففي الحروب تحدث احتكاكات ومحاولات فهم الآخر من حيث التفكير ومعرفة الأحوال عند الخصم، فالحروب جانب مهم في احتكاك الحضارات ببعضها، لكنه لا يكتنف مفهوم الاستشراق، قد يكون بادرة ولكنها غير مؤسسة علميا من حيث الدراسات والاهتمام العلمي وتأسيس المعاهد المتخصصة، وتأليف الكتب وتحقيقها وإعداد البحوث، وعقد المؤتمرات كما هو الحال في مفهوم الاستشراق بالمعنى الحديث.

الاستشراق بدأ بشكل مؤسس بعد سنوات من دخول المسلمين إلى الأندلس إن لم يكن في أواخر قرون تواجد المسلمين بالأندلس فتواجد المسلمين بأرض الأندلس كان نحو سبعة قرون (92هـ-897هـ/711م-1492م) هذه الحقبة جعلت الاحتكاك بين مجتمعين وليس جيشين كما كان في الحروب الصليبية ومدة طويلة جدا ليت كمدة المعارك والحروب، وكانت هذه المدة في أمن وسلام وهو ما يحتاجه كل طرف لفهم الآخر وليس كما يكون الحال في الحروب، وبما أن المغلوب مولع بتقليد الغالب، كما يقول ابن خلدون: " المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه و نحلته و سائر أحواله و عوائده"[13]، فإن سكان الأندلس الأصليين سعوا لتقليد المسلمين واهتموا بما عندهم من دين، عقيدة، عادات وتقاليد، علوم، معارف وألبسة وأطعمة، فسعوا لنهل منها، فكانت بداية الاستشراق وأول ما عمدوا إليه هو تعلم اللغة العربية حتى تكون وسيلتهم لتحقيق أهدافهم السابقة.

وإن علمنا أن سكان الأندلس الأصليين سعوا لتثقيف أنفسهم فاحتكوا بالمسلمين ومدارسهم والراهب جربرت سلفتر الثاني الفرنسي هو أول من قصد تلك المدارس وعكف على دراسة الفقه الإسلامي وكان المستشرق ميخائيل سكوت رئيس مكتبة فريديك الثاني قد انتسب إلى مدرسة طيلطلة في القرن الحادي عشر ومن مدرسة اشبيلية تخرج الكثير ممن كانوا يدرسون الآثار الشرقية باللغة العربية من كل العلوم وكانت طليطلة انذاك مركز ترجمة للآثار الشرقية ونقلها للاتينية ابتداء من القرن الحادي عشر حين سقطت المدينة في يد الإسبان سنة 1085م وظهرت اول ترجمة للقران على يد

روبرت إنجلز حينما رعى الاسقف ريموند الأول في تأسيس أول مدرسة للترجمة في طليطلة عام 530هـ/1135م واستمرت في عملها إلى سنة 1482[14] وهناك قول آخر بأن أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللاتينية كان 1143 م، بتوجيه من بيتروس فينيرابيليس رئيس دير كلوني في إسبانيا[15]، ولكن لا نعلم الترجمة الأولى التي ذكرناها إلى أي لغة كانت.

ومن ذكر فإن دراسة الأوربيون في معاهد العلم عند المسلمين لم تكن أيام تواجد المسلمين في الأندلس، بل أبعد من ذلك، فهي تعود أيام العصر الذهبي للحضارة الإسلامية في السنوات أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد (ت 193هـ/809م) " فيذكر التاريخ أيضا أن في عصر الخلافة العباسية أيام هارون الرشيد بعثات علمية من أوربا ترد إلى البلاد الإسلامية من أجل نيل العلوم آنذاك"،[16]، ولا ندخل هذه البعثات ضمن الاستشراق لسبب بسيط وهو، أن هذه البعثات كانت قليلة العدد وكانت غايتها نيل العلم، في مجال الطب خاصة وغيره، فقد كانوا في ذلك العصر في عصر سموه هم عصر الظلمات، وهذه البعثات كانت أهدافها محددة في نيل بعض العلوم، والعودة إلى بلدانهم لخدمة مجتمعاتهم ومن ثم فهي بعيدة عن مفهوم الاستشراق.

وقد نشأ الاستشراق رسمياً بصدور قرار مجمع فينا الكنسي عام 1312 م بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون وسلامانكا [17]،

ومما يدلُّ على أنَّ هذه اللغات كانت تُعلَّم في كليَّة باريس براءةٌ للبابا يوحنَّا الثاني والعشرين تاريخها 1325م يختم فيها على قاصدهِ هناك بأن يراقب تدريس العربيَّة ولما أكتُشف فنّ الطباعة في أواسط القرن الخامس عشر كان كبير الأحبار يوليوس الثاني أوَّل من سبق إلى طبع كتاب عربيّ [...]، ووليَهُ أغوسطينوس جوستنياني أسقف نابيو من أعمال كورسكا الذي طبع كتاب الزبور في أربعة لغات منها العربيَّة سنة 1516م، وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر فتحت الرهبانية اليسوعية مدرسة للعبرانية وللعربية في رومية علَّم فيها الأب حنَّا إليانو الشهير وأنشأ مطبعةً طبع فيها بعض الكتب الدينية كان نقلها إلى العربية منها التعليم المسيحي[...][18].

هذا في جانب إنشاء كراسي لتدريس اللغات الشرقية، لكن من جانب إنشاء معاهد متخصصة تهتم بالحضارات الشرقية فيفتخر الفرنسيون في مجال الدراسات الشرقية بأنهم أول من أقر كرسيا للغة العربية والتركية والفارسية في الكوليج دو فرانس، وأول من أسس مدرسة وطنية لدراسة اللغات والحضارات الشرقية سنة 1795، وأول من دعا إلى إنشاء هذا المعهد هو لوي إنغكس حينما راسل الجمعية الفرنسية– البرلمان الفرنسي– سنة 1790م من أجل إقناعها بإنشاء معهد للغات والحضارات الشرقية مركزا على أهميته للمصالح الفرنسية الحيوية[19].

والجزائر أول بلد عربي استضاف مؤتمرا للمستشرقين في الجزائر العاصمة سنة 1905م أيام الغزو الفرنسي، وبرعاية منه، وحضره أمير الشعراء أحمد شوقي.[20]

مناهج المستشرقين وأهدافهم:

من الصعب أن نجمع المستشرقين كلهم في بوتقة واحدة ونزعم أن منهجهم كان واحداً في كل الأزمان والأوقات وفي كل الموضوعات التي تناولوها، ولكن تسهيلاً لهذا الأمر فيمكن إجمال هذه المناهج التي يشترك فيها عدد كبير من المستشرقين قديماً وحديثاً في تناول العلوم الإسلامية عموماً.

أولا: الاستنباط المعرفي والعلمي بما يخدمهم في جميع الميادين لغة وفلسفة وفكرا وقانونا، وعلم النفس والطب، ومن كل الحضارات الشرقية، تطبيقا لسنتنا الشريفة" **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**"[21]، فهذا المبدأ نحن أحق به من غيرنا، لأنه من سنتنا فكان علينا أن نبحث عم ينفعنا عند غيرنا، وليس ما يضرنا أو يتعارض مع ديننا وقيمنا ونأخذ به، ولكن للأسف نحن نبحث عن سفاسف الأمور فقط ونتبناها مع أنها تتعارض مع قيمنا وديننا، ومن الحقائق التي تبدو غريبة للبعض ولكنها حقيقة، وهي أن الجامعات الأمريكية وغيرها ومستشفياتها، رغم التطور العلمي والتكنولوجي، فإن صادفهم مشكل في الطب ولم يجدوا له حلا يعودون لكتب الطب الإسلامية القديمة ككتب ابن سينا والرازي والزهراوي وينظروا كيف عالجوا هذه المشاكل ويعودون بحلول ناجعة ومبهرة والأمثلة هنا كثيرة، كعلاج الجروح التي لا تلتئم، وعلاج عدم تخثر الدم بعد العمليات الجراحية، وتجمع الدم الفاسد تحت الجلد...، ليس في كل الحالات طبعا بل بعض الحالات التي لا ينفع معها العلاج الحديث، ولنعلم أكثر أن الكثير من الأدوية المستعملة والمستوردة من عندهم ما هي إلا وصفات من أطبائنا قديما لمرضاهم فمثلا دواء malox وهو دواء ينصح به لعلاج المعدة ما هو إلا استنساخ لما كان يصفه ابن سينا والرازي لمرضاهم، والأمثلة هنا كثيرة جدا.

ثانيا: دراسات علمية لمعرفة الشعوب الأخرى ومعرفة مواطن قوتها، وضعفها، لهجاتها، اتفاقاتها، اختلافاتها، معتقداتها، تركيباتها الاجتماعية والدينية والعرقية والجهوية وتستغل هذه المعلومات وقت الحاجة، خاصة لبث الفرقة والحروب الأهلية، من باب فرق تسد، أو تستعمل وقت حروبهم معنا أو غيرها لصرفنا عن ديننا، وهذه الأمور لا تتأتى إلا بدراسات وافية ومعمقة.

ثالثا: التشكيك في الديانات الأخرى والثقافات المتعددة للنيل منها، وهنا يستخدمون منهجين: منهج حيادي هكذا يقال فيحققون الكتب فيدسون فيها ما يدسون ويحذفون منها ما يحذفون تحريفا وبهتانا، باعتماد المنهج العلمي والموضوعية بالإيهام وليس حقيقة وأدلة دامغة وحجج يقوون بها أقولهم ولا يكتشفها ولا يقف عليها إلا خبير وقارئ حصيف، منهج مباشر بالطعن في الديانات والثقافات وتبيان الخلل والتعارض والتناقض فيها على حسب زعمهم لصرف الناس عن دينهم، خاصة نحن المسلمين فهم يعلمون أن مصدر قوتنا هو ديننا، ولا عز لنا إلا بالإسلام، فيزرعون التبشير المسيحي بكل الطرق والمناهج، ويشككون في عقيدتنا وديننا ورسولنا، بنشر الكتب والمجلات، وقالوا أن الدين الإسلامي منسوخ من ديانات سابقة وأن الرسول نظر في التوراة والإنجيل وأخذ منهما، وأن الدين الإسلامي دين استعباد وجهل وقتل، والقرآن متناقض...، فسبحان الله عم يفترون، ومن حيلهم الجديدة أنهم رأوا أن تأليف الكتب في هذا الجانب لم

يأتي أكله في التشكيك، فعمدوا إلى حيل أخرى وهي كثيرة، تجعل المسلم هو الذي يشك نذكر أروع ما ابتكروا في هذا الجانب: قالوا بأنهم توصلوا لعلاج كل مشاكل العقم وأكثر من ذلك تحديد جنس الجنين، وللوالدين أن يختاروا ذكرا شاؤوا أو بنتا، حتى يزعزعوا الإيمان في قلوب الناس لأننا نؤمن أن الله هو من يحدد الذكر والأنثى ويجعل من يشاء عقيما قال الله تعالى: " **لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير**" [22]، وهذه الأقوال العلمية لا أساس لها من الصحة بل هدفها الزعزعة للإيمان وزرع الشكوك، بل إن من صدق كذبتهم هذه يقع في شك، وهو ما يصبون إليه، ليس هذا فحسب فهم منذ القدم يريدوننا أن ننحرف عن تعاليم ديننا كما قلنا منذ زمن بعيد بنشر الخرافات والأساطير والبدع، وتحليل المحرمات وخلق انحرافات وترهات فيه، وخلق النعرات القبلية وبالعودة لنشر الرذائل والمفاسد، قال هنري دي كاستري (1850-1927)، وهو مقدم في الجيش الفرنسي أيام الغزو الفرنسي للجزائر: " إن أحدّ سلاح يستأصل به الشرقيون، وأمضى سيف يقتل به المسلمون هو الخمر، ولقد جربنا هذا السلاح على أهل الجزائر، فأبت شريعتهم الإسلامية أن يتجرعوه، فتضاعف نسلهم، ولو أنهم [...] شربوها لأصبحوا أذلاء لنا" [23]، وكفانا بهذا دليلا.

أوجز الدكتور محمود ماضي فأفاد حين جمع أهداف الاستشراف في ثلاث أهداف وهي:

- **هدف ديني**: غرضه التشكيك في العقيدة وصرف الناس عن دينهم، وزرع التخاذل، وزعزعة الإيمان.
- **هدف استعماري**: غرضه فهم التفكير والتطلع حتى يدار الغزو الاستعماري بشكل جيد فيتحكم في الأمور، وبث التفرقة وزرع فتيل الحروب الداخلية.
- **هدف علمي**: وهو العمل على الإفادة من كل علوم وأفكار الحضارات الشرقية للاستفادة منها[24]

ويبرز لنا هدفين مهمين في العصر الحديث، يمكن أن يكملا ما قاله الدكتور محمود ماضي، وهما:

- **هدف يخدم العولمة**: فالعولمة تهدف إلى جعل الثقافات الأخرى تتبنى الثقافة الغربية، هذا طبعا إلى جانب أمور أخرى من جوانب العولمة، فالاستشراق يهدف لتقويض الثقافات الشرقية وفي نفس الوقت زرع مظاهر ثقافية لهم، من مأكل وملبس وغناء ورقص...، وأظنهم قد نجحوا إلى حد ما للأسف
- **هدف تجاري اقتصادي**: وهو مهم لجلب الواردات وضمان الصادرات بما يتماشى مع مصالحهم على الجهتين لهم وعلينا، حتى يضمنوا نجاحا في التسويق، فيبحثون عم يريده المسلمون فيصنعونه ويسوقونه لهم، أو ما لا يريدونه فيعملون على نزع هذه الإرادة ومن ثم التصدير والتسويق، ومن بين المظاهر أصبحوا يسوقوا لنا عصائر ومشروبات مختلفة هي في الأصل حلال لكنها في قارورات تشبه قارورات الخمر، حتى نتقبل الفكرة شيئا فشيئا، أو يسوقون خمورا وينزعون منها الكحول، هذا إن نزعوا ويكتبون عليها خال من الكحول، وهذا مثال فقط.

أصناف المستشرقين:

عندما نريد تصنيف المستشرقين، فإننا نجد كما هائلا من البحوث تحشرهم جميعا في خانة المغضوب عليهم، بما معناه أن كلهم يأخذون من حضارات الشرق الأفكار والعلوم، ويكيلون الكيل للإسلام والمسلمين، مشككين، وطاعنين...، ومن

الباحثين من يجعلهم قسمين، أو صنفين: الأول كما قلنا سابقا مشكك متعصب...، والثاني منصف ومقر بشكل موضوعي، وإنني تمعنت في المستشرقين فوجدتهم على ثلاث أصناف، وهي:

- الصنف الأول محايد موضوعي، علمي، مقر
- الصنف الثاني آخذ غير مقر
- الصنف الثالث مشكك بشكل غير علمي وغير موضوعي

الصنف الأول محايد موضوعي، علمي، ومقر، يتعامل بشكل محايد أي غير متعصب، يتبع نهجا علميا موضوعيا، وفي الأخير يقر بالأفضلية لحضارات الشرق ونورها الساطع، ويقر بالفضل وسماحة الإسلام وفضل الشرق على الغرب، وما زخر من علوم، ويرد ما اكتشف من معارف وأفكار...، إن وجدها في حضارات الشرق إلى أهلها ويعزو إليها، بل إن منهم من دخل في الإسلام وحسن إسلامه، هنا ليس العبرة ببدايات المستشرق، فقد يبدأ متعصبا وينتهي مقرا ومحايدا وبشكل موضوعي.

ومن هذا الصنف نذكر كارل فلهلم سترستين Karl Vilhelm Zettersteén (1283هـ- 1372 هـ = 1866 م – 1953 م)، وهو مستشرق سويدي، ولد في أورسة Orsa بالسويد، وتخرّج " دكتوراً " في الفلسفة بجامعة أوپسالة سنة 1895 وعين فيها أستاذاً للغات السامية، وتولى تحرير مجلة " العالم الشرقي " وحضر عدة مؤتمرات للمستشرقين وقام برحلات متعددة، وزار مصر والشام وتونس أكثر من مرة، وترجم " القرآن " إلى اللغة السويدية سنة 1917، وصنّف بلغته كتاب " اللغات الشرقية " و " تاريخ حياة محمد " و " سياحة في شرق بلاد الفرس " ومن أهم ما حققه ونشره بالعربية " تهذيب اللغة " للأزهري، والجزآن الخامس والسادس من " طبقات ابن سعد " و " طرفة الأصحاب " للأشرف الرسولي، و " شمس العلوم " لنشوان الحميري، نشر منه جزأين وعهد إلى الأستاذ " س. ديدرينغ " بإتمامه، و حقق " تاريخ سلاطين مصر والشام " مؤلفه غير معروف، و " معارج الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية "، و" ألفية ابن مُعط الزواوي " في النحو، وكتب فصولا في " دائرة المعارف الإسلامية " وغير ذلك، وكان يمضي مقالاته أحياناً باسم " عبد الرحمن " وأحيانا أخرى بحروف اسمه الثلاثة K. V. Z.، وكان عضوا في المجمع العلمي العربي.

منهم كذلك واشنطن إيرفنغ وهو مستشرق أميركي أولى اهتماما كبيرا لتاريخ المسلمين في الأندلس، قال بعد دراسات طويلة:" كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه، حتى إذا ظهر المسيح عليه السلام اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حل القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولا وتفصيلا من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل، حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين، إذ أنه خاتم الكتب السماوية".[25]

أيضا كاري مولر مستشرق درس القرآن من عدة جوانب فألف كتابا باللغة الإنجليزية وسمه بـ "الظاهرة القرانية" ترجمه أورخان علي إلى العربية، وملخص ما ورد فيه أن القرآن معجزة خالدة وهو كلام الله، ولا يمكن أن يؤلفه البشر، وحفل

بحقائق علمية، وتشريع لا مثيل له في كل الديانات والحضارات،[26] أما الباحثة البولونية بوجينا غيانة ستيجفسكا، درست الإسلام في الأزهر، وكانت قد أنهت دراساتها العليا في كلية الحقوق، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا، وقالت عن القرآن: "إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل أمي نشأ في أمة أمية فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات، كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة"، الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون الذي يرى بأن:" القرآن قانون ديني وسياسي واجتماعي، وأحكامه نافذة منذ قرون كثيرة، والمسلمون إخوة يعبدون إلها واحدا، وشريعتهم واحدة "، المستشرق بارتلمي سانت هلر قال:" إن دعوة التوحيد التي حمل لواءها الإسلام، خلصت البشرية من وثنية القرون الأولى"،العالم الفرنسي موريس بوكاي قال:" لقد قمت بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث، فأدركت أنه لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث".

الصنف الثاني آخذ غير مقر، فهم يأخذون من أفكار وعلوم الحضارات الشرقية ما ينفعهم عاجلا أم آجلا كما أشرنا سابقا، في كل العلوم ولكل الأهداف، بشكل علمي لكنهم بأخذهم لهذه المعلومات لا يشككون ولا يقرون بأنهم أخذوا من الحضارات الشرقية أو لا يردون الفضل إليها، فهم يشبهون كمن يحتاج إلى أمر يفتش عنه، فيجده فيأخذه وكفى، لا يستأذن صاحبه ولا يقول بأنه أخذه من فلان...، وإن كان لا بد من إيراد أمثله هنا فالأسماء كثيرة، ومنها الجامعات ومراكز البحث المتنوعة، كالطب مثلا كما أشرنا آنفا، وخير مثال هنا، ما قلناه على تشومسكي وكيف أخذ نظرية العامل من النحو العربي وصرفها إلى نفسه، ووظفها في اللسانيات، ولم يقر بأنه أخذها من النحو العربي حتى أقر على يد الدكتور مازن الواعر رحمه الله بعد سنوات عدة، وهم هنا كثر فلا يعلم أمرهم لأنهم لا يقرون بذلك ولا يشيرون إلى مصادر معارفهم بأنها من مجلوبة من حضارات الشرق، والأمر هنا لا بد لنا من تمحيص وتدقيق ومقارنة لكشف ما أخذوا من حضارات الشرق وصرفوه لأنفسهم وحضاراتهم.

الصنف الثالث: الصنف الثالث مشكك في العقيدة والدين بشكل غير علمي وغير موضوعي، ومتعصب، لضرب الديانات وزعزعة الإيمان...، وهم لا يشككون في الدين فقط بل حتى في النسب والمجتمعات وأفكارها... فهم طائفة من العلماء ركزوا هدفهم على النيل من الديانات الأخرى خاصة الإسلام، فدرسوا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكرسوا حياتهم للنيل من هذا وذاك وما كان لهم ولن يكون لهم، وكيدهم في نحرهم، هدفهم كما قلنا زعزعة الإيمان وصرف الناس عن دينهم، لأنهم يعلمون أن الإسلام وتعاليمه هو قوة المسلمين فلا حياة لهم من غير هذا الدين، قال عمر بن الخطاب:" نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً"[27]، ما معناه إن تخلينا عن الإسلام أذلنا الله بعد عزة لنا صرفها لنا في الإسلام، فالمستشرقون في الصنف الثالث يعملون على إذلالنا في صرفنا عن ديننا بشكوكهم، وخزعبلات، وطعن، وعبثا يحاولون، قال الله تعالى:" **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون**" [28]، فهؤلاء المستشرقين كالخفافيش الفرق بينهم أن الخفافيش من عادتها أن تظهر في الظلام، ولكن خفافيش

الصنف الثالث من المستشرقين تظهر في النور، وتوهم نفسها أنها في الظلام كما تحاول أن توهم الآخرين بذلك، ولكن هيهات، وعبثا يحاولون.

ومن هذا الصنف نورد ذكر بعضهم منهم المستشرق اليهودي برنارد لويس عمل مدرسا في معهد الدراسات الشرقية في لندن سنة 1946 من بين ما قال:" أن الدين الإسلامي دين استعباد"، المستشرق الأمريكي مكسيم رودنسون ألف كتاب "حياة محمد" ذكر فيه أمورا مشبوهة عن الرسول وألقاه على شكل محاضرات على طلبته في الجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة 1997-1998 وقال فيه:" أن القصص القرآني مستنبط من الديانات السابقة" المستشرق جولد تزيهر في كتابه" دراسات إسلامية" قال ما قال فيه طعنا في الدين والعقيدة، وخاض حتى في علم الحديث وسنده ومتنه وعلله...، مرجليوت غني عن التعريف ألف سنة 1925 كتابا زعم فيه أن القران صدى من الشعر الجاهلي وأن الرسول عاش على النهب والسلب والحرب، المستشرق وليام موير في كتابه " حياة محمد" زعم فيه أن الرسول أخذ تعاليم الدين الإسلامي من التوراة والإنجيل، وغيرهم كثر.

وسائل الاستشراق:

كل الوسائل مسموح بها عند المستشرقين، الكتب تأليفا وتحقيقا، المجلات العلمية المتخصصة بالاستشراق باللغة العربية أو بلغات أخرى لشرح ما توصل إليه لغير الناطقين باللغة العربية أي توصيل الأفكار إلى بني جلدتهم، وإلى المستشرقين الآخرين غير المتحكمين في اللغة العربية وما أكثرهم، مثلما فعل شيخ المستشرقين الفرنسيين أنطوان إسحاق سيلفستر دوساكي (1758-1838) الذي تتلمذ عليه جمع غفير من المستشرقين، فألف كتابا في النحو العربي بعنوان " النحو العربي واستعماله من طرف معهد اللغات الشرقية"، فقد كان مدرسا في معهد اللغات الشرقية ثم مديرا له. [29]

من وسائل الاستشراق تنظيم مؤتمرات وملتقيات لتبادل المعلومات والأفكار وتوزيع المهام لتسهيل البحث وحصره، تأسيس معاهد متخصصة تعنى بالحضارات الشرقية، وإنشاء أقسام في جامعاتهم خاصة الجامعة الأمريكية التي لها فروع في دول الشرق الأوسط.

وتتطور وسائلهم مع التطور التكنولوجي، فقد وظفوا الإنترنيت والكثير من المواقع الإلكترونية، ووظفوا الكثير من الإذاعات منها إذاعة مونتي كارلو، إذاعة لندن، وقنوات تلفزيونية ناطقة باللغة العربية ترعاها الدول الأوربية من أجل متابعة للأوضاع وتمرير بعض الرسائل لحاجة في أنفسهم مثل قناة bbc بالعربية، France 24 الناطقة باللغة العربية روسيا اليوم، وقد تكون هناك قنوات أخرى لا نعلم توجهها لاعتمادهم التمويه والتضليل في انتسابها.

يمكن حصر وسائل الاستشراق في ما يلي:

- الكتب والأبحاث والمجلات (تحقيق الكتب، تأليف كتب لشرح ما توصلوا إليه، مجلات متخصصة في الاستشراق، تأليف كتب لتعلم اللغات الشرقية...)
- الوسائل السمعية البصرية والإنترنيت (قنوات تلفزيونية، إذاعية، مواقع إنترنيت متخصصة...)

- المؤتمرات العلمية حول الاستشراق (لتبادل الخبرات، وشرح ما توصل إليه، وتوزيع المهام حتى لا تتكرر الأعمال...)
- إنشاء معاهد تعنى بحضارات الشرق، فكرا ولغة وحضارة...[*]

وإن كان حصر وسائل الاستشراق أمر صعب لكثرتها لكن ما ذكرنا هو أبرزها، والأبرز منها هو الكتب والأبحاث المتخصصة، لأن كل وسيلة من الوسائل السابقة تعتمد عليها

كما أننا رأينا أن جزءا من الاستشراق وليس كله يهدف لنشر التفرقة والترهات والأباطيل والأساطير والحرص على وقوع المسلمين في المحظورات كالخمر وغيره، والرقص والغناء حتى يزيغ المسلم عن دينه الذي هو عزه وبه يتقدم، فأباحوا لأنفسهم كل الطرق حتى يصلوا إلى هذه الغاية، وهي نزع الدين الإسلامي من قلوب المسلمين، بهذه الأمور وبالتشكيك في الإسلام وعقيدة المسلم والتنصير والتبشير الديني، فوظفوا حتى الجانب العلمي الطبي كما رأينا سابقا في مسألة اختراع أدوية وأجهزة لتحديد جنس المولود، فالحذر الحذر في هذا الوقت أكثر من أي وقت مضى.

الهوامش

أ.د. السيد محمد الشاهد، الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، نشرة الاجتهاد، عدد 22، شتاء عام 1414هـ/1994م، ص197 ، نقلا عن الأستاذ الدكتور مازن المطبقاني، مدير مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، في مقاله " الاستشراق والمستشرقون".

1 – د. فاروق عمر، الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى)، دار الآلية للنشر، عمان، الأردن، ص30

2– د. عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1995، ص 13

3 – إدوارد سعيد، الاستشراق (المعرفة . السلطة . الإنشاء)، ص 37

4 – ينظر: د. عبد الحميد مدكور، نظرات في حركة الاستشراق، دار الثقافة العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1990، ص ص: 11-12

5 – ينظر، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، ط1، 2007، ج2، ص 274، وسمعت منه أيضا هذا الكلام على هامش المؤتمر الوطني حول تعليم اللغات في الجزائر ووسائل ترقيته، أيام 02-04 نوفمبر 2009 بالمعهد العالي للتسيير والتخطيط بالجزائر.

6 – مهدت أفكار 1 – ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح، ج2، ص 25

*دي سوسير المتجلية في اللسانيات البنوية فيما بعد لظهور عدة مدارس فكرية لسانية أهمها:

- المدرسة الوظيفية (fonctionnelle) مع رومان ياكبسون (1896-1982)، وأندري ومارتيني (و 1908)
- المدرسة النسقية (glossématique) مع يامسليف (1899- 1965)
- المدرسة التوزيعية (distributionnelle) مع بلومفيلد (1887- 1949)
- المدرسة التوليدية (générative) مع نعوم تشومسكي (و 1928)
- المدرسة التحويلية (transformationnelle)مع ز.س. هاريس (و 1909)

7 – ينظر، مبادئ اللسانيات البنوية – دراسة تحليلية إبستمولوجية– د. الطيب دبة، منشورات جمعية الأدب للأساتذة الباحثين، الجزائر، ط1، 2001، ص 54

– ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح، ج2، ص

8– ينظر: المرجع نفسه، ص 272، الهامش 72112

9 – ينظر:المرجع نفسه، ج2، ص 275-276

10 – ينظر، صلاح النّبراوي، هارون الرّشيد الخليفة المفترى عليه، دار البشير للثّقافة و العلوم، طنطا، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص 294.

11 – ابن خلدون، المقدمة، الفصل الثالث والعشرين، ص 63،.

12 – أنور الجندي، آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب ص 15-16 وكذلك خير الدين هني الرد على شبهات المستشرقين، مطبعة ع. بن، ط1، 2005، ص 25-26

13 – د. إسماعيل عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، دار حزين، عمّان،ط2، 1992، ص ص: 25 - 26.

14 – ينظر، صلاح النّبراوي، هارون الرّشيد الخليفة المفترى عليه، دار البشير للثّقافة و العلوم، طنطا، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص 294.

15 – ينظر، سعيد إدوارد، الاستشراق، (المعرفة . السلطة . الإنشاء)، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص 80.

16 – لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، 25

17 – ينظر، سعدي بزيان، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم – قراءة في الفكر الاستشراقي ومصادره–، جريدة البصائر، أسبوعية لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد 537، الإثنين 25 ربيع الأول- 1 ربيع الثاني 1432 هـ/ 28 فيفري -6 مارس 2011م، ص 7

18 – ينظر، سعدي بزيان، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم – قراءة في الفكر الاستشراقي ومصادره–، ص 7

19 – الحديث رواه الإمام الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم: 2611، ورواه الإمام ابن ماجة، كتاب الزهد، باب الحكمة، رقم: 4159

20- سورة الشورى، الآيتان: 49-50

1 – محب الدين الخطيب، الحديقة (مجموع أدب بارع وحكمة بليغة)، المكتبة السلفية، القاهرة، ودار العاصمة، الرياض، ط1، 2011، مج 2، ج 6، ص 634.

21 – د. محمود ماضي، الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط1، 1416هـ / 1996م، ص 19

22 – جريدة الخبر اليومي، الجزائر، العدد 6340، الجمعة 25 جمادى الأولى 1432 هـ الموافق لـ 29 أفريل 2011، ص 18.

23- ينظر، كاري مولر، الظاهرة القرآنية، ترجمة أورخان علي، دار الكلمة، المنصورة، القاهرة، مصر، ط1، 2004.

24 – ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص55

25 – سورة الصف، الآية 8

26- ينظر، سعدي بزيان، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم – قراءة في الفكر الاستشراقي ومصادره، ص7

* – وقد أجاد وأفاد الأستاذ الدكتور مازن المطبقاني في كشف وسائلهم، فهو صاحب باع في مجال الاستشراق، ولمن أراد التوسع في وسائلهم عليه الرجوع لموقع مركز المدينة للدراسات والبحوث في الاستشراق على شبكة الإنترنيت، لصاحبه الأستاذ الدكتور مازن المطبقاني.

الحوار والإعلام

أ. د. أحمد حلواني

بسم الله الرحمن الرحيم

أود أولاً بعد تحية عطرة أنقلها لكم من دمشق الشام حيث الأهل أهلكم والديار منفتحة على كل محبي العدل والتعاون والأخوّة الإنسانية. أن تسمحوا لي في البداية بتوجيه تحية إلى هذه المدينة العريقة في الجزائر المناضلة وهي تحتضن احتفالية الثقافة الإسلامية تعبيراً عن الفكر الإسلامي والعربي كله، وبالتالي عن أبناء الأمة المتطلعين دائماً نحو إخوّة إنسانية تبني حضارة عالمية تنتفي فيها عوامل البغضاء والكراهية والعنف المؤدي إلى الحروب والتشرد والدمار والاحتلال. حضارة إنسانية تبني ولا تهدم تحمي ولا تهدد وتنشر فيها أواصر المحبة والعدل والتعاون والمساواة.

فالشكر موصول لمن أسس وعمل ورعى في احتفالية الثقافة الإسلامية لأن الثقافة عماد من أعمدة البناء الحضاري للشعوب، ولأن الحوارَ حاجةٌ أساسية لإقامة جسور التفاهم بين الأمم والشعوب وهو من أهم انشغالات العالم اليوم في إعادة أنسنة الإنسان بإعادة قراءة التاريخ الفكري المسكوت عنه فالحوار يُنتج مقاربات لمفاهيم معمّقة تستطيع رفع اللُبس عن الجوانب المختلف فيها.

تلمسان في احتفاليتها وأنشطتها المميزة تعمل لتهيئة الأجواء الملائمة لإجراء هذا الحوار وإيجاد الشروط الكفيلة بتوجيهه الوجهة الصحيحة وفق قاعدة الاحترام المتبادل للأفكار في إطار من الموضوعية والجدية وصولاً إلى اقتناع مشترك يعزّز الجهود الإنسانية لتقوية أسباب السلم والعدل وتدعيم دواعي الأمن في مفهومه الحضاري العميق والشامل.

ودعوتنا وحضورنا ومشاركتنا في إطار هذه الاحتفالية هي من إيمانٍ بما ذكرت وتأكيدٍ وأنا في هذه المقدمة لا أعيد وأكرر كما قال الشاعر:

مـــــا ترانـــــا نقـــــول إلا معـــــ

أو معـــــاراً مـــــن قولنـــــا مكـــــ

إنما أريد من قولي إذا كان فيه إعادة التأكيدَ على المعنى والاستمرار في الإيمان به، وفتحُ جميع المجالات التي تساهم في ترسيخه والعملِ وفق أهدافه فالعالم المعاصر بأفكاره التنويرية أو ما يسميه البعض بالحداثوية في توجهاته المفتوحة يحتاج أكثر من أي وقت مضى للاستفادة من هذا المناخ الفكري لنشر مبادئ الحوار المعتمد على قبول التعددية من منطلق إنساني يوحّد الجهود من أجل عالم متآخ متفاهم متعاون في إطار حياة على كرة أرضية صغيرة في فضاء كوني كبير هي خيارنا ومجالنا الوحيد للحياة التي نرجوها كريمةً للجميع.

وحين أتحدث بهذه المعاني وأنا المسلم الشامي العربي فإنما انطلق من ثقة بالنفس لا تتزعزع ومن تراث عميق وغزير أفتخر به ومن مبادئ أعتنقها مستمدة من تاريخ حضاري كبير وقابلية لتطور مع فكر حضاري عالمي تحتاجه البشرية وتفاخر به كإحدى إنجازات النهضة والتنوير والدور الكبير في حمل رسالة للإنسانية جمعاء بالرغم مما تواجهه أمتنا العربية والإسلامية من مظالم واحتلال وفقر ومنع من تحقيق طموحاتنا وآمالنا.

إن ما أعرب عنه ينطلق من إيمان راسخ لشعب أمتنا ولاسيما أبناء جيله الناشئ كما تثبت الانتفاضات الثورية، فهم يبحثون عن دور رائد لأمتهم يعتزون به ويمارسونه لإشادة عالم جديد مليء بمبادئ العدل والمساواة والتفاهم والتعاون والإخاء والتبادل التفاعلي والتطور الديمقراطي.

وما يحدث الآن في أقطار واقعنا من ثورات يقودها الشباب ما هي إلا تباشير المنطلقات لمستقبل واعد على الطريق المنشود إشادته وفق المبادئ التي ذكرت, والله المستعان.

وقبل تقديم بحثي المقرر عن الحوار أود أن أقدم بـ:

لقد استمعت باهتمام شديد إلى الأبحاث والمداخلات التي ألقيت البارحة سواء في الجلسات الصباحية أو في ورشات العمل التي تمت بعد الظهر والتي أشكر المنظمين لهذا الملتقى على إدراجها وتوزيعها وفق تخصصات الملتقى ولقد خلصت مع الأساتذة الباحثين والمشاركين إلى أن الاستشراق بدأ لخدمة أهداف استخبارية غربية، تمهيداً لمعرفة كل تفاصيل الحياة العربية والإسلامية بقصد إحكام البلدان المستعمرة وسهولة الإطباق عليها، وتدمير بنيتها التكوينية، وتنفيذ مخططات استعمارها وقد توزع عن هذا الحقل الاستشراقي فروع وتخصصات كبيرة نشر الكثير من دراساتها، فمنها ما اتسع استخدامه ومنها ما اقتصر على ميادين محددة.

وطبيعي أن أي معرفة أو استخلاص معرفي يصبح بعد نشره ملكاً عاماً، يمكن الاستفادة منه، وهو حال نتائج دراسات الاستشراق وعلومه، والتي انفتحت بعدها فروع لعلوم أكاديمية استشراقية أصبح جزءاً كبيراً منها مستقلاً في أقسام أكاديمية، أو على أيدي مستشرقين متنورين مستقلين.

وملاحظة ثانية أود أيضاً أن أضعها أمام ملتقاكم الهام تتركز حول هذا الاهتمام الغربي الكبير والمتعاظم بدراسة آثار ولغات وتاريخ عصر ما قبل الإسلام في وطننا العربي وعالمنا الإسلامي وهو أمر يجب أن يثير تساؤلاتنا أمام الميزانيات الكبيرة التي توضع له والإعانات التي تقدم للمنظمات المحلية التي تتجاوب مع هذا الاهتمام وهو أمر يثير الكثير من الريبة في محاولات إبراز تلك الآثار واستعادة اللغات المحلية القديمة وإثارة شرائح معينة من مجتمعاتنا للاهتمام بتلك اللغات القديمة والحديث بها واستخدامها بديلاً للغة العربية. والأمثلة معروفة وقد لا يكون هناك من موجب لتعدادها خاصة وأن الهدف ليس إبراز الثقافات المحلية التراثية لشعب المنطقة بقدر قصد تفتيت تكوين الأمة العربية الإسلامية ثقافياً ولغوياً وهو ما يجب دراسته وتحليله وكشفه أمام جماهير الأمة كلها.

في الحوار ووسائل الإعلام

يتناول الناس كافة التأثر والتأثير بطرق شتى أبرزها التفاهم والإقناع والنموذج الحسن، وأهم سبيل لهذا التأثر التأثير هو الحوار الذي يستند إلى مفهوم فلسفي أهم عناصره التواصل حيث فسّره سقراط بأنه السبيل لتوليد العقول وبلوغ الحقائق كما استخدمه أفلاطون لعرض أفكاره وقناعاته في حوار تمثيلي أسماه الجدل، أما أرسطو فرأى أن الحوار يستلزم متخاطبين يوصل جدلُهما إلى تأمل مشترك مثمر في موضوع خاضع للمناقشة والفحص.

وقد اغتنت الثقافة العربية بمفهوم الحوار وتشكلت في التراث الثقافي العربي أجناسٌ من الحوار غزيرة أمدت الثقافة العربية بكثير من الإسهامات والنظريات، نستطيع أن نجد نماذج عنها مما حكاه أبو حيان التوحيدي في ((الامتاع والمؤانسة)) وفي ((المقابسات)).

وإذا كانت الثقافة العربية قد أعطت لمفهوم الحوار أبعاده الثقافية والحضارية في أوج الحضارة العربية الإسلامية، وافترضت في معناه الخروج من أحادية الصوت الوحيد إلى رحابة الأصوات المتعددة[74] فإن الكثير من مثقفي اليوم يحاولون إعطاء الغرب وحضارته المعاصرة خاصّية التعامل مع مفهوم الحوار ببعديه الثقافي والحضاري مع التركيز على المفهوم السياسي.

لذلك نُسبت فلسفة الحوار بالمعنى الاصطلاحي، إلى المفكر الإنمائي ((مارتن بوبر)) مؤلف كتاب ((أنا . أنت)) الذي ألفه بالألمانية عام 1938. والذي هدف فيه للوصول إلى علاقات حسنة بين الأمم وايديولوجيتها المختلفة عن طريق المفاوضة والعقود والاتفاقيات الموثقة والموثوقة بأطرافها المختلفة.

وقد كثرت في العقود السابقة الدعوات إلى ترسيخ الحوار أساساً لحياة الإنسانية في ظل الاحترام المتبادل والاعتراف بالآخر والتفاعل الحضاري المشترك والتبادل الفكري والسياسي بقصد الوصول إلى قواسم مشتركة ترسّخ مفهوم الديمقراطية على صعيد الأمم والحضارات كما هي على صعيد كل شعب ودولة. وقد رفع الفيلسوف الفرنسي جارودي مفهوم حوار الحضارات في الوقت الذي رفع فيه صموئيل هانتغتون مفهوم صراع أو صدام الحضارات.

وفي المقابل تبنّى الرئيس محمد خاتمي الدعوة إلى حوار الحضارات مستنداً إلى قوله: ((إن الهدف من حوار الحضارات هو بلوغ الحرية والأمن والعدالة والرقي الروحي، أو ما يسمى بالتعبير الدارج الرقي الأخلاقي))[75].

كما رفعت شعارات وكتبت دراسات تدعو إلى الحوار بدل المواجهة على الصعيد العربي[76].

وصدرت كتب ودراسات تضمنت أدبيات الحوار الحضاري ومفاهيمه وفوائده على العالم[77].

([74]). انظر مقدمة د. سليمان العسكري لكتاب العربي . حوارات العربي . كتاب العربي 83 . يناير 2011م . ص6 . الكويت.

([75]). انظر كتاب محاضرات في حوار الحضارات . المستشارية الإيرانية بدمشق 2001م ص10– 19– 20.

([76]). انظر كتاب حوار لا مواجهة . مجموعة مقالات . د. أحمد كمال أبو المجد . كتاب العربي، العدد السابع 1985 . الكويت.

([77]). من هذه الكتب والدراسات حوار الشمال والجنوب . أسسه ونتائجه . إشراف د. جورج قرم . معهد الإنماء العربي . بيروت 1977م.

إن السند الفكري لقواعد القانون الدولي ومنظمات المجتمع المدني هو العدل والحق والمساواة بين الناس في جميع الحقوق والواجبات وهذا السند هو أصل ثابت من أصول الإسلام الذي يدعو إلى إقامة الموازين بالعدل والقسط بين الناس أجمعين.

فإذا استند الحوار إلى هذه القاعدة القانونية التي تحكم العلاقات الدولية وهدف الحوار إلى تقوية المفاهيم والمعاني التي ذكرتها جاء الحوار خيراً للإنسانية وعملاً صالحاً ينفع الناس ويمكث في الأرض ويعمّرها.

اسمحوا لي بعد هذه المقدمة عن الحوار أن أنتقل إلى الموضوع الأساسي ألا وهو دور الإعلام ووسائل الاتصال في مجال حوار الثقافات بحكم الشفافية والعالمية (محل العولمة) وقبول الآخر بآرائه المنطلقة من فكره المتأثر ببيئته وظروفه بالمفهوم الديمقراطي الإنساني العالمي.

ومع انتشار وسائل الإعلام والاتصال بتطورها السريع وتأثيراتها الكبيرة من خلال سهولة انتشارها وجاذبيتها واختلاف الشرائح المستقبلة لها من حيث سوية تعلمها وثقافتها وانتماءاتها والبيئات المحيطة بها والمؤثرة فإن الدراسات الإعلامية في مجال ترسيخ مفاهيم الحوار أو التسامح وقبول الآخر والتنشئة الفكرية بشكل عام هي إحدى أهمّ مجالات الدراسات الإنسانية في هذا العصر، وهي دراسات تحتاج إلى بحوث ميدانية وتطبيقية مستندة إلى ثقافة معرفية واسعة وتخصصات تربوية ونفسية معمقة.

وهنا أريد أن أبدأ بفكرة عن مقوّمات الإعلامي وهي مقومات لابد من توفرها عند كل راغب أو متجه للعمل في هذا الميدان تماماً كما توفر الاختصاص الطبي في الطبيب أو الكيميائي في المحلل المخبري أو الهندسي في الهندسة إلخ...

وأقصد أن الإعلامي هو ليس القادر على الإنشاء والصياغة التعبيرية فذلك منشئ أو كاتب إنما الإعلامي هو المتخصص في موضوع يهم المجتمع ويمتلك في الوقت نفسه المؤهلات الاتصالية والفنية لإعداد موضوعه.

ومن هنا فقد أكدتُ أكثر من مرة على أهمية أن تكون الدراسات الإعلامية مفتوحة لما بعد الإجازة الجامعية الأولى وفق مفهوم دبلومات التخصص والتأهيل الإعلامي لجميع الاختصاصات الجامعية بحيث يكون المجال مفتوحاً لتأهيل إعلاميين اقتصاديين وعلميين وقانونيين وزراعيين إلخ.... بعد فحص قبول أو مباريات انتساب توضع شروطها بدقة وعلمية.

. الحوار من أجل التعايش . د. عبد العزيز بن عثمان التويجري . 1977م.
. الحوار القومي الديني . مركز الدراسات . الوحدة العربية . مجموعة أبحاث . بيروت 1989.
. العرب بين الحوار الثقافي والانعزال . د. أحمد ثابت الدار الوطنية الجديدة . دمشق 2004م.
. مسارات وخبرات في حوار الحضارات . تحرير د. نادية مصطفى . القاهرة . 2004م.
. الحوار السياسي في الوطن العربي . د. أحمد حلواني
. مجلة الباحث الاجتماعي . جامعة قسطنطينة . الجزائر العدد الخامس 2004م.
. حوارات العربي . كتاب العربي 83 . يناير . 2011. الكويت . تقديم، د. سليمان العسكري.

مواصفات الإعلامي المتخصص:

ويؤكد هذا التوجه تشارلز براون Charles Brown: "إن اختيار العاملين في حقل الإعلام يجب أن يتم على أسس سليمة، كما يجب أن لا يخوضوا هذا المجال إلا بعد اجتيازهم عدة اختبارات عملية وعلمية وشخصية، كما أنه لابد أن تمضي عليهم فترة اختبار للتحقق من صلاحيتهم لهذا العمل الخطر"[78].

وإذا كان الإعلامي (القائم بالاتصال) يتوقف عليه نجاح الخطة الإعلامية أو فشلها، فإن المؤسسات المعنية من صحف ومجلات ومحطات إذاعة وتلفزة تدقق بدراسة معمقة قبل أن تسلم أجهزتها الإعلامية لعناصر تنقصها الخبرة والعلم والمرونة وسعة الأفق والملكة الفطرية والثقافة الواسعة والسيطرة على التكنولوجيا المعاصرة حرصاً على مكانتها والمحافظة على جمهورها والاستزادة.

وعلى الرغم من أهمية مناهج الدراسة في المعاهد والمؤسسات الإعلامية التأهيلية فلابد أن تتضمن برامج علمية وعملية للحوار الإعلامي بصفة عامة، وينعكس هذا بدوره على البرامج والفقرات والموضوعات التي تقدم في الإعلام المرئي والمسموع أو الصحف، بحيث يلبي احتياجات المتلقي العقلية أو الوجدانية أو النفسية، وطموحاته العلمية والثقافية وتعددية توجهاته.

مضمون الرسالة الإعلامية:

تعمد بعض الوسائل الإعلامية إلى التركيز على المناسك الإسلامية وشعائر العبادات دون إدماجها بأمور الحياة العامة وحاجيات الإنسان المسلم الحياتية والمعرفية وهو أمر لابد من ملاحظته في مضامين الرسائل الإعلامية من منطلق أن مسائل العبادات وشعائرها هي وسيلة غايتها صحة البدن والعقل والمعاملة الاجتماعية والإنسانية أي صحة التكوين المجتمعي.

بحكم أن الرسالة الإعلامية وفق الرؤية الإسلامية:

هي رسالة شاملة تتناول قضايا الإنسان المختلفة وذلك انطلاقاً من النظرة الشمولية للرسالة الإسلامية التي جاءت شاملة لكل ما يهم الإنسان المسلم، ويأتي ذلك مصداقاً لقوله تعالى: **(ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)** [سورة النحل. آية 89].

وهي رسالة تقوم على الكلمة الطيبة، والحكمة البالغة؛ فلا تسيء لأحد، ولا تحمل معاني العنف أو العدوانية، أو النميمة أو الغيبة. ضمن وضوح في اللفظ، وبساطة في العرض، بعيداً عن التعقيد، كي تنسجم مع مستوى تفكير الشرائح العمرية المتلقية، كما أنها تحترم عقل المتلقي، وتمنحه مساحة من الحرية الخلاقة منعاً للجمود العقلي والتحجر الفكري

([78])- Brown Charles: Informing the people: New York. Pennsylvania State University, 1957, p, 22.

والتعصب الذي يظنه البعض جزءاً من التركيبة الفكرية للإعلام الديني، أو هكذا يريدونه في حين أن الحرية الخلاقة ستفتح مجالاً واسعاً للسعة الإيمانية والعمق والمشاعر الإنسانية.

والمهم هنا هو إكساب المتلقي المعايير الصحيحة أثناء عملية التنشئة الاجتماعية، كالحلال والحرام، وأن تجيب على تساؤلاته الكثيرة التي تزوّده بمعلومات يبحث عن إجابات عنها على أن يتم ذلك بذكاء وحنكة فتغذي عقله وتروي ظمأه[79]. وتساعده في المساهمة بالبناء الاجتماعي وفق دور واسع ومنفتح.

وإذا كانت هذه المكونات بحاجة إلى تفصيل وتفريد في جوانبها العلمية والفنية فقد يكون المجال غير مهيأ لهذه التفصيلات. بحيث تدخل في مهمة الفنيين بعد إعدادها وصياغتها العلمية وأقصد جوانب الإخراج والتصوير والتمثيل والأداء وفق طبيعة الوسيلة الإعلامية.

لكنني لابد أن أزيد وأؤكد أهمية عدم إنكار معتقدات أصحاب الأديان والايديولوجيات الأخرى أو التركيز على مخاصمتهم أو مخالفتهم اعتماداً على عدم الإنكار وفق الآية الكريمة **(ولو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعاً)**

مكانة اللغة في الإعلام:

تتحمل اللغة المشتركة دوراً بارزاً في حياة الجماهير لأنها السبيل لفهم الأشياء المحيطة بهم، والطريق لربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض[80].

واللغة العربية يجب أن تأخذ مكان الصدارة في اهتمامات وسائل الإعلام العربية، فهذه الوسائل تتحمل المسؤولية الأوفى في الارتقاء بالمستوى اللغوي وصولاً إلى الإبداع الأدبي بدل الهبوط وتدني الأسلوب وركاكة الصياغة بقربها من العامية الفقيرة.

فالثقافة الإسلامية في صميمها ثقافة عربية بلسان من استقبلوا دعوتها وحكموا بشريعتها، وتوجهوا نحوها للتعليم والتقرب فأبدعوا فيها وتوسعوا بعلومها وترجموا إليها ومنها فتجلت فيها آيات الإبداع.

فإذا كانت وسائل الإعلام معنية بإبراز المفاهيم والقيم الإسلامية في توجهها إلى المتلقين، فعليها أن تقرّب إليهم لغة القرآن الذي لا يمكن تذوقه واكتشاف كنوزه إلا من خلال العربية، وفي ذلك يقول الله تعالى: **(كتابٌ فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون)** [سورة فصلت . آية 3].

إن الحوار المقترح الآن مع الثقافة الغربية لابد أن يتسم بالثقة بالنفس، فنحن أمة لها مقوماتها وثقافتها وإنجازاتها وتطلعات أبنائها في رسالة للإنسانية كلها. لقد حققنا استقلالنا وأثبتنا قدرة أمتنا عندما تكون متضامنة كما أثبتت الأحداث على الفعل الاقتصادي والسياسي.

([79]). حامد عبد السلام زهران: "علم نفس النمو"، ط4. القاهرة . عالم الكتب، 1982، ص263.

([80]). عبد العزيز شرف: "اللغة الإعلامية" . القاهرة . المركز الثقافي الجامعي، 1980، ص14.

ثقتنا يجب أن لا يداخلها الضعف أو الخوف لأنها ثقة مستمدة من أرضية تاريخية ومقومات حقيقية حاضرة وظاهرة يحتاج العالم إليها ولا يستطيع الاستغناء عنها وهو ما يفتح مجالاً كبيراً لدراسته بشكل علمي وتحليله ومناقشته والاستفادة منه.

لقد عشنا مرحلة خوف من كل فكرة غربية تمسنا أو تخص عقيدتنا بحكم الدراسات الاستشراقية الأولى والاستعمار الظالم الذي حكمنا لكننا وبعد أن انتصرنا على الاستعمار وبعد أن دخلنا عصر النهضة بقدرات ثقافية نخبوية كبيرة نتيجة التفاعل الإيجابي عبر كوكبة من النهضويين العرب والمثقفين المتنورين الذين ساهموا في الترجمة والتعليم والتعريف بالتطور العلمي الذي شهده التاريخ الأوروبي والعالمي الحديث والمعاصر فرسخوا وعياً نقدياً عقلانياً حقق مؤثرات ثقافية في المجتمع العربي كبيراً فتشكل جيل جديد من النهضويين استوعبوا ما هو إيجابي في التراث الغربي والإنساني مع تملك المنهج العلمي النقدي على طريق تطوير فكر نهضوي عربي عميق وشامل ساهم في تفكيك المشكلات التي يعاني منها المجتمع وبين سبل الارتقاء الاجتماعي.

الأمر الذي حرر الفكر العربي من الثنائيات التي شكلت إشكالية كبيرة مع بدايات عصر النهضة بين الحداثة والتقليد والدين والعلمانية والإيمان والإلحاد، والتقدم والتخلف، والاستبداد والعدل والديمقراطية.

كما شكلت تجاوزاً للمقولات الاستشراقية التي شوّهت صورة العرب أمام الغرب من جهة وأمام العرب أنفسهم.

لقد جرى نقاش مستفيض استناداً إلى فكر النهضة الذي أشرنا إليه في إشكالية التمسك بالإيجابي من تراثنا الذي يعبّر عن ذاتنا وعن خصوصية ثقافتنا العربية الإسلامية. وبالتالي فقد وضعنا مقولة حفاظنا على تراثنا وأصالتنا في موقع الانفتاح على الثقافات الكونية المعاصرة بدل التعارض معها. كل ذلك وكل أشكال هذا الحوار الثقافي الواقع والمأمول بين العرب والغرب سيساهم في تعميق الوعي العقلاني بالتراث الإنساني كله.

تقول الأكاديمية السعودية بصيرة الداوود في مقال لها في الحياة بعنوان (أبجديات التسامح الديني) [81]. "يرى الكثير من المثقفين السعوديين أن إدماج أو إدخال مادة تعليمية حوارية ضمن مواد التربية والتعليم ورياض الأطفال هو أمر ضروري وصحيح".

إن "معنى الحوار هو أن تكتشف ذاتك قبل كل شيء ثم تكتشف غيرك وتحترمه كما هو وكما يريد أن يكون، أي بوجود اختلافات بينك وبينه في الوقت نفسه الذي تجمع بينكما قيمٌ مشتركة تمكّن من التبادل والتفاهم مع بعضكما البعض".

يرى ميشيل لولونغ أن عصر الحروب الدينية انتهى، ولكن عصر الحقد والاحتقار سيستمر ما دامت كل جماعة تنظر إلى الأخرى لا كما هي وكما تريد أن تكون وكما تشعر بوجودها وإنما من خلال صورة مشوهة.

([81]). صحيفة الحياة العدد 17342 تاريخ 27/ 9/ 2010م الموفق 18 شوال 1431هـ.

والإعلام إلى جانب التربية والتعليم يستطيع أن يفتح المجال للوصول إلى صورة صحيحة لواقع الاختلافات والتعددية من منطلق منطقي عقلي وظروف موضوعية وأهداف مجتمعية سليمة هي هدف الأديان والمصلحين والمتنورين والأكاديميين بحيث تتماشى مع متطلبات وتطورات الحياة المعاصرة.

إننا نريد حواراً بعيداً عن الابتذال واستخدام بعض الألفاظ والكلمات الهابطة التي تتردد عبر بعض المسلسلات والبرامج في وسائل الإعلام، وعدم التقيّد بالأصول والقواعد اللغوية مما فسيؤدي إلى تأثر المتلقين بما يسمعون ويشاهدون، وبالتالي إلى شيوع الكلمات والمصطلحات غير اللائقة بينهم[82]، أو النفور من أصحاب هذا الإعلام ومبادئهم ومعتقداتهم.

إن الحوار بالمقومات والشروط والثقافة الواسعة التي بيناها وبالثقة بالنفس والتعمق بالموضوع المشروح وبسعة الصدر المستند إلى إيمان بالحرية الفكرية والاعتراف بأحقية الاختلاف هو الطريق المأمول وهو ما أعتقد أنه يحتاج إلى اهتمام علمي خاص وأنتم تدرسون الإسلام والاستشراق وقد يكون أبناء المغرب العربي الذين ربحوا اللغة الفرنسية أو اغتنموها (كما تصطلحون) هم المؤهلون لتحمل هذه المسؤولية وهو موضوع مطروح لإعادة الدراسة من جديد وأنتم أهل له.

([82]). محي الدين عبد الحليم، وحسن الفقي: "العربية في الإعلام" . القاهرة . دار الشعب، 1988، ص38.

الحواشي:

(1). انظر كتاب محاضرات في حوار الحضارات . المستشارية الإيرانية بدمشق 2001م ص10- 19- 20.

(2). انظر كتاب حوار لا مواجهة . مجموعة مقالات . د. أحمد كمال أبو المجد .كتاب العربي، العدد السابع 1985 . الكويت.

(3). من هذه الكتب والدراسات حوار الشمال والجنوب . أسسه ونتائجه . إشراف د. جورج قرم . معهد الإنماء العربي . بيروت 1977م.

. الحوار من أجل التعايش . د. عبد العزيز بن عثمان التويجري . 1977م.

. الحوار القومي الديني . مركز الدراسات . الوحدة العربية . مجموعة أبحاث . بيروت 1989.

. العرب بين الحوار الثقافي والانعزال . د. أحمد ثابت الدار الوطنية الجديدة . دمشق 2004م.

. مسارات وخبرات في حوار الحضارات . تحرير د. فادية مصطفى . القاهرة . 2004م.

. الحوار السياسي في الوطن العربي . د. أحمد حلواني

. مجلة الباحث الاجتماعي . جامعة قسطنطينة . الجزائر العدد الخامس 2004م.

(4)- Brown Charles: Informing the people: New York. Pennsylvania State University, 1957, p, 22.

(5). حساسية الكتابة القصصية للطفل . عبد الباقي يوسف . مجلة المعرفة العدد 565 . 2010م دمشق ص151.

(6). حامد عبد السلام زهران: "علم نفس النمو"، ط4. القاهرة . عالم الكتب، 1982، ص263.

(7). انظر د. محي الدين عبد الحليم . الرؤية الإسلامية لإعلام الطفل . مجلة الإسلام اليوم . العدد 13 . 1995م . الرباط . ص49.

(8). المرجع السابق.

(9)- Macluhan, Marchal: The Medium id the Message. Second Ed. Benguin Books. P. 28.

(10)- Gib, AR. Hamiton: Studies on Cirilization of Islam. R. Pouik Routed and kegan. 1962.

(11). عبد التواب يوسف: "الإعلام الإسلامي وزرع القيم في نفوس الأطفال" ـ القاهرة ـ مؤسسة إقرأ الخيرية ـ 1992، ص10.

(12). محي الدين عبد الحليم: "الدعوة الإسلامية والإعلام الدولي". القاهرة ـ دار الفكر العربي ـ 1989، ص40.

(13). ارنولد توماس: "الدعوة إلى الإسلام" ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ـ القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية، 1971، ص254.

(14). حسن إبراهيم حسن: "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي"، ط4، ج1، مكتبة النهضة المصرية، ص216.

(15). عبد العزيز شرف: "اللغة الإعلامية" ـ القاهرة ـ المركز الثقافي الجامعي، 1980، ص14.

(16). محي الدين عبد الحليم، وحسن الفقي: "العربية في الإعلام" ـ القاهرة ـ دار الشعب، 1988، ص38.

(17). صحيفة الحياة العدد 17342 تاريخ 27/ 9/ 2010م الموفق 18 شوال 1431هـ.

المصادر والمراجع:

1. الإعلام الإسلامي وزرع القيم في نفوس الأطفال ـ عبد التواب يوسف ـ القاهرة ـ مؤسسة إقرأ الخيرية ـ 1992.
2. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ـ حسن إبراهيم ـ حسن:، ط4، ج1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
3. حساسية الكتابة القصصية للطفل ـ عبد الباقي يوسف ـ مجلة المعرفة العدد 565 ـ 2010م دمشق.
4. الحوار السياسي في الوطن العربي ـ د. أحمد حلواني:
   ـ مجلة الباحث الاجتماعي ـ جامعة قسطنطينة ـ الجزائر العدد الخامس 2004م.
5. حوار الشمال والجنوب ـ أسسه ونتائجه ـ إشراف د. جورج قرم ـ معهد الإنماء العربي ـ بيروت 1977م.
6. الحوار القومي الديني ـ مركز الدراسات ـ الوحدة العربية ـ مجموعة أبحاث ـ بيروت 1989.
7. حوار لا مواجهة ـ مجموعة مقالات ـ د. أحمد كمال أبو المجد ـ كتاب العربي، العدد السابع 1985 ـ الكويت.
8. الحوار من أجل التعايش ـ د. عبد العزيز بن عثمان التويجري ـ 1977م.
9. الدعوة الإسلامية والإعلام الدولي ـ محي الدين عبد الحليم ـ القاهرة ـ دار الفكر العربي ـ 1989.
10. الدعوة إلى الإسلام ـ ارنولد توماس ـ ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ـ القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية، 1971.
11. الرؤية الإسلامية لإعلام الطفل ـ د. محي الدين عبد الحليم ـ مجلة الإسلام اليوم ـ العدد 13 ـ 1995م ـ الرباط ـ
12. صحيفة الحياة العدد 17342 تاريخ 27/ 9/ 2010م الموفق 18 شوال 1431هـ.

13. العرب بين الحوار الثقافي والانعزال . د. أحمد ثابت الدار الوطنية الجديدة . دمشق 2004م.
14. العربية في الإعلام . محي الدين عبد الحليم، وحسن الفقي . القاهرة . دار الشعب، 1988.
15. علم نفس النمو . حامد عبد السلام زهران . ط4. القاهرة . عالم الكتب، 1982.
16. كتاب محاضرات في حوار الحضارات . المستشارية الإيرانية بدمشق 2001م.
17. اللغة الإعلامية . د. عبد العزيز شرف . القاهرة . المركز الثقافي الجامعي، 1980.
18. مسارات وخبرات في حوار الحضارات . تحرير د. فادية مصطفى . القاهرة . 2004م.

المراجع الأجنبية:

1. Gib, AR. Hamiton: Studies on Cirilization of Islam. R. Pouik Routed and kegan. 1962.
2. Macluhan, Marchal: The Medium id the Message. Second Ed. Benguin Books.
3. Brown Charles: Informing the people: New York. Pennsylvania State University, 1957.

دليل التشاخص أو التذايث
بين الفخر الرازي والمستشرق ألنداز(Arnaldez).
– مقاربة تأويلية –

الدكتور:مختار لزعر

جامعة عبد الحميد بن باديس"مستغانم" الجزائر

غالبا عندما يرد سياق التقاطع بين الغرب والعرب يندهش أهل الاختصاص المشتغلين على واقع التراث اللغوي العربي من تبني مثل هذه الحقيقة المعرفية،بحكم أنّه كيف يعقل أن يحدث هذا التقاطع بين أفقين معرفين مختلفين من جهة المنبع والتصور؛وهو اعتقاد نراه ليس من الحق في شيء؛إذ كيف نجد مثل هؤلاء المهتمين بواقع التراث العربي ينادون بصلاحيته في كل زمان ومكان وهم لا يؤمنون بمبدأ الانفتاح مع الآخر–الغرب–الذي يحقق الشرعية المعرفية والمنهجية لحرمة التراث العربي القائم على واقع الوحي القرآني.

تقتضي طبيعة التصور الذي يتماشى مع صيرورة حركية الوجود المطلق أن يكون متعدد الأبعاد،وهو بذلك كله يفارق ما كان مبنيا على مبدأ أحادية المعنى؛ذلك أنّ تصور مفهوم التأويلية بالنسبة للعقل البشري يقوم أساسا على أنّه قادر على أن يحكي ابتداء من الله،حكاية الوجود والواجب،حكايته«...عن ذلك الحق الذي هو الأول،ووجوده هو الأول،وتجد الفطرة الإنسانية تعرفه ولا تجهله،وهو ممدّ الوجود كلّه بقوته،وإليه تختصم العقول لأنه على كل شيء شهيد،فهو مطلوبنا من حيث هو شهيد على مشهود؛ فإذا وجدناه قائما به حق المشهود سكنت النفس،واستراح إليه الضمير»[83].

إنّ الذات الإنسانية بمفهومها المطلق عندما نجد الذات القدسية تتحدث عنها سواء في واقع الكتاب المقدس(العهد القديم/العهد الجديد)،أم في النص القرآني بشكل خاص؛ فإنما تتحدث عنها باعتبارها كائنة حية مدعوة لأن تحيا ضمن المنظور الأوسع لمفهوم المطلق للذات القدسية؛على أساس أنّها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالرؤية، وصاحب الرعاية المطلقة عندما يقترح عليها هذه الرؤية؛فإنما يقترحها عليها لكي تنمّي مسئوليتها المنوطة بها وذلك في علاقتها مع المطلق،وهذا من شأنه أن يكون سببا في إلغاء كثير من التبعية العمياء المتداولة والسائدة بالنسبة للعلاقات الإنسانية في ما بينها.

[83]– ابن البناء الماركشي: مراسيم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الحقيقة. مخطوطة بالخزانة العامة. رقم: 2378. ص:85.نقلا عن محمد مفتاح:المفاهيم معالم؛نحو تأويل واقعي.ط1999،1.المركز الثقافي العربي.الدار البيضاء. ص:61.

هي علاقة إطلاقية قائمة بين الذات القدسية والذات الإنسانية منذ أن جعل الرب عزّ وجل الحقيقة المطلقة عالما وسطيا تحاول من خلاله الذات المغايرة أن تطل عن طريقه عن المعنى الوجودي والمعرفي الذي خلقت من أجله.لكن ليث شعري–والحل كذلك–ما المنبع الذي يقوم عليه كل من الخطاب القرآني والذات المتلقية لتحقيق عملية تواصلية بين مبدأي:التقييد والإطلاق؟ما المقصود بدليل «التشاخص»أو«التذايث»في حق كل من الله(المطلق)والذات المتلقية(المقيد)؟هل دليل التشاخص في واقع تراثنا العربي الزاخر استطاع إلى حد بعيد أن يعطي له تحديدا يتماشى ومقصدية تلكم الغاية التي خلقت من أجلها الذات الإنسانية؛الأمر الذي يجعل من هذا التحديد يؤتي أكله عند ذلكم الأفق الاستشراقي الذي راح هو الآخر يتوقف عند مفهوم التشاخص أو التذايث منهجا وإجراءا؟ ثم هل هناك تقاطع معرفي بين ما أشار إليه الفخر الرازي وأرنلداز(**Arnaldez**)في شأن مفهوم التذايث أو التشاخص أو التمايز ؛الأمر الذي يحقق من هذا التقاطع المعرفي أفقا حواريا ينم عن ذلكم الاقتراب الكائن في ذاتية البشر على اختلاف نحلهم ومذاهبهم؟.....

الحقيقة التي لا مرية فيها أنّ القدامى على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والفلسفية عند تناولهم لدليل التشاخص أو التذايث المجسّد من قبل كتابات متعددة رأوا بأنّ مثل هذه الكتابات"النصوص"تنم عن حقيقة ثلاثية لا يمكن بحال من الأحوال أن يبتعد الواحد منها عن الآخر؛وهي:الكتابة"النص"،والقراءة"الذات المتلقية"،والتأويل"المؤوّل على اختلاف درجة الاستيعاب والإدراك"؛الأمر الذي أهّل من القدامى بعامة والفخر الرازي على وجه أخص أن يتعاملوا مع دليل التشاخص تعاملا وجوديا معرفيا محاولين إدراك تلكم الأبعاد التخريجية/التأويلية التي تربط واقع القراءة بالتأويل في ظل عالم الكتابة. وتفاديا للإطالة التي هي ليست من سمة المقالات العلمية الموضوعية سنحدد حديثنا عن دليل التشاخص أو التذايث عند الفخر الرازي كيف حدّده،وكيف ربطه بتلكم التأويلات القائمة على مبدأ الجانب المعرفي في حق مفهوم التذايث أو التشاخص.

لقد أشار الفخر الرازي في كتابه"أساس التقديس"إلى أنّ الخطاب القرآني معروض في غالبية سياقاته الداخلية والخارجية،للجانب التأويلي أو لعملية الفهم القائمة بين العقل وتلكم القرائن(الدليل)التي تحقق عملية تأويلية تتماشى ومقصدية الخطاب القرآني؛تماما ما بيّنه الطبري بصريح العبارة،بأنّه«...غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحدا من خلقه بما لا يفهمه عنه المخاطب،ولا يرسل إليهم أحد منهم رسولا برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل إليه»([84]).

ثم إنّ الحديث عن واقع الفهم الوجودي المعرفي القائم في عالم الذات الإنسانية منذ الأزل،جعل من الفخر الرازي يعتقد بأنّ مفهومي:المبهم واللامفهوم يعدان بحقّ دافعين للجانب الإيماني القائم على نية التسليم والانقياد.يقول الزركشي في هذا المقام ما نصه: «قال الإمام الرازي:وقد أنكر المتكلمون وجود المبهم في القرآن وقالوا لا يجوز أن يرد في كتاب الله ما لا يفهمه الخلق؛لأنّ الله تعالى أمر بتدبره،والاستنباط منه،وذلك لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه،ولأنّه كما جاز التعبد

[84]– الطبري(محمد بن جرير):تفسير الطبري،,بهامشه تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين النيسابوري. دار الفكر بيروت., 1978. 5.

بما لا يعقل معناه في الأفعال فلِم لا يجوز في الأقوال بأن يأمرنا الله تعالى تارة بأن نتكلم بما نقف على معناه،وتارة بما لا نقف على معناه،ويكون القصد منه إظهار الانقياد والتسليم»([85]).

إنّها بكل بساطة تلكم الحقائق المعرفية التي يقيمها الفخر الرازي بين الذات الإنسانية والذات القدسية على نية الاقتراب القائم على مبدأ التجلي الإلهي الذي جعله الخالق سبحانه وتعالى للذات المتلقية طريقا لاقتحام عالم المعرفة من بابها الواسع.

من هذا المنطلق غدا الفخر الرازي يتوقف عند مفهوم"**الشخص**"القائم بين الذات الإنسانية والذات القدسية،محققا ضابطا وسطيا بين ما يمكن تسميته بـ:الدليل الشخصي أو التذايثي؛الأمر الذي جعله يحدد من معناه ومن الإطار المعرفي الذي يرد فيه وهو يقتحم سر المعرفة الوجودية.يعرّف الفخر الرازي"الشخص" أو التشاخص أو "التذايث" بقوله:«اعلم أنّه لا يمكن أن يكون المراد من الشخص الجسم الذي له تشخص وحجمية، بل المراد منه الذات المخصوصة والحقيقة المعينة في نفسها تعينا باعتباره يمتاز عن غيره»([86]).

إنّه دليل التشاخص أو التذايث الذي لا يقرّ بمبدأ"الوحدة"الصوفية،وهو تحديد يستطيع أن يحل المشكل إلى حدّ بعيد لتلكم العلاقة بين المخلوق والخالق على نية التجلي النهائي القائم على مبدأ"الحوار"،في ظل واقع الكتابة"النص"العاكس لحقيقة التجلي ليس بمفهومها الصوفي/الباطني،وإنّما على نية الاقتراب من التحلي بعالم الإطلاق ليس إلا.

ومما يلفت التنبه في شأن مفهوم"الشخص"أو"التذايث"القائم بين الذات القدسية والذات الإنسانية،أننا نجد الفخر الرازي يجعل فارقا أساسيا بين الإنية كتذايث والإنية كقوة فطرية/بشرية تصب في عمق حركية الوجود المطلق؛الأمر الذي يجعله يخرّج الإنية التصوفية تخريجا يتماشى ومقصدية مبدأ الحوار القائم بين المطلق(الله تعالى) والمقيد(الذات المتلقية)،وهو بهذه التخريجة يكون قد خالف المعتقد الصوفي في التشاخص الإني الفطري المبثوث في ذاتية البشر منذ الأزل.يقول في هذا السياق ما نصّه:«اعلم أنّ هذه اللفظة تستعملها الفلاسفة كثيرا،وشرحه بحسب أصل اللغة أنّ لفظة"إنّ"في لغة العرب تفيد التأكيد والقوة في الوجود،ولما كان الحقّ سبحانه وتعالى واجب الوجود لذاته،وكان واجب الوجود أكمل الموجودات في تأكد الوجود وفي قوة الوجود،لا جرم أطلقت الفلاسفة بهذا التأويل لفظ الإنية عليه»([87]).

[85]– الزركشي: البرهان في علوم القرآن.دار المعرفة بيروت. 1972م. 178/1.

[86]– الفخر الرازي. مفاتيح الغيب. 129/1.

[87]– الفخر الرازي. مفاتيح الغيب. المصدر نفسه.. 126/1.

ولكون الفخر الرازي يقرّ ضمنيا بهذه الحقيقة الإنية الكائنة بين الخطاب القرآني وواقع المتلقي،نجده يلتجئ في سياق آخر إلى تبيان البعد المعرفي/الوجودي لدليل التشاخص القائم على مفهوم ضمير الشخص الإلهي مع الشخص الإنساني.يقول ما بيانُه:«اعلم أنّ الأسماء المضمرة ثلاثة:أنا وأنت وهو،وأعرف الأقسام الثلاثة قولنا: أنا،لأنّ هذا الضمير يشير به كل أحد إلى نفسه وأعرف المعارف عند كل أحد نفسه، وأوسط هذه الأقسام قولنا،أنت،لأنّ هذا خطاب للغير بشرط كونه حاضرا،فلأجل كونه خطابا للغير يكون قولنا أنا ولأجل أنّ الشرط فيه كون ذلك المخاطب حاضرا يكون أعلى من قوله،هو،فثبت أنّ أعلى الأقسام هو قولنا:أنا، وأوسطها أنت،وأدناها هو،وكلمة التوحيد وردت بكل واحدة من هذه الألفاظ»([88]).من هذا المنطلق «...يكون الخطاب ذا ثلاث مستويات من الوجود:التذايث وفيه معرفة الذات بالاقتراب الداخلي،والتغاير وفيه توسط بالغيرية وشرط الحضور،ثم الغياب وهو الغيرية مع شرط الغياب»([89]).

ولعل أكبر مشهد وجودي/معرفي راح يجسّد لنا مفهوم الشخص الإلهي/الإنساني القائم على نية"الحوار"هو قوله تعالى{وإذا سألك عبادي عني فإنّي قريب}([90])؛حيث«إنّ معرفة هذه الذات لا تتم إلا من جهة الشخص الإنساني الذي يشير ويحيل في خطاب الذكر والتوبة والصلاة...والشخص الإلهي يشير ويحيل إلى وجوده في خطاب الإجابة والرحمة والاقتراب»([91]).

يشير الفخر الرازي في تفسيره للآية السالفة الذكر ما بيانُه:« ...ولم يقل فقل إنّي قريب؛فدل على تعظيم حال الدعاء من وجوه.الأول: كأنّه سبحانه وتعالى يقول عبدي أنت إنّما تحتاج إلى الواسطة في غير وقت الدعاء ،أما في مقام الدعاء؛فلا واسطة بيني وبينك. الثاني:أنّ قوله{وإذا سألك عبادي عني}يدل على أنّ العبد له،وقوله{فإنّي قريب } يدل على أنّ الربّ للعبد.وثالثها: لم يقل:فالعبد منّي قريب،بل قال:أنا منه قريب،وفيه سرّ نفيس؛فإنّ العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو في مركز العدم وحضيض الفناء،فلا يمكنه القرب من الربّ.أما الحق سبحانه وتعالى؛فهو القادر من أن يقرب بفضله وبرحمته من العبد، والقرب من الحق إلى العبد،لا من العبد إلا الحق فلهذا قال {فإنّي قريب}.والرابع:أنّ الدّاعي ما دام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى؛فإنّه لا يكون داعيا له ،فإذا فني عن الكل صار مستغرقا في معرفة

بل أبعد من ذلك أننا نجد ألنداز(**Arnaldez**)يشير إلى أنّ الفخر الرازي يعتقد اعتقادا جازما بأنّ الإله عنده هو إله شخصي الذي لا يستطيع أن ينسلخ عن واقع الضمائر التي تعد بحق من مفاتيح الغيب. ينظر:

Arnaldez, (Roger),"Aspects de la pesée musulmane",édit:librairie philosophique ,J. Vrin, Paris,1987. p : 193

[88]– الفخر الرازي: مفاتيح الغيب. المصدر السابق. 145/1.

[89]– مخطوطة الماجستير.للطال عمارة الناصر تحت عنوان: اللغة التأويل لدى الفخر الرازي. قراءة هيرمنيوطيقا في تفسيره مفاتيح الغيب. تحت إشراف الزاوي الحسين. 2003/2002. جامعة وهران.. ص:163.

[90]– من سورة البقرة الآية 186.

[91]– مخطوطة الماجستير. المرجع السابق. ص:163-164.

الأحد الحق،فامتنع من أن يبقى في هذا المقام ملاحظا لحقه وطالبا لنصيبه ،فلما ارتفعت الوسائط بالكلية،فلا جرم حصل القرب؛فإنّه ما دام يبقى العبد ملتفتا إلى غرض نفسه لم يكن قريبا من الله تعالى،لأنّ ذلك الغرض يحجبه عن الله تعالى فثبت أنّ الدعاء يفيد القرب من الله ،فكان الدعاء أفضل العبادات»([92]).

لكن هلا فهمت ذاتية ألنداز(**Arnaldez**) هذا الاتجاه القائم على مبدأ الحوار الديني المتين،أم أنّها غدت تنظر إلى هذا المبدأ بخلفية معرفية تربّت في أحضانها،ومن ثم لا تستطيع الانسلاخ عنها بحال؟.بل أبعد من ذلك ما هي نظرة هذه الذات الأخيرة إلى الإله هل في علاقته بمفهوم الشخص أو التشاخص أم هو حقيقة أخرى؟.

لقد بيّن الباحث أرنلداز(**Arnaldez. R**) من خلال بحث أقامه على واقع الضمائر موسوما بـ:"الأنا الإلهي والأنا الإنساني من خلال المدونة القرآنية لفخر الدين الرازي "، قائلا بأنّه "...بالنسبة لكثير من المفكرين أن فعل الكلام الإلهي الموجه إلى الإنسان، هو العلامة التي يمكن أن توجِد علاقة شخصية بين الخالق ومخلوقه، حيث ال"أنا"و "أنت" متقابلين ومتحاورين"[93]. وهذا ما يمنح النص القرآني بنية حوارية "فوق لغوية"، ففي تفسيره للآية (واذكر ربك في نفسك) يرى الرازي أن "المراد بذكر الله في نفسه كونه عارفا بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه مستحضرا لصفات الكمال والعز والعلو والجلال والعظمة (...) ألا ترى أن الفقهاء أجمعوا على أن الرجل إذا قال: بعت واشتريت مع أنه لا يعرف معاني هذه الألفاظ ولا يفهم منها شيئا فإنه لا ينعقد البيع والشراء فكذا ههنا "[94]، فالتوسل باللغة للفهم لم يعد ممكنا إلا بالاستعانة ببنية تشاخصية لطرفي الحوار بين العبد والإله، أي حضورا لشخص الإجابة وهو ما يقدمه خطاب الذكر، "ففي خطابات الذكر نجد حضورا لله إلى الإنسان وللإنسان إلى الله "([95]).

لقد لاحظ ألنداز(**Arnaldez**) أنّ«الإله الذي يتحدث عنه الرازي هو إله شخصي ليس إلا»([96]).بل أبعد من ذلك نجد الرجل يعود إلى الآية التي سقيانا آنفا{وإذا سألك عبادي عني فإني قريب}والتي راح الفخر الرازي يجسّد في ضوئها معالم مبدأ الحوار القائم بين الشخص الإلهي والشخص الإنساني؛فيرى«أنّ العلاقة التي تدشنها(التوبة)بين الله والإنسان، هي علاقة حرة لكلا الطرفين مما يعني أنّها علاقة شخصية،ثم(...)إنّ المراسلة بين الفعل الإلهي والفعل الإنساني،أولت بشكل مختلف فالذكر الإلهي رحمة والذكر الإنساني طاعة»([97])،وهو بهذا يعتقد أنّ الفكر الإسلامي لم يتوقف بحق لمفهوم الشخص اللهم إلا من خلال تلكم التجارب والمفاهيم التي لها علاقة بالتصوف أو العرفان.

---

[92] – الفخر الرازي. التفسير الكبير. 5/98-99.

[93] Arnaldez (Roger),"Aspects de la pensée musulmane",édit: librairie philosophique ,J , Vrin,Paris,1987,P 185.

نقلا عن مخطوطة الماجستير. المرجع السابق.

[94] الرازي،م، غ،(د،ت، ع)، م8، ج15، ص 106.

[95] – ينظر مخطوطة الماجستير. المرجع السابق.

[96] – نفسه.

[97] – نفسه.164

ويرى ألنداز(**Arnaldez**)أنّ في خطابات الذكر يتمحور أساسها في الغالب الأعم على حضور الخالق إلى الإنسان وحضور الإنسان إلى الله مبررا قوله هذا بما راح يقدّمه الفخر الرازي بنفسه تقديما فلسفيا في ذلكم السؤال القائم بين الله تعالى والإنسان {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب}ومن ثم فالمعنى ظاهر جلي من قوله "عني" التي «...تدل على أنّهم طلبوا معلومة هي نقطة انطلاق في الأنا،يعني أنّ السؤال حول ماهية الله،ليس الماهية المجردة،لكن الوجود المعين لهذه الماهية،والذي يساوي الشخص»([98]).

من هذا المنطلق فإنّ «فعل الاقتراب الإلهي هو حضور غير خطابي للذات،وهنا تخرج العلاقة الشخصية عن الإطار اللغوي بما هو احتكام إلى الدلالة المتعادلة في جهة الخطاب،لتتأسس في اقتراب كثيف للكينونة»([99]).

إنّه الحضور الربّاني في الديانتين:الإنجيل والقرآن والذي ينم عن أفق تلكم الحقيقة المطلقة القائمة بين الذات القدسية وعالم الذات الإنسانية في ظل واقع الكتابة التي لا تؤمن بمبدأ التقييد وإنّما الإطلاق في اللفظ والمعنى.غير أنّنا نلفي انتباها إلى ورود الحوار بين الذات القدسية والذات الإنسانية في القرآن الكريم ظل محافظا على حدوديته المرتسمة من قبل السر الوجودي الفطري الذي لا تستطيع الذات الإنسانية الانسلاخ عنه بحال من الأحوال،خلافا لذلكم الحوار القائم في واقع النص الإنجيلي الذي ظل منذ أن كتبته تلكم الأيادي المختفية حينا والمعلنة فيما بعد تجعل من ذاتية المسيح مشاركا في المطلق بكل نواميسه الداخلية والخارجية.بعبارة أخرى خلافا للتصور المسيحي للمفهمة التاريخية للمطلق،حيث التاريخ ممثل في شخص المسيح يحيل إلى المطلق دون أن يكون للمطلق إحالة إلى ذاته كحقيقة ترتبط بفعل تحققها في التاريخ.

إنّه دليل التشاخص أو التذايث القائم بين واقعين اثنين:المطلق"الله سبحانه وتعالى" والمقيّد" الإنسان"محاولا أن يجعل من أفق الذات المتلقية أن تتعامل مع المكتوب"النص" معاملة لا تتوقف عند مبدأ الحدود وإنّما تجاوز ذلك لتصل إلى اللامحدود،وإنّها لعمري مقاربة تأويلية/سيميائية تجعل من إجراء الدليل يجد متنفسّه الوجودي والمعرفي في ظل تلكم القرائن التي تجعل من دليل التشاخص أو التذايث يحقق شرعية معرفية تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها.

[98]- مخطوطة رسالة الماجستير. المرجع السابق. ص:165

[99]- مخطوطة رسالة الماجستير. المرجع نفسه. ص:166وما بعدها

تاريخ الأندلس في مرآة الاستشراق الإسباني
بين العلمية والضدية (الموضوعية والنرجسية)

الأستاذ الدكتور خالد اليعبودي

جامعة محمد بن عبد الله

فاس– المغرب

ارتبطت صورة الأندلسي المسلم في المتخيل الذهني للمستشرقين الإسبان بألفاظ وعبارات قدحية، من قبيل: "التعصب"، "الفساد"، "الفظاظة"، "الجمود"، "انعدام العقلانية"، "العنف الدموي الأعمى"، "الطبائع الهمجية"، وذلك منذ ثمانية قرون مع الإرهاصات الأولى للخطاب الاستشراقي التي أعقبت شكوى القديس "ألفارو" القرطبي. وقد انتشرت هذه الأوصاف القدحية في العصر الراهن انتشار النار في الهشيم في وسائل إعلام "العالم الحرّ" التي تهيمن عليه الإمبريالية، واستثمرت هذه الترسانة من الأحكام المجحفة من قبل القوى الاستعمارية وزعماء الحركة الصهيونية لنهب ثروات العرب المسلمين، ولاقتطاع أجزاء مقدسة من أراضيهم.

والواقع أن حضور التراث الأندلسي في كتابات المستشرقين الإسبان حضور متعدد الأوجه (أحيانا داخل المتن الواحد)، وإن جرت العادة بتقسيم المستشرقين إلى زمر وجماعات منهم المتعصّبون، ومنهم المعتدلون؛ فمعاينة فلذات أفكارهم المبثوثة بدراساتهم ورحلاتهم تبرهن على حتمية الإيديولوجي في الخطاب الاستشراقي الإسباني، فكل مستشرق كتب عن الأندلس المسلمة، ملزم ضرورة باتخاذ موقف إزاء الحضارة الأندلسية، وبتحديد طبيعة النبرة التي يستند إليها في معالجة تركة هذا القطر الأندلسي الفكرية والعمرانية.. وقلما استقلت الدوافع العلمية البحتة عن بقية الدوافع التبشيرية والاستعمارية في تولّد النتاجات الاستشراقية.

وسنقوم في هذه المداخلة بتشريح متون روّاد الاستشراق الإسباني[100] بهدف تفكيك الصورة التي شكّلوها عن التراث العربي بالأندلس، ورصد مميزات خطاباتهم، بالوقوف على المصطلحات الأكثر تداولا في أعمالهم، كمصطلح "المورو" (**Moro**)، وما تفرّع عنه من تسميات مثل "الموريسكو" (**Morisco**)، و"سراسينو" (**Sarracino**)، و"المدجّن" (**Mudejar**)، واستكناه حمولاتها الدلالية المتخمة بالأحكام القيمية.

– فما هي أهمّ المحطات الرئيسة للخطاب الاستشراق الإسباني؟ وما هي أهمّ تحولاته ومنعطفاته؟ وما هي أهمّ روافده؟

– وهل استطاع الاستشراق الإسباني اللحاق بركب الاستشراق الأوروبي على مستوى الإنجاز وشمولية محاور الاهتمام؟

– ألا يمكن من خلال إعادة قراءة الخطاب الاستشراقي الإسباني (تقييما وتقويما) تذويب الحواجز المصطنعة بين "الشرق" و "الغرب"؟

– وبعبارة أخرى هل يفضي تمحيص الخطاب الاستشراقي الإسباني إلى نقد مرتكزاته، وإقامة حوار جادّ خال من التعصّب والافتعال بين "الشرق" و"الغرب"؟

[100]– وبالأخصّ أعمال– "فرانسيسكو خافيير سيمونيت" (**Francisco Javier Simonet**) "إيزيدورو الباجي" (**Isidoro Pacence**) "خوسيه أنطونيو كوندي" (**Jose Antonio Conde**) "كلوديو سانشيز ألبرنس" (**Claudio Sanchez– Albornoz**) "إيميليو لافنتي القنطرة" (**Emilio Alcantara**)، و"فرنسيسكو جيلين روبليس" (**Francisco Guillen Robles**)، و "فلورنسيو خانير" (**Florencio Janer**)، و"خوسيه مورينو نينيو" (**Jose Morinio Nino**)" وخوسيه أنطونيو كوندي" (**Jose Antonio Conde**)، و"باسكوال دي غايانغوس" (**Pascual de Gayangos**)، و"ميغيل آسين بلاسيوس" (**Miguel Asin Palacios**)، و"إميليو غارسيا غومس" (**Emilio Garcia Gomez**).

L'histoire de l'Andalousie au miroir de l'Orientalisme espagnole entre objectivité et narcissisme

Khalid El yaboudi

Université Med ben Abdellah

Fes Maroc

L'orientalisme est le discours qui produit la dichotomie Orient / Occident ou règne les inégalités de classe, de sexe, et de race entres les individus de chaque pôle.

Depuis plusieurs siècles (dès la plainte du saint « Alvaro » de Córdoba) l'orientalisme espagnole favorisait un faisceau de clichés, de préjugés, et de stéréotypes qui reflètent une image négative et caricaturée de l'arabo-musulman andalou ; ainsi le « Moro » et d'autres termes tel que «les arabes », « Agarenos », « Sarrassins », « Mohamétans », « Barbares », « Maghrébins » , « Islamistes » sont les modèles adéquats des sèmes sémantiques : « Fanatisme », « Fatalisme » , « Cruauté », « Sauvagerie », et « Paresse »..

Cette allocution est une tentative pour soulever la question de l'objectivité de l'orientalisme espagnole, notamment les études des orientalistes : Francisco Javier Simonet, Isidoro Pacence, Emilio Alcantara, Francisco Guillen Robles, Florencio Janer, Jose Morinio Nino, Jose Antonio Conde, Pascual de Gayangos, Miguel Asin Palacios, Emilio Garcia Gomez, sans oublier l'arabisant Juan Goytisolo qui s'oppose à l'acculturation inéquitable. Dans cet exposé nous allons essayer de démonter les constructions idéologiques de leurs recherches a partir de l'étude conceptuelle des termes les plus fréquents dans leurs études, à savoir : « Moro », « Morisco », « sarracino », « Mudejar »

Nous allons voir tout au long de ce développement dans quelle mesure l'orientalisme espagnol parvient à identifier les forces vitales qui inspirent la culture andalouse ? Et à quel point Le dialogue constructif pourrait changer l'image de l'Andalousie que les orientalistes de la péninsule ibérique ont essayé de figurer à travers les siècles ?

تقديم:

عرف الاستشراق الاسباني في القرنين الماضيين تطورا ملحوظا بفضل تواجد مؤسسات تهتمّ بالشرق، وازدياد عدد كراسي الأستاذية في الدراسات الشرقية، وخلق المجال لنشر الأبحاث الاستشراقية.

وقد يتساءل البعض، لماذا الاهتمام بالخطاب الاستشراقي؟ وعقد الندوات تلو الندوات حول خطاباته المثيرة؟ الأكيد لو كانت نتاجات المستشرقين ذات غايات معرفية لما أثارت هذه الموجة من الاهتمام، لكن المؤسف أن خلفياته الإيديولوجية تطغى على خلفياته العلمية.

ومن الأكيد أن منبع اهتمام المستشرقين بتجليات الثقافة العربية الإسلامية أن "الشرق [وهو يشمل الشرق والغرب الإسلاميين] ليس لصيقا بأوروبا وحسب، بل إنه كذلك موضع أعظم مستعمرات أوروبا وأغناها وأقدمها ومصدر حضاراتها ولغاتها، ومنافسها الثقافي"[101]. وقد اكتفى المفكر الفلسطيني "إدوارد سعيد" برصد ملامح الخطاب الاستشراقي في مصنفه الشهير في الحدود الفرنسية والبريطانية[102]، لذلك نروم في هذا البحث الكشف عن أوجه الاستشراق في شبه الجزيرة الإيبيرية، وعن علاقته بجنيسه في أوروبا وأمريكا، وسنحاول الكشف عن مميزاته، وتحديد موقع "المورو" في نصوصه، وخلفيات هذا الاصطلاح الإيديولوجية.

ومن بدهيات الحقائق أن المعرفة بالشيء والإلمام بدقائقه في الخطاب الاستشراقي مفضية إلى السيطرة عليه، فلا غرو أن يكون التعمّق في معرفة "المورو" طريقا نحو المزيد من التحكّم فيه.

على أن أبرز الظواهر التي تلفت الانتباه في العقود الأخيرة توجّه الحكومات الاسبانية المتعاقبة على الحكم إلى إحياء التراث الأندلسي، ترى ما أسباب العناية بالتراث العربي الإسلامي بهذا البلد الذي أنتج العديد من المفكرين المعادين لكل ما يرمز للحضارة العربية الإسلامية بشبه الجزيرة الإيبيرية؟

يكمن الجواب على هذا السؤال في قناعة الإسبانيين بأن تاريخ الأندلس وحضارتها جزء من تاريخ إسبانيا. فماذا يتبقى للإسبانيين من ألق حضاري من دون ومضات الحضارة الأندلسية التي امتدّ بريقها إلى أصقاع أوروبا في عصر النهضة، اللهم إلا شذرات من التاريخ القوطي المندثر، وما عدا تلك الصور الوحشية التي عكستها محاكم التفتيش.

وتعدّ المؤتمرات التاريخية لإسبانيا المنعقدة بمدن الأندلس الكبرى كإشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة بعيدا عن حاضرتي مدريد وبرشلونة إحدى دلائل هذا التوجّه، فكما تصارعت على ابن خلدون أقطار المغرب العربي، ومصر، فكذلك دخلت إسبانيا معترك التنافس لضمّ ذخائر الأندلس الحضارية لتاريخها المثير للجدل.

101– إدوارد سعيد (1984)، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ذيب، الطبعة الثانية، بيروت، ص 29.

102– يقول "إدوارد سعيد" في هذا السياق "أن يتحدث المرء عن الاستشراق، هو أن يتحدث، رئيسيا، وإن لم يكن حصريا، عن مشروع ثقافي بريطاني وفرنسي"، "الاستشراق"، ص 31....

الاستشراق الاسباني جزء لا يتجزّأ من الاستشراق العام في منطلقاته وتوجّهاته. فكما أن مستشرقي معظم دول أوروبا ينقسمون إلى متعصّبين حاقدين على منجزات الحضارة العربية الاسلامية في مجالات العلم والأدب والفن والعمران، ويشكلون الأغلبية، وإلى قلة من المعتدلين استطاعوا بشجاعتهم وتمسكهم بالموضوعية أن يجاهروا بمواقفهم المنوّهة بنفائس الحضارة العربية الإسلامية في الميادين الآنفة الذكر؛ فكذلك الحال عند معاينة نتاج الاستشراق الإسباني.

فقد انقسم الخطاب الاستشراقي المتصل بدراسة الحضارة الأندلسية إلى فريقين:

❖ فريق متصلّب في مواقفه حيال تاريخ العرب والمسلمين بالأندلس، شغله الشاغل اصطياد الأدلة التي تزكي رؤيته المعادية للإسلام، يعتبر التواجد العربي الإسلامي بالأندلس فترة استعمارية، تميزت بالوحشية واغتصاب ممتلكات أصحاب الأرض، وينظر إلى "المورو" –على غرار نظرته للعربي والمسلم– باعتباره كائنا عجائبيا ذو تجربة حياتية استثنائية تختلف اختلافا جذريا عن حياة الإسباني المألوفة[103].

ومن رواد هذا الاتجاه:

- "فرانسيسكو خافيير سيمونيت" (**Francisco Javier Simonet**)
- "إيزيدورو الباجي" (**Isidoro Pacence**)
- "خوسيه أنطونيو كوندي" (**Jose Antonio Conde**)[104]
- "كلوديو سانشيز ألبرنس" (**Claudio Sanchez- Albornoz**)[105]

وقد فاق المستشرق "سيمونيث" سائر أقرانه في التحامل على مسلمي الأندلس،، فقد حرص عام **1888على** جمع الكلمات الإيبيرية واللاتينية التي كان يتداولها المستعربون بالأندلس بمسرد (**Glosario**) لإثبات تأثر مسلمي الأندلس بالحضارة اللاتينية، كما بث أفكاره المعادية للتواجد العربي بالأندلس في كتابه "تاريخ المستعربين" (**Historia de Los Mozarabes**) وبلغ حرص هذا المستشرق على النيل من مكانة الإسلام (لا سمح الله) أن خصص فصلا من فصول كتابه الأخير (عنونه بعنوان مثير "المستعربون على مذبح الاستشهاد") لموضوع استشهاد النصارى بمساجد المسلمين بالأندلس دفاعا عن الدين المسيحي، وذلك بلجوء النصراني إلى سبّ الرسول (ص) بصحن الجامع لينهال عليه المسلمون بالضرب إلى حدّ القتل[106]. فكأن إثارته لهذا الموضوع الذي لا يخلو من تهويل دعوة صريحة إلى

103– قد يكون سبب نفور بعض الإصلاحيين من الخطاب الاستشراقي –إضافة إلى ما تضمنته نصوصه من أحكام مجحفة في حق العرب والمسلمين– أنه مهّد للاستعمار بشتى أنواعه العسكرية والاقتصادية والثقافية.

انظر علي توفيق الحمد (2001)، نحن والمستشرقون مع دراسة تحليلية لأثر المستشرق دوزي في المعجمية العربية. مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد 15، ص2.

104– يتجلى تحامل المستشرق "سيمونيت" (1829–1897) من عتبة كتابه الذي عنونه ب "الاحتلال العربي لإسبانيا" (Dominacion Arabe en Españа).

105– من مؤلفاته المعادية للإسلام: "شذرات من تاريخ إسبانيا المسلمة" (Fuentes de la historia hispano–musulmana).

106 – Simonet Francisco Javier (1987–1903), Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, p385–387.

التناحُر الديني. فهل نعد هذا التنويه حثا على الإرهاب بالحمولة الدلالية الغربية للمفهوم؟ لا سيما أنه يروي عن القس "سمسون" (الذي ولد عام **810** ميلادية) أن المستعربين ورثوا الشذوذ الجنسي عن عرب الأندلس.

وقد اقتفى مستشرقو هذا الاتجاه آثار المستشرق الهولندي "رينهارت دوزي" (**Rinhart Dozy** (**1820-1883**)[107]، والمستشرق الفرنسي "ليفي- بروفنسال" (**Levi- Provençal**) (**1894-1956**)[108].

❖ فريق معتدل يؤمن بالقيمة المعرفية والحضارية للإنتاج الفكري لرجالات الفكر والفن والسياسة بالأندلس، ويعتبر مدة ثمانية قرون التي قضاها العرب والمسلمون بالأندلس حقبة رئيسية في شبه الجزيرة الإسبانية.

ومن أشهر ممثلي هذا الاتجاه:

- "باسكوال دي جايانجوس" (**Pascual de Gayangos**) (**1809-1897**)[109]
- "فرانسيسكو كوديرا" (**Francisco Codera**) (1836- 1917)[110]
- "خوليان ريبيرا (البلنسي)" (**J. Ribera**) (**1858-1935**)
- "آسين بلاثيوس" (**Asin Placios**) (**1871-1944**)
- "آنخل خنثالث بالنسيا" (**Angel Gonzales Palencia**) (**1889-1949**)
- "جارسيا جومس" (**Garcia Gomes**) (**1905**- ..)

107– من أشهر مواقف هذا المستشرق الهولندي تحامله على قادة الدولة المرابطية صانعي انتصار "الزلاقة"، وتضامنه مع ملوك الطوائف (مع بني عباد حكّام إشبيلية على وجه الخصوص)، ومن مؤلفاته التي ضمّنها هذه الأفكار: كتاب "تاريخ مسلمي إسبانيا" (**Histoire des musulmans d'Espagne**) المنشور عام **1881**، وكتاب "تاريخ بني عبّاد" (**Recherches Loci di Abbadidis**) المنشور سنة **1846**.

فمما تضمّنه كتابه الأول أنّ الإسلام دين التوسّع والسيف والرعب، وأنّ العرب والمسلمين جفاة أجلاف، لا عهد لهم ولا دين ولا مروءة، انخرطوا في جيوش الفتح خوفا أو طمعا في الغنيمة فقط، ومارسوا الاضطهاد ضدّ اليهود في المدن الأندلسية، ونجد من الشخصيات التي طعن فيها هذا المستشرق: أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، والحسن بن علي، وعبد الرحمن الداخل.

انظر: تحليل الباحث علي توفيق الحمد (**2001**) لمضامين هذا الكتاب في صص **13–14**. وقد أوضح هذا الدارس أن كتابه "تكملة المعاجم" لم يخلُ بدوره من التعريض إذ ركّز فيه على إدراج العامي والدخيل والمعرب الذي عزف اللغويون عن إدراجه ضمن رصيد العربية الفصحى. (نفس المرجع ، صص**15–35**)، فكأنّ "تكملة المعجم" موجهة بالأساس إلى المستعرِب لفهم لغات الشعوب العربية بما أن المعاجم العربية القديمة لا ترصد الكلمات الدخيلة والمولدة إلا لماما.

108– ولا يقلّ هذا المستشرق الفرنسي تحاملا عن سلفه "دوزي"، ومن أهم كتاباته التي تضمنت أحكاما مجحفة في حق مسلمي إسبانيا:

– تاريخ الإسلام في إسبانيا، فتح الإمارات الأموية في الأندلس، قرن خلافة قرطبة، اسبانيا المسلمة في القرن العاشر والمؤسسات والحياة الاجتماعية، اشبيلية المسلمة بداية من القرن الثاني عشر. ومن مفارقات هذا المستشرق إشارته إلى أنّ العرب الفاتحين كانوا يكرهون انتشار الإسلام، لأنّ انتشاره يقلل إيرادات الجزية المفروضة على الذميين، ويضرّ ببيت المال.

Levi-Provençal (**1951**), **Histoire de l'Espagne musulmane**, **2 édition**, **Paris**, **T1 p74**.

109– يعتبر "دي جايانجوس" الأب الروحي لمدرسة "بني كوديرا" المعتدلة، ألف كتاب "تاريخ الممالك الإسلامية" (**The Histoy of the Mohammedian Dynasties in Spain**)، ونشره بلندن، وقام أيضا بترجمة كتاب "نفح الطيب" للمقري إلى اللغة الأنجليزية.

110– لقد أفضى إعجاب كوديرا بالحضارة الأندلسية إلى دعوته إلى تعريب الحضارة الأوروبية واسترداد إسبانيا لمجدها الغابر عهد الحكم الأندلسي..

Codera, **F** (**1917**), **Estudios criticos de historia arabe espagnola**, **Madrid**, **p 283**.

- "أمريكو كاسترو" (**Americo Castro**) (**1885-1972**)[111].

والظاهر أن من أسباب تصلب آراء الفريق المتعصّب ومغالاته في إطلاق الأحكام الجائرة أن منطلقاته تجد أسسها العامة في الصليبية التبشيرية والاستعمار[112]. ولا أدلّ على ذلك أن معظم هؤلاء رجال دين تابعون للكنائس، أو مستخدمون بأجهزة الدول الهادفة إلى استغلال الشعوب المستضعفة واستنزاف خيراتها ومجالاتها الحيوية.. فجحافل الجيوش الغربية أعقبت في غالبية الحالات جحافل الخبراء والعلماء، ومَثل الحملة الفرنسية على مصر بقيادة "بونابرت" ماثلة بأذهاننا علما أن مصر جزء لا يتجزأ من الشرق، إن لم تكن نموذجه الأمثل.

إرهاصات الاستشراق الإسباني في أرض إيطالية:

لعلّ البدايات الأولى للاستشراق الأوروبي كانت ذات ميسم إسباني، فقد عُرف عن المؤرخ الإسباني "خوان أندرس" (**Juan Andres**) وهو من مؤرخي القرن الثاني عشر الميلادي اهتمامه بالتأريخ للحضارة الأندلسية بإسبانيا المسلمة، حينما عمد في كتابه الموسوعي الذي نُشر باسم " **Origen Progressos y estado actual de toda litteratura**" (ويضمّ ثمانية مجلدات) إلى الإسهاب في الحديث عن أصول الآداب الأوروبية وتطورها. وقد صنف كتابه باللغة الإيطالية، وأثارت مواقفه من الحضارة العربية بالأندلس ضجة من قبل معاصريه..

وهناك من الباحثين[113] من ردّ انطلاقة الدراسات الاستشراقية إلى زمن احتكاك المسلمين بالرومان والإفرنجة سواء في غزوتي مؤتة وتبوك، أو ببداية الحروب الصليبية، أو عهد الفتح الإسلامي للأندلس، أو بعد سقوط القسطنطينية سنة **857** هجرية في يد العثمانيين.

– نماذج من المواقف المعادية للإسلام بالأندلس:

كثير هي المواقف التي تبناها المستشرقون المتخصصون في دراسة الحضارة الأندلسية، والتي تعكس أقصى درجات التحامل على العرب والمسلمين الذين عمّروا أراضي الأندلس لمدة ثمانية قرون، والنص التالي المقتطف من كتاب المستشرق "سيمونيت" يوضح بجلاء هذه النزعة حين يقول:

111– شبيه بهذا الموقف المعتدل موقف المستشرق الألماني "فرتز شتيبات" (Fritz Steppat) الرئيس السابق لقسم الدراسات الإسلامية ببرلين، الذي يميز بين الإسلام كعقيدة وحضارة وبين المسلمين العاجزين عن التمسّك بجوهر الإسلام. وشبيه كذلك بموقف "فريديريك فيشر" (F.W. Fischer)العميد السابق لكلية الآداب بجامعة "أرلنجن" (Erlangen) الذي يرفض كل تهجّم تعصبي على الإسلام... وتصبّ في نفس المنحى مواقف المستشرقين الفرنسيين، من أمثال "لوي ماسينيون" (Lois Massignon)، و"جاك بيرك" (J. Berque)، و"بلاشير جوديفروي" (Gaudefroy Blachère)، و"روجيه جارودي" (R. Garodi)..

112– نحيل القارئ إلى مقال الباحث توفيق الحمد (2001) حيث أسهب في شرح دوافع الخطاب الاستشراقي. (ص6–8).

113– انظر دراسة الباحث قاسم السامرائي (1983)، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، منشورات دار الرفاعي، الرياض– السعودية، ص:19 وما بعدها.

إذا لم يستطع عرب المشرق إدخال "أية ثقافة ذات قيمة بحكم كون نصارى هذه البلاد كانوا أرقى منهم ... فمن البدهي أنهم لم يقدموا شيئا يُذكر لنصارى الغرب ورثة الحضارة الرومانية"[114].

كما ينوه هذا الباحث برغبة النصارى في الاستشهاد حين يقدمون بمنتهى العفوية على سب الرسول (صلى الله عليه وسلم) داخل مساجد المسلمين[115].

ومن جملة هذه الرؤى المليئة بالتضليل والتزييف:

– ردّ ازدهار حركة العلوم والفنون عهد عبد الرحمن الناصر إلى نبوغ المستعرب والعالم الفلكي "ربيع بن زيد الأسقف"[116].

فيقول أحد المستشرقين "بفضل المستعربين الأندلسيين، عرفت الأندلس الإسلامية العلوم الرياضية والفلكية والطبية التي كان ينفر منها عامة المسلمين"[117].

– تبرير تحسّن حال نصارى الأندلس عهد ممالك الطوائف بتحكمهم في زمام الأمور ببلاطات هذه الدويلات المتصارعة بالأندلس[118].

– ما يتعلق بشرائح المجتمع الأندلسي، فقد أغفل العديد من المستشرقين في دراستهم لمكونات المجتمع الأندلسي فئة النصارى، واقتصروا على ذكر فئات العرب والبربر واليهود والمستعربين.[119]

وتحدث المستشرقون في أحيان أخرى عن المستعربين بالتمييز فيهم بين من دخل الإسلام عنوة، وبين من أسلم عن اقتناع، بينما الآية الصريحة في هذا المضمار تقول: "لا إكراه في الدين"، وتدل الحقائق التاريخية على تعايش الأجناس الثلاثة من عرب (وبربر)، ويهود ومسيحيين في وئام.[120]

– ما يتصل بنشر الإسلام في أصقاع شبه الجزيرة الإيبيرية بين من ذهب إلى أن العرب نشروا الإسلام وفرضوه كديانة بحدّ السيف، ومن ذهب إلى تهرّب حكام الأندلس من نشر الدين الإسلامي في الأوساط المسيحية طمعا في الجزية.[121]

– ما يرتبط بموقف المستشرقين من حكم المرابطين (اللمتونيين) لبلاد الأندلس، حيث أجمعت أغلب الآراء على همجية قادة الدولة المرابطية، وتأثير وحشيتهم في اضمحلال النشاط الفكري بذلك العهد.[122]

114– Simonet (1903), p 44.

115– انظر الفصل الرابع عشر من كتاب سيمونيت الممحال إليه أعلاه، وقد عنونه ب "المستعربون على مذبح الاستشهاد".

116– يشير المستشرق "سيمونيت" أن لقبه هو "ريسيموندو" (Recimundo)، وينسب إليه كتاب "تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان". Historia, p44.

117 – Simonet , ibid, p45.

118– وهو رأي "فرانسيسكو سيمونيت"، في الفصل الثلاثين من كتابه المشار إليه سابقا.

119– Levi–Provençal (1951), ibid, T III, p 171–173.

120– انظر نموذجا لهذا التعايش في دراسة:

– Charles– Emmanuel Dufourq (1978), La coexistence des Chrétiens et des Musulmans dans al Andalus et dans le Maghreb au X° siècle, in : Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public. 9e congrès,Dijon. pp. 209–224.

121– انظر أعمال "ليفي بروفنسال"، ويكفي لدحض هذا الادعاء التذكير بالحملات الخمسينية التي قام بها المنصور بن أبي عامر بغرض نشر الإسلام، ووقوفه على تخوم بلاد الغال.

122– من متزعمي هذا التيار المستشرق الهولندي دوزي، والسائر في ركابه المستشرق الإسباني "سيمونيت"، والغريب أن مفكرا من طينة عبد الله عنان سقط في المحظور، وتأثر بهذه التعليلات، وأسهم بدوره في الحط من شأن العهد المرابطي بالأندلس (انظر عبد الله عنان(1990)، دولة الاسلام في الأندلس، عصر المرابطين

– اختلاق القصص وتزييف الحقائق:

اتجهت غالبية المستشرقين إلى اختلاق الأخبار المزيفة لتشويه صورة الإسلام بالأندلس، من ذلك:

– ادعاء معاناة النصارى عهد الفتح من الكثير من الويلات، من مثل لجوء (موسى بن نصير) إلى "ذبحهم بالسيف، (حيث) أشعل فيهم النار، وقتل الشبان والأطفال والرضع بالحراب، ونشر الخراب والجوع في المنطقة"[123]. ولسنا في حاجة في هذا المقام الضيق إلى الإسهاب في تقوى هذا الفاتح وتقيده بتعاليم الإسلام السمحاء. فقد تحدثت عن ذلك الكثير من المصادر التاريخية.

– ابتداع "سيمونيت" قصة (كتاب أمان) تفيد إكراه الخليفة عبد الرحمن الداخل لنصارى شبه الجزيرة لتأدية غرامات مضافة إلى الجزية للسماح لهم بتأدية شعائرهم الدينية[124]، وقد فصّل الدكتور "مصطفى الشكعة" القول في زيف هذا النص.[125]

– إنكار معظم المستشرقين الإسبان لخبر القضاة الثلاثة الذين تولوا منصب القضاء قبل عهد الحكم الأموي بالأندلس (وهم: مهدي بن مسلم، وعنترة بن فلاح، ومهاجر بن نوفل القرشي) بالاعتماد على حجج واهية.[126] لا لشيء سوى لكون هؤلاء القضاة اشتهروا بالعدل والتقوى[127].

– ادعاء معظم المستشرقين المتخصصين في دراسة التراث الأندلسي الأصل اللاتيني للموشحات والزجل، وتأثر شعراء الأندلس في نظم مقطوعاتهم بالدارجة الرومانسية التي كانت متداولة بين نصارى الأندلس. فأغلب المستشرقين سواء أكانوا من الفريق المعتدل أم من الفريق المتعصب اتجهوا نحو القول ب"ليتنة" الموشحات الأندلسية.[128]

والموحدين في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة) وقد أطنبت كتب التاريخ في ذكر إشعاع الفكر والعلوم (ما عدا الفلسفة) بهذا العصر. (بل حظي ابن باجة الفيلسوف بمكانة خاصة في بلاط الدولة المرابطية في أواخر عهدها، ونجد المستشرقين "جارسيا جومز" و"آنخل بالنسيا" أكثر موضوعية بردّهما أسباب اضمحلال الحكم العربي بالأندلس إلى تفكك وتفرق ممالك الطوائف والانحلال الخلقي الذي ساد بهذا العصر.

123– عن الدكتور حسين مؤنس (**1959**)، فجر الأندلس، القاهرة، هامش صفحة **243**.

124– تقول الوثيقة التي اختلقها المستشرق الإسباني "سيمونيت" على لسان صقر قريش عبد الرحمن الداخل: "بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى الأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من سائر البلدان.. شهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب، وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ومثلها من البغال مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح في كل عام إلى خمس سنين...." عن:

Francisco Codera (**1917**), **Ibid**, **T 8**, **p204**

انظر أيضا: حسين مؤنس (**1959**)، المرجع السابق، هامش صفحة **445**.

125– مصطفى الشكعة (**1985**)،مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية في الأندلس، عن ندوة: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجزء الثاني– صص **297–300**.

126– انظر: آنخل خنثالث بالنسيا (**1955**)، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، النهضة المصرية، ص **326**.

الغريب في الأمر أن المستشرق "آسين بلاثيوس" الذي أدرجناه ضمن رواد الفريق المعتدل ينحو بدوره هذا المنحى.

127– مجمل هذه الآراء مفصلة في كتاب الدكتور محسن مؤنس (**1955**)، فجر الأندلس، ص **643**.

128– أشهر من ادعى هذا التأثير من المستشرقين الإسبان "خوليان ريبيرا" (**J. Ribera**)، و"منندز بيدال" (**Menendez Pidal**). وقد تطرق المستشرق "آنخل خنثالث بانثيا" (**1955**)، في كتابه "تاريخ الفكرالأندلسي، لهذا الموضوع، انظر ص **143** وما يليها.

– التقليل من قيمة كتاب البكري (**432- 487** هـ) "المسالك والممالك" (الذي يعد أشهر مصنفات الجغرافيا)، وادعاء تأثر البكري في تصنيفه بكتاب "إيزودورو الإشبيلي" المسمى "إيتيمولوجيا" (**Etimologias**).[129]

– السعي إلى ردّ اجتهادات الإمام عبد الرحمن الأوزاعي (**88-157** هـ) الفقهية إلى اطلاع هذا الفقيه على القانون الروماني القديم.[130]

– اختلاق أسباب دينية لتفسير نكبة ابن رشد الفيلسوف، مثل ادعاء المستشرقين إنكاره للبعث وللمعجزات، وحديثه عن بطلان الأديان الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية)[131]. بينما الأسباب السياسية هي التي أفضت إلى نكبته[132].

– نظرات في المعجم الاصطلاحي:

إن مجمل المصطلحات القدحية الواصفة للعربي المسلم الذي استوطن أرض الأندلس لمدة ثمانية قرون ("الموريسكو" (**Morisco**)، و"سراسينو" (**Sarracino**)، و"المدجّن" (**Mudejar**)) تعود في مجملها إلى مصطلح "مورو" (**moro**) الذي يشملها، فكأن العلاقة بين المصطلحات الأولى ومصطلح "مورو" هي علاقة تعالق أسري يجمع بين المصطلح الرئيسي ومجموع المصطلحات التي تؤدي نفس سماته المفهومية، مع فروقات دلالية دقيقة فما دلالة المصطلح الأعمّ الذي يشمل بقية المصطلحات دلالة، وقد يكون سبقها على المستوى الدياكروني.

الأبعاد الدلالية لمصطلح "مورو":

إنها تسمية أطلقها الإسبان على المسلمين الذين أقاموا بالأندلس بعد فتح شبه الجزيرة وإسقاط دولة القوط، ولا زال الاختلاف قائما في أصل التسمية واشتقاقها:

– فهناك من اعتبرها مشتقة من تسمية "موريتانيا" التي كانت تطلق في العهد الروماني قبل الفتح الإسلامي على بلاد المغرب بما فيها موريطانيا،

129– بالنثيا، آنخل جنثالث (1955)، ص 310.

130 –Schacht, joseph (1953), The Origins of Mohammedan jurisprudence. Oxford, ed 1953; p 288.
وقد كفانا الدكتور مصطفى الشكعة مؤونة تفنيد هذه الادعاءات، بحيث أسهب في توضيح جوانب أصالة فقه الأوزاعي
مصطفى الشكعة (1985)، الجزء الثاني – صص 310–312.

131– لقد أورد "آنخل خنثالث بالنسيا مجمل هذه الاتهامات دون أن يتبناها في "تاريخ الفكر الأندلسي، ص355–360–369.
بينما الدوافع السياسة جلية في نكبة ابن رشد الفيلسوف، وقد فصل القول فيها المفكر المرحوم عابد الجابري في كتابيه "ابن رشد: سيرة وفكر، دراسة ونصوص– مركز دراسات الوحدة العربية، ط1– 1998، صص60–69"، "المثقفون في الحضارة العربية– محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد"، وانظر مقدمة ترجمة "الضروري في السياسة " من العبرية إلى العربية من قبل المفكر محمد أشحلان.

132– فصل القول في هذه النكبة المرحوم محمد عابد الجابري، في كتابه "محنة المثقفين العرب"...

– وهناك من أرجعها إلى تسمية "الماوري"، وهي تسمية أشهر قبيلة من قبائل البربر التي رافقت موسى بن نصير وطارق بن زياد في معارك الأندلس.

وقد كان يحيل المصطلح منذ العصور الرومانية القديمة على العناصر البربرية القاطنة بشمال إفريقيا، إلا أن التسمية عرفت عدت معاني بتعدد العصور.

وحسب المؤرخ "ساليست" فالمورو أهم فرق الجيش التي كانت ترافق القائد "هرقل" في حملاته العسكرية، وهي مكونة من الفرس، والأرمن وقبائل البربر[133]

وبعد الفتح الإسباني لشبه الجزيرة الإيبيرية، واستقرار العرب والمسلمين بالأندلس، أطلقت تسمية "المورو" على الفاتحين الجدد سواء أكانوا عربا أم بربرا [134]، ثم شملت المسلم التركي على أثر طرد الاسبان للمسلمين من الأندلس ومواجهاتهم البحرية مع الأساطيل العثمانية.

وغرضنا في هذا المقام هو الكشف عن الدلالات التي تضمنتها هذه التسمية في الخطاب الاستشراقي الإسباني.

فقد ارتبطت صورة العربي–المسلم في مخيلة الإسبان ومستشرقيهم بترسانة من الخلال الذميمة، فجماعات "المورو" تتميز دون سائر الأجناس ب"التعصّب" و"الفساد" و"الاستبداد" و"العنف الدموي الأعمى"، فهم "شيوخ أفظاظ" و"أصحاب طباع همجية" و"فلول همجية"[135].

وهي أوصاف لا تنشز عما أورده مونتيسكيو عن الإنسان الشرقي، على الخصوص في كتابيه "روح الشرائع"، و"رسائل فلسفية"، كما أنها لا تبتعد عن تحليلات "هيغل" و"ماركس" للعقلية الشرقية المتصفة بالانغلاق والخمول.

والطريف أن هذه الأفكار العرقية المجحفة في حق الإنسان العربي المسلم (المورو) سواء كان متواجدا بالشرق الإسلامي أم بالغرب الإسلامي "ما تزال تتمتع بعافية وحيوية"[136] على الرغم من يقظة الوعي بهذه الشعوب المستضعفة.

بل قفزت هذه الأحكام "من العالم الضيّق، عالم المستشرقين وبعض أصحاب الحنين إلى الاستعمار القديم، لتلج ملكوت التوليتاريا الكلية الانتشار، والمتعدد الأشكال، ملكوت وسائل إعلام العالم الحرّ الممتدّ من أمريكا الشمالية وأوروبا حتى فسحتهما الشرقية: إسرائيل".[137]

---

133 – Edward Gibbon, Jean Alexandre C. Buchon ;Histoire de la décadence et la chute de l'Empire romain

Traduit par François Pierre Guillaume Guizot Éditions Maradan, 1812 – 8 vol.

134 – Jules Lacroix de Marlès(1847), Histoire de la conquête de l'Espagne par les Arabes. Éditions A. Mame, coll. « Bibliothèque des écoles chrétiennes », Tours.

135– يرى "كاظم جهاد" على هامش ترجمته لكتاب "خوان غويتيسولو" أن المؤرخين الإسبان أصحاب التوجه التقليدي أطلقوا على العرب تسمية "الفلول" بدل "الحشود" أو "الجماهير" باعتبار أن "الفلول" تتضمن معنى عدم قابلية الانتظام في كيان اجتماعي ملتحم. وقد نحا بعض علماء الأنثروبولوجيا الغربيين هذا المنحى في دراستهم للشعوب البدائية.

– خوان غويتيسولو (1997)، في الاستشراق الإسباني، ترجمة كاظم جهاد، نشر الفنك– ص37– هامش 1..

136 – juan goytisolo (1981) ; Cronicas sarracinas, ed, Ruedo iberico, Madrid, p16.

137– نفس المرجع السابق ، صص 16– 17.

تجدّد صورة "المورو" بتبدّل العصور:

إنّ الفزّاعات التي استُخدِمتْ في العصور الوسطى ضدّ "المورو" الأندلسي تمّ استثمارها أيضا بداية القرن المنصرم في تشويه صورة "عبد الكريم الخطابي" (زعيم ثورة الريف بالمغرب الأقصى)، وهي تستخدم في عصرنا الراهن ضدّ أشكال مقاومة ترسّبات الاستعمار بمختلف أنماطه.

بمعنى أن سلسلة الشتائم في الخطاب الاستشراقي الإسباني (ونماذجه التي يقتفيها) استمرّت لقرون عديدة بالرغم من توسّع نطاق مفهوم "المورو":

– فقد بدأت بذمّ "المورو" الأندلسي منذ استيطانه لشبه الجزيرة الإيبيرية ونشره الإسلام ببقاعها.

فإثر دخول العرب والمسلمين مآزرين بحشود البربر إلى إسبانيا في القرن الثاني للهجرة، القرن الثامن الميلادي تكوّنت صورة مشوّهة عن المسلمين تتضمّن أوصافا من قبيل "التعصّب" (**Fanatismo**)، "الوحشية" (**Sauvagerie**)، "الفظاظة" (**Cruauté**)، "الشبقيّة" (**Lascivité**)، "القدَرية" (**Fatalismo**)، "الكسل" (**Paresse**)، "البهتان والنفاق" (**Fausseté**)...

وترسّخت في مخيلات الإسبان وأذهان غالبية مستشرقيهم الصورة الأسطورية التي نسجها الداعية القديس جاك (**Saint Jacques**) بكتابه المثير للجدل "قاتل المورو" (**Matamoros**).

– وامتدّت بعد طرد العرب والمسلمين من الأندلس لتشمل المسلم التركي الذي يشخّص الإمبراطورية العثمانية بأساطيلها التي كانت في مواجهة دائمة مع الأساطيل القشتالية والإفرنجية على مياه البحر الرومي (البحر المتوسط).

فقد تزامنتْ مرحلة استرداد غرناطة من يد آخر ملوك الأندلس "عبد الله الصغير" مع بداية انتشار القشتاليين في ثغور البحر الرومي بشمال إفريقيا، واحتلالهم لمليلية سنة **1497** والحسيمة ووهران وبجاية وتونس ابتداء من سنة **1510**، مما جعلهم في مواجهة مباشرة مع العثمانيين، وولدت هذا الصدام طيلة ثلاثة قرون (إلى حدود القرن الثامن عشر) صراعات دامية بين المسلمين والنصارى في عرض البحر الرومي، فقد كانت سفن القراصنة الإسبان والبرتغاليين تمخر عباب هذا البحر وتعترض طريق أي سالك بمياهه، وتشنّ الغارات على ثغور المسلمين بالشمال الإفريقي، ممّا أثر سلبا على النشاط التجاري والصيد بهذه المنطقة.[138]

138– ويبرر الباحث الإسباني "إيلوي مارتن كورااليس" طرد المسلمين من إسبانيا في مستهل القرن السابع عشر (1609م) بالهلع الذي أثاره العدوّ الخارجي (العثمانيون) في قلوب الإسبان، مما أدّى –في نظره– إلى استحالة إقامة الروابط الودّية مع المسلمين الذين ظلوا بإسبانيا المُسترجعة بعد سقوط غرناطة، إلاّ أن الصورة السلبية عن "المورو" ظلت راسخة بأذهان الإسبان الذين زعموا بأنّ مسلمي الأندلس عازمون على الرجوع إلى أراضيهم وحيازة ممتلكاتهم بالمدن الأندلسية المُغتصبة.

– Eloy Martin Corrales (2004), « Maurophobie/Islamophobie et Maurophilie/Islamophilie dans l'Espagne du 19° siècle »– in : Revista CIDOB d'Afers internationales, n° 66–67, octobre 2004, pp241–254

– ثم شملت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين "المورو" القاطنين ببلدان شمال إفريقيا تمهيدا لاستعمار أراضيهم وتوطئة لسحق ثوراتهم (ثورة الخطابي كأنموذج).

ذلك أنّ الأطماع الاستعمارية بغرض فرض الحماية على الجزائر، وبسبب التوترات المستمرّة على حدود سبتة ومليلية أعادتْ إلى الواجهة صورة "المورو" السلبية إلى مخيلات الإسبان ومؤرخيها ومستشرقيها، فنُعِتت ساكنة شمال إفريقيا بالقردة والكلاب، وأصبح نعت "المورو" المغاربي ب"المتوحش" (**Sauvage**) نعتا اعتياديا لا يُثير أية غرابة[139]، وعرفت الدراسات الاستشراقية المعادية للإسلام والمسلمين أوجها في هذه الحقبة، وامتدّت الصورة السلبية لتشمل سائر العرب والمسلمين.

وكانت حرب "مليلية" سنة **1893** (التي استهدف منها الإسبان الحدّ من الأطماع الفرنسية والبريطانية في احتلال المغرب) مناسبة سانحة لنعت المغاربة ب"المورو المتوحشين" الذين يستسيغون الاستبداد ويرفضون الحرية والتحرر.[140]

إن "المورو" في خطاب الاستشراق الإسباني المتصلب بهذه المرحلة هو من العرق الذي لا يملك القدرة على معرفة ما يفيده في حياته بجميع تجلياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. إنه مجبول على الدسيسة والدهاء والقسوة.

وذهب بعض المغالين من المستشرقين في هذا السياق إلى أنّ الشريعة الإسلامية تمنع المغاربة من التحضّر بينما في تناقض صارخ لا تمنع هذه الشريعة الإمبراطورية العثمانية من التقدّم.[141]

– وأخيرا أصبحت في العصر الحديث صورة "المورو" سلاحا مُشهرا في يد جميع التيارات الإيديولوجية بإسبانيا، كلّ يوظفه خدمة لمآربه الخاصة.

فمع خمود حرب المقاومة بالريف بالمغرب الأقصى خمدت التهجّمات على المغاربيين إلا أنّ انخراط عشرات الآلاف من المغاربة في صفوف الجُند المناهض للحكم الجمهوري بإسبانيا أعاد إلى الواجهة سلسلة الأوصاف القدحية ضدّ المورو، فوصفه الجمهوريون من جديد بأقبح النعوت: فهو "متوحّش"، "قاتل"، "متعطش للدماء"، "مغتصب للعذارى"، و"سكّير"، و"جشع"..[142]

---

139 – Eloy Martin Corrales (2002), « La imagen del maghrebi en Espagna, una perspectiva historica », Siglos XVI– XX.

140 – Lopez Garcia (1973), Contribucion a la historia del arabismo espagnol (1840–1917), oriontalismo e ideologia colonial a travès de la obra de los arabistas espagnols, Granada, thèse doctorale.

141 – Eloy Martin Corrales (2003) ; Relationes de Espagna con el imperio otmano en los siglos XVIII y XIX, en : Martin Asuero, Ed Turquia del enfrentamiento al analisis mutuo, Compte rendu des journées d'histoire, organisée par l'institut Cervantes d'Istanbul à l'université Bosphore, le 31 octobre, 1–2 novembre 2002, Editiones ISIS, p253–270.

142– إيلوي مارتن كوراليس (2004)، نفس المرجع السابق، ص 245.

وعلى إثر انتفاضة "الجنرال فرانكو" (**Franco**) ضد الجمهوريين نشرت الصحافة الفاشية ووسائل الإعلام المختلفة صورة "المورو" قاطع الرؤوس، وبذلك تحوّل المورو" من ضحية إلى جلاّد شرس لا يجد الفرصة لانتشال الأسنان الذهبية من قتلاه، فيقطع رؤوسهم. وانتشرت هذه الصورة المزيّفة في الأعمال الإبداعية الإسبانية[143].

فمنطق السلطة الثقافية المفضية إلى جميع السلط (سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ذكورية) والحاضر بقوة لدى "غوستاف فلوبير" (**Gustave Flaubert**) في حديثه عن المحظية المصرية "كشُك هانم"[144] هو نفس المنطق الذي طبع كتابات غالبية المستشرقين الإسبان. إنها موضة الاهتمام بالشرق التي سمّاها الباحث "ف.ج. كيرنان" "حلم اليقظة الأوروبي الجماعي بالشرق"، فالعديد من الأدباء إضافة إلى "فلوبير" من أمثال "غوته (**Goth**)، و"هيغو" (**Hugo**)، و"نرفال"(**Nerval**)، وفي العصر الحديث "خوان غويتيسيلو" (**Juan Goytisolo**)، و"أنطونيو غالا" (**Antonio Gala**) من إسبانيا عكسوا هذا الاهتمام في إبداعاتهم.

ومن دلائل خضوع الاستشراق الإسباني في العصر الحديث للظرفية الاقتصادية تلك الازدواجية التي جعلت نظام فرانكو، ومن ورائه رعيل من المستشرقين الإسبان ينظرون (على إثر اكتشاف الفوسفاط والبترول بالصحراء) إلى الصحراويين بكونهم شرفاء، أمناء، شجعان وديمقراطيين مقابل "المورو" الخائن المنافق والاستبدادي.....

واستمرّت هذه النظرة المزدوجة إلى حدّ اليوم على الرغم من انسحاب القوات الإسبانية من الصحراء، وذلك بغاية خلخلة الاستقرار في المنطقة[145].

بل ازدادت حدّة بعد توقف المفاوضات المغربية الإسبانية حول استغلال الثروات السمكية بالمتوسط والأطلسي، وبعد تصريح المسؤولين المغاربة برغبتهم في استعادة "سبتة" و"مليلية" و"جزر الكناري"، وتزايُد تدفّق أعداد المهاجرين المغاربيين إلى إسبانيا.

وفي نفس السياق، وبما أنّ أغلب "المورو" هم من العرب المسلمين، فقد صوّر الاستعراب الإسباني الحديث أمراء الخليج الأثرياء الذين أسهموا في اندلاع أزمة النفط العالمية على إثر الحرب العربية الإسرائيلية بأشنع صورة، فهم يسرفون أموالهم في اللهو والمجون، بينما ترزح شعوبهم تحت وطأة التخلف[146]..

143– نقتطف نصا من نصوص الروائي الإسباني "رامون آييرا" للكشف عن هذا التوظيف:

"استنتج المسيحيون الذين كانوا ما يزالون قادرين على الحركة؛ إذ كان بعضهم ممّن أجهدتهم الحرب يحتضر في سريره، أنّ رائحة الطاعون تلك كانت تنبعث من سرير "المورو" الجريح، فدنوا منه، ومعدة أحدهم تكاد تنقلب لفرط عفونة "المورو" تابع محمد، لمّا شعر هذا الأخير بأن مشاكل كثيرة تنتظره، أخذ يتشبّث في حركات يائسة بأغطيته، ومع ذلك انتزعها المسيحيون عنه بحركة واحدة، وأمعنوا النظر في جسد هذا المتوحّش الذي كان عاريا تماما، فوجدوا بين فخذيْه، تحت خصيتيه وعضوه الذكري الضخم الحشفة، فمًا بشريا فاغرا عن أسنان ذهبية، كان رأس مسيحي استولى عليه المورو في انتظار أن يشفى وينزع حليّ عدوّه الميت".

رامون آبيير، رواية "نور الصباح الخافت"

Ramon Ayerra (1980), La tibia luz de la manana, Bercelona.

عن :**Juan Goytisolo(1981), p45**

144– نحيل القارئ إلى روايته البيوغرافية "التربية العاطفية" (**Education Sentimentale**).

145 – Garcia Garcia A (2001), Historias del sahara, el mejor y el peor de los mundos, Madrid, Libros de la catarata.

146 – Eloy Martin Corrales (2004), Ibid, pp241–254.

من هنا يتبين أن صورة "المورو" بجميع هذه الخطابات لا تخلو من تناقضات ومفارقات صارخة، ومن دلائل ذلك وجود ازدواجية من نوع آخر في النظر إلى "المورو"، وهي التي سنكشف عنها وعن دوافعها فيما يلي:

"المورو" وازدواجية الرؤية في الاستشراق الإسباني:

على غرار التمييز داخل الخطاب الاستشراقي الإسباني بين فريق متصلب وفريق معتدل، فإننا نرى كذلك أن ثمّة رؤيتين تسودان في المخيلة الإسبانية عن صورة "المورو":

- ❖ إحداهما: لوحة تصور "المورو" كمتوحش، مثير للرعب والاشمئزاز.
- ❖ والثانية لوحة المورو النبيل الشجاع.

فالمورو "تارة يكون موضوع حسد أو كراهية أو غيرة، وتارة أخرى هو صورة رومانطيقية، وأنموذج شديد الفتنة لمثال متعذر".[147]

بل نجد أحيانا الرؤيتين تتواجدان لدى المفكر نفسه، بل داخل النص الواحد، كما يتوضّح من أعمال الأديب آلاركون.[148]

إلا أنه نشدانا للموضوعية لا بدّ من الإشارة أن تفخيم صورة العدوّ (: المورو) ليس الغرض منه سوى تضخيم صورة الذات (الإسباني)، وأشعار عمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد وغيرهم من فرسان الجاهلية ولقطات أفلام "الويسترن" الأمريكية التي حرصت على تفخيم الهنود الحُمر المقهورين شاهدة على هذه النزعة.

ويرى الباحث الإسباني "إيلوي مارتن كورّالس"(**Eloy Martin Corrales**) أن ازدواجية الرؤية تجاه "المورو" جاءت بعد الانتصار الإسباني على مقاومة ساكنة جبال الريف وعلى المورو المنهزم، فهناك من جهة صورة المورو الصديق الحسن الهندام والمدخّن للسجائر الأوروبية، وهناك من جهة ثانية صورة البدوي الذي نُزعتْ قوارضه الحادّة من فمه المكشوف[149].

مصطلحات جنيسة لمصطلح "المورو":

147 – juan Goytisolo (1981) ; p 26.

148يقول "آلاركون" في أحد أعماله "ما كانوا (أي "المورو") ليزيدوا على مائة فارس، ومع ذلك فقد كانوا يملأون السهل كله. لم أرَ رجالا بمثل هذه الرشاقة طيلة حياتي، وهذه الفتنة. تصهل جيادهم وتدور وتعاود التفرّق.... برانس "المورو" البيضاء موّاجة في الهواء فكأنّ أبناء الصحراء يفردون أجنحتهم الفارهة للقائنا. يا لها من لوحة رائعة..". وسرعان ما أفضى القرْب منهم إلى تبدّل الرؤية، فهؤلاء المسلمون يعتون على النفور والتقزز، أكثر ممّا يثيرون الاهتمام" ومن بين الأعمال التي ضمنها "آلاركون" مواقفه من المورو "محادثة في جامع الحمراء"، "مورو من هذه الساعة"، "حسرة على المورو" "البُخارَى"

(انظر مثيلا لهذه الرؤية المزدوجة عند "غالدوس" (Galdos)"يوميات شاهد على حرب إفريقيا" "Diario de un testigo de la guerra de Africa").

149 – Eloy Martin Corrales (2004),نفس المرجع السابق

استخدم المستشرقون الإسبان مصطلحات عديدة للإحالة إلى العربي والمسلم، ونجد من أهمها:

– مصطلح "**موريسكو**" (**Morisco**) وهي التسمية التي نعت بها الإسبان من واصل الإقامة بشبه الجزيرة من العرب والمسلمين والبربر بعد عملية طردهم الأولى التي حصلت سنة 1492م، غالبية هؤلاء تنصروا مرغمين، وقد لجأت السلطات الإسبانية إلى طردهم في عملية طرد جماعية ثانية (ابتداء من سنة 1609م) بحجة عدم إخلاصهم للدين المسيحي وتعاليمه.

– مصطلح "**سرّاسينو**" (**Sarracino**): يُطلق على العرب والمسلمين الأندلسيين، تعددتْ التفسيرات في منشئ هذه التسمية، فثمة من أرجعها إلى الكلمة العربية "السرّاجين" في إحالة إلى الفروسية العربية المتميزة بالسروج الفائقة الصنع، أو إلى أشهر عائلة أندلسية وهي أسرة "بني سراج" ذات التاريخ الحافل في الأندلس. وهناك من أرجعها إلى لفظ عربي قدحي يعكس النظرة السلبية إلى جماعات مسلمي الأندلس، بحيث ردّها إلى لفظة "السرّاقين". والتفسير الالث في أصل هذه التسمية أنها تعود للفظة اليونانية القديمة "**Skênê**" (:ساكن الخيم)، ثم تحوّلت إلى اللفظة اليونانية "**Sarakênoi**"، ثم إلى اللفظة اللاتينية "**Saraceni**"، ثم الإسبانية "**Sarracinos**"، ثم الفرنسية "**Sarrasins**"[150].

– مصطلح "**المدجّن**" (**Mudejar**) وهي تسمية تحيل إلى مسلمي شبه الجزيرة الإيبيرية الذين تمسكوا بدينهم الإسلامي بعد سقوط ممالك الطوائف في يد القشتاليين والأراغونيين، ما عدا مملكة غرناطة التي ظلت في حكم بني نصر إلى حدود مستهل القرن الخامس عشر الميلادي. وقد قام "المدجنون" بدور هام في التعريف بمنجزات الحضارة العربية الإسلامية للفاتحين الجُدد، واستغلهم النصارى الوافدون في تشييد المنشآت الضخمة، وفي الزراعة والفلاحة.

كشف الغربيين عن مزالق الخطاب الاستشراقي غرضه تقويم الذات:

إن تنبيه بعض مفكري الغرب إلى مزالق هذا التهجّم على صورة الإسلام والمسلمين لا يعود أساسا إلى الدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية بقدر ما يعود إلى تقويم الذات وتصحيح القيم الغربية، والتحذير من أثر هذا الخطاب العدائي على الحرية والتقدم بالمجتمعات الغربية. ويُعدّ المستعرب "غويتيسولو" من جملة المفكرين الذين كشفوا في دراساته وإبداعاته عن حقيقة الاستشراق العدوانية، وعن خدمته لأغراض الدوائر الاستعمارية. ومع ذلك فالعربي المسلم مطالب بتمحيص الخطاب الاستشراقي والتمييز بين الموضوعي منه، والنرجسي الذي يستند إلى عقدة المركزية الغربية، مع استثمار الأعمال الفكرية التي أسهم المستشرقون في تحقيقها وشرحها والتعليق على حواشيها.

150– يشير مترجم كتاب خوان غويتيسول "Crónicas sarracinas" كاظم جهاد في مقدمة الترجمة أن هذا التخريج هو للمؤرخ الفرنسي "دومنيك سورديل"، كاظم جهاد(1997)، "في الاستشراق الإسباني"، مقدمة الترجمة، ص11.

فضل الاستشراق في إحياء ذخائر الأندلس:

لقد برع المستشرقون في استخراج درر التراث العربي الإسلامي من غياهب المجهول، وقاموا بتياراتهم المختلفة بدور كبير في التعريف بكنوز الحضارة الأندلسية الدفينة، نشرا وتحقيقا وترجمة. كما يتضح من جهود:

– المستشرق الهولندي "دوزي":

فبالرغم من تحامله على المسلمين في أكثر من مناسبة، فقد قام هذا المستشرق باستخراج نفائس كانت في منسية، ومن بين أهم الأعمال التي قام بها دوزي في هذا الميدان نشر كتُب "البيان المغرب لابن عذارى" و"المعجب" لعبد الواحد المراكشي، و"الحلة السيراء" لابن الأبّار، و"نزهة المشتاق" للإدريسي، و"شرح قصيدة ابن عبدون" لابن بدرون.

– المستشرق الإسباني "دي جايانجوس":

عمل ممهد مدرسة بني كوديرا على تحقيق كتاب نفح الطيب للمقري، وانتهى من ترجمته إلى الإنجليزية، ونشره سنة **1841** ميلادية، وقد فضل اللغة الإنجليزية على اللغة الإسبانية في سبيل تعريف أشمل لأهمّ مصنف يعرّف بأعلام الحضارة الأندلسية.

– المستشرق الإسباني "فرانسيسكو كوديرا زيدين":

أسهم هذا الباحث في نشر موسوعة أندلسية تضمّ نفائس أمهات المصادر بمساعدة تلميذه "خوليان ريبيرا"، ومن أهمّ محتويات هذه الموسوعة (المكتبة): "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي، "بغية المتمس" للضبّي، و"كتاب الصلة" لابن بشكوال، و"التكملة" لابن الأبّار، و"المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي"، و"فهرست ما رواه ابن خليفة عن شيوخه"..

– المستشرق الإسباني "خوليان ريبيرا":

علاوة على مساعدته "كوديرا" على نشر "المكتبة الأندلسية، فقد قام "ريبيرا" بتحقيق "ديوان ابن قزمان"، وكتاب "قضاة قرطبة" للخشني، و"تاريخ فتح الأندلس" لابن القوطية وترجمته إلى اللغة الإسبانية..

– المستشرق الإسباني "آسين بلاثيوس":

عمل على ترجمة أثر ابن حزم "كتاب الأخلاق والسير في مداواة النفوس"، ونشره بمدريد سنة **1928**، كما قام بنشر "كتاب الحدائق" لابن السيد البطليوسي سنة **1940**. وألف العديد من المصنفات المعرّفة بالدور الحضاري لمسلمي الأندلس من بينها:

– "الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية" (**Escatalogia musulmana en la Divina comedia**) (طبعات عدة بمدريد ما بين **1919** و**1938**).

– " الفيلسوف ابن باجة السرقسطي" (**Elfilosofo Zaragozano Avempace**)

– "ابن مسرّة ومدرسته" (**Aben Massarra y su escuela**)

- "المتصوف المرسي محيي الدين بن عربي –مونوغرافيا ووثائق-" (**El mistico Murciano Ben Arabi (Monographias y documentos)**

- "ابن حزم القرطبي وتاريخ الفكر الديني" (**Aben Hazam de Cordoba y su Historia de las ideas religiasas**).

– المستشرق الإسباني "آنخل خنثالث بالنثيا":

استمرّ هذا الباحث في خدمة التراث الأندلسي نشرا وترجمة، فقد نشر كتاب "تقويم الذهن في المنطق" لصاحبه أبي الصلت الداني، بمدريد سنة **1915**.

وقام بترجمة "قصة حي بن يقظان" للفيلسوف ابن طفيل إلى اللغة الاسبانية، ونشر الترجمة بمدريد سنة **1924**.

على أن أشهر مؤلفات هذا المستشرق كتابه "تاريخ إسبانيا الإسلامية" (**Historia de la Espana musulmana**)، طبع ببرشلونة سنة **1945**، وكتاب "تاريخ الأدب العربي بإسبانيا" (**Historia de la literatura arabico-espagnola**) وترجمه إلى العربية حسين مؤنس. بعنوان "تاريخ الفكر الأندلسي".

– المستشرق الإسباني "جارسيا جومز":

سار على منوال أتباع مدرسة بني كوديرا في التعريف بالمنجزات الحضارية للفكر الأندلسي، ومن أشهر آثاره:

- "رسالة في فضل الأندلس" للشقندي (تحقيق وترجمة) (**1933**)،
- "تعليقات على القصيدة المقصورة للقرطاجني" (**1933**)،
- "قصائد مختارة من الشعر الأندلسي" (**1940**)،
- "تحقيق ديوان أبي إسحاق الألبيري" (ترجمة وتعليق) (**1942**)
- "رايات المبرزين وشارات المميزين" لابن سعيد (تحقيق وترجمة) (**1942**)،
- "كتاب الأخلاق والسير" (ترجمة) (**1942**).

– المستشرق الفرنسي "ليفي بروفنسال":

من خدمات هذا اليهودي الفرنسي –المزداد بالجزائر– للتراث الأندلسي:

- نشر الجزء الثالث من كتاب "البيان المغرب" لابن عذارى (**1930**)،
- نشر كتاب لسان الدين ابن الخطيب "أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام" (الرباط **1934**)،
- نشر كتاب "الروض المعطار" للحميري، مع ترجمته إلى الفرنسية (لايدن **1936**)،
- نشر "جمهرة أنساب العرب" لابن حزم (القاهرة **1948**)،
- نشر كتاب "تاريخ قضاة الأندلس" للنباهي (القاهرة **1948**).

ونشير في هذا المقام أنّ تحقيق التراث الأندلسي لم يتحقق على يد هؤلاء المستشرقين خدمة للحضارة العربية الإسلامية، وإنما جاء لنفض الغبار عن تاريخ إسبانيا الإسلامية بغرض المفاخرة بعطاءاتها أمام الأمم ذات الرصيد الحضاري الكبير.

وكما قال المرحوم عابد الجابري (**1985**): "يجب أن نكون واعين.. بأنّ اهتمامهم (:المستشرقين) بهذا التراث سواء على مستوى التحقيق والنشر، أو على مستوى الدراسة والبحث لم يكن في أية حال من الأحوال، ولا في أيّ وقت من الأوقات، من أجلنا نحن العرب والمسلمين، بل كان دوما من أجلهم هم. وإذن فيجب أن نتعامل معهم على هذا الأساس. وإذا شعرنا في وقت من الأوقات بضرورة الردّ عليهم فيجب أن يكون ذلك لا بصبّ اللعنات عليهم من الخارج بل بتحليل فكرهم من داخله والكشف عن دوافعه وأهدافه".[151]

على سبيل الختم:

نتيجة كل هذه الجهود –وقد اقتصرنا على ذكر بعضها فقط– وبغضّ النظر عن الخلفيات الإيديولوجية للخطابات الاستشراقية المريبة، فإن الدعوة إلى حظر الاطلاع على نتاج المستشرقين في العصر الراهن شبيه بحظر فقهاء العصور الاسلامية الأولى الاطلاع على نتاجات الفلسفة الإغريقية. والأجدر أن نقتدي بنهج الفيلسوف ابن رشد في مقاربته الانتقائية للفلسفة اليونانية، فنستثمر في دراسات المستشرقين وتحقيقاتهم ما يستحق الاستثمار، وننبه إلى ما يتضمن معاداة للفكر العربي الإسلامي.

وقد تبين لنا أن الرؤية الشمولية لدى مستشرقي الاتجاه التاريخي شأنها شأن الرؤية التجزيئية لدى مستشرقي الاتجاه الفيلولوجي لم تستطع التخلص من عقدة المركزية الغربية، علما أن الرؤية الأولى تنطلق من رصّ الأحكام المسبقة، والرؤية الثانية تستند على مقاربة تجزيء النصوص وتفتيتها، واستخلاص ما يوافق هوى البمستشرق. وقد آن أوان خلق مناخ فكري يساعد على المثاقفة والتواصل بين سائر الحضارات الإنسانية بعيدا عن أيّ نزعة شوفينية.

151– محمد عابد الجابري (1985)، "الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية، طبيعتها ومكوناتها الإيديولوجية والمنهجية، مداخلة بندوة مناهج المستشرقين، المرجع السابق، الجزء الأول، ص335.

قائمة المراجع والمصادر

العربية:

- آنخل خنثالث بالنسيا (**1955**)، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، النهضة المصرية.
- إدوارد سعيد (**1984**)، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ذيب، الطبعة الثانية، بيروت
- حسين مؤنس (**1959**)، فجر الأندلس، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة.
- قاسم السامرائي (**1983**)، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، منشورات دار الرفاعي، الرياض- السعودية.
- عبد الله عنان(**1990**)، دولة الاسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- علي توفيق الحمد (**2001**)، نحن والمستشرقون مع دراسة تحليلية لأثر المستشرق دوزي في المعجمية العربية. مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد 15، صص **1-35**.
- خوان غويتيسولو (**1997**)، في الاستشراق الإسباني، ترجمة كاظم جهاد، نشر الفنك.
- محمد عابد الجابري (**1985**)، "الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية، طبيعتها ومكوناتها الإيديولوجية والمنهجية، مداخلة بندوة مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجزء الأول، صص: **307-337**.
- محمد عابد الجابري (**1998**)، "ابن رشد: سيرة وفكر، دراسة ونصوص- مركز دراسات الوحدة العربية، ط**1**.
- مصطفى الشكعة (**1985**)، مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية في الأندلس، عن ندوة: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الجزء الثاني- **صص275-340**.

الأجنبية:

- Charles- Emmanuel Dufourq (1978), La coexistence des Chrétiens et des Musulmans dans al Andalus et dans le Maghreb au X° siècle, in : Actes des congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public. 9e congrès,Dijon. pp. 209-224.
- Codera, F (1917), Estudios criticos de historia arabe espagnola, Madrid.
- Eloy Martin Corrales (2002), « La imagen del maghrebi en Espagna, una perspectiva historica », Siglos XVI- XX.
- Eloy Martin Corrales (2003) ; Relationes de Espagna con el imperio otmano en los siglos XVIII y XIX, en : Martin Asuero, Ed Turquia del enfrentamiento al analisis mutuo, Compte rendu des journées d'histoire, organisée par l'institut Cervantes d'Istanbul à l'université Bosphore, le 31 octobre, 1-2 novembre 2002, Editiones ISIS, p253-270.
- Eloy Martin Corrales (2004), « Maurophobie/Islamophobie et Maurophilie/Islamophilie dans l'Espagne du 19° siècle »- in : Revista CIDOB d'Afers internationales, n° 66-67, octobre 2004, pp241-254.
- Garcia Garcia A (2001), Historias del sahara, el mejor y el peor de los mundos, Madrid, Libros de la catarata.
- juan goytisolo (1981) ; Cronicas sarracinas, ed, Ruedo iberico, Madrid.
- Jules Lacroix de Marlès(1847), Histoire de la conquête de l'Espagne par les Arabes. Éditions A. Mame, coll. « Bibliothèque des écoles chrétiennes », Tours.
- Levi-Provençal (1951), Histoire de l'Espagne musulmane, 2 édition, Paris, 3 T.
- Lopez Garcia (1973), Contribucion a la historia del arabismo espagnol (1840-1917), oriontalismo e ideologia colonial a travès de la obra de los arabistas espagnols, Granada, thèse doctorale.
- Schacht, joseph (1953), The Origins of Mohammedan jurisprudence. Oxford.
- Simonet Francisco Javier (1987-1903), Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid.

الاستشراق نقطة اتصال الشمال والجنوب

الأستاذ: بن لباد الغالي

جامعة تلمسان

الحديث عن الاستشراق كظاهرة تمكنت من فرض ثقافتها على العالم العربي ، باعتباره عالما لم يتمكن من محاورة تراثه،ولم يتمكن من التحاور مع ثقافته المعاصرة .وأمام هذا الفراغ المعرفي وجد الاستشراق منبرا يمرر من خلاله خطابه الاستشراقي ، مستخدما في ذلك أرقى أدوات المناهج الحديثة ،ليتمكن من ضمان استمرار يته في هندسة الفكر العربي .

لذا نحاول معالجة هذا الموضوع وفق التساؤلات التالية :

- هل نستطيع أن نحقق الاستقلالية المعرفية دون الاستشراق
- هل القطيعة مع الاستشراق ، تمكننا من دفع الخصوصيات المعرفية العربية قدما إلى الأمام ؟
- هل فتح قنوات الاتصال والتواصل هي الطريقة لصناعة فكر عربي خالص ؟

وقبل الخوض في الإجابة عن هذه الانشغالات ، لا بد أن نتطرق لمفهوم الاستشراق مع العلم أن كل من يتحدث عن الاستشراق يقدم له تعريفا ، أو يمر عبر قنوات التعريف والتأريخ لهذا المصطلح وما طرحه من إشكالات في الساحة المعرفية الغربية والعربية.

لكن سؤركز في هذا المقال على تعريفين يخدمان هذه المداخلة ،أو الأفصح اعتبرتهما يؤصلان للفكرة التي أود أن أجسدها في هذا المقال والحقيقة أن عامة الجماهير تحاول أن تتعرف على الاستشراق .

وقد أورد له العلماء والباحثين أكثر من مئة مفهوم و تعريف ، لكن كل تعريف تعامل مع المستشرقين من وجهة خاص .

وإذا حاولنا الوقوف عند هذه التعريفات فالدكتور **حمدي زقزوق** يقول "هو المعني الخاص لمفهوم الاستشراق الذي يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه تاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه وهذا هو المعنى الذي ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي الإسلامي[1]

لا تختلف جماهير المثقفين حول هذا التعريف بالقدر الذي تختلف عنه حول نشأة الاستشراق ، وعدم وجود جواب في الثقافة العربية عن " لماذا اهتم الآخر بتراثه" فالذات العربية لا تزال لم تقبل هذا النوع عن الاستلاب وكأنها سلبت

منها عذريتها وانفضحت أمام أنظار الغربي وهي الحضارة التي كانت تنظر إلى أوروبا بالدونية والتخلف ، تصبح اليوم تحت مجهرها التجريبي ، وأصبح العقل العربي، وأفضل ما أنتجه بين أيدي هذا الدوني ،يشرحه ،ويحلله، ويدرسه، بالطريقة التي يراها مناسبة وبالمناهج التي يقول عنها حديثة ويقدمه للعالم في الوقت الذي يناسبه وبالطريقة العلمية التي تناسبه وقد أخذ الغرب من التراث العربي ما كان يهمه لينهض بحضارته، ثم عكف على دراسة كل التراث العربي ، ولم يكن بريئا في تلك الدراسات ، بل كان له هدف منها ففي المحطة الأولى ، يمكن أن نصطلح عليها بمرحلة الاتصال والانبهار بالعرب وكانت هذه الفترة هي الحاسمة في تاريخ أوروبا . وصفها أحد المؤرخين " فيذكرون مثالا له مغزاه العميق ودلالته الواضحة، ذلك هو البون الثقافي الشاسع بين الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي كان ينعم في ضلال حضارة متطورة وبين معاصرة شرلمان أعظم ملوك أوربا ، الذي كان أقرب إلى الأمية منه إلى النور وهذا بالرغم من اهتمامه بالثقافة ونشر التعليم " [2] مع العلم أن حال أوروبا قد ساء بعد وفاة شرلمان وتوصف هذه المرحلة بالعصور المظلمة لسوء أحوال الشعوب الغربية في هذه الحقبة بالذات و أدركوا أنه لا سبيل للخروج من ما هم فيه من تنكيل و ضعف إلا باتصالهم بالعرب و تعلمهم العلوم ، فرحلوا إلى العالم العربي يدرسون العلوم ، و يتعلمون الفنون ، و الصنائع ، و التجارة ، و شؤون التسيير ، و طرق العيش ، و أسرار البناء و التشييد ، ليعودوا بها إلى بلدانهم محاولين نشر ما تعلموه ، و من الصور التي يمكن أن ننقلها عن الغربي حين انبهر بالعربي أثناء الحروب الصليبية التي دامت سنتين فكانت الحرب نهارا .تضع في المساء أوزارها فتجمع الجثث و تدفن ، و يعالج المجروح و غيرها من السلوكيات التي كان يقوم بها المسلمون ، و من ثقافة المسلم أن لا يعتدي في الحرب على شيخ ، و لا على صبي و لا تقطع شجرة ، لا يقتل عجوز لا يقاتل إلا الجندي الذي يقاتله ، إنها سلوكيات أبهرت الإنسان الأوروبي و دفعته لتساؤل عن هؤلاء الأقوام ، فكانوا في المساء حين تضع الحرب أوزارها يراقب جنود الصليب ما يفعل جند المسلمين ، حين دفن الشهداء و الانصراف إلى الصلاة طيلة الليل ، و لاحظوا بشهادتهم (الغرب) مدى سماحة العرب و حبهم لبعضهم البعض و حزنهم لفقدان أحدهم ، و تماسكهم ، و تعاونهم و كرمهم ،... كل هذه الصفات الإنسانية تعلمها الغرب من العرب و هم الجنس الذي استطاع أن يحتوي جميع الأجناس البشرية .

وهذه شهادة من أحد المستشرقين يقول: فاسيلي بارتولد (Bartold) أن العرب عندما ادخلوا تحت سلطانهم أقواما كثيرين لم يفقدوا قوميتهم ، كما فعلت الشعوب الجرمانية في أوربا و المغول في آسيا ،بل أدخلوا غيرهم من الشعوب في قوميتهم.

المرحلة الثانية :

مرحلة الصدام

كان الصدام دينيا كما سبق و أشرنا إلى ذلك بالحديث عن الحروب الصليبية ، و حتى الشعار الذي تبناه الغرب هو الصليب،الذي لم يعد يحمل دلالة المسيحية فقط إنما يحمل دلالة التحدي و إذا حاولنا أن نعطي صورة لدلالة الصليب ، فإن القراءة الأمثل ترجح أن المسلمين صلبوا المسيحية و قضوا عليها و تطوروا حين تقلصت جغرافية المسيحية في المعمورة.

و تحول دلك إليهم كصدام ، بمختلف أشكاله .

و قد شهد الحقل المعرفي صدامات عدة و في مختلف العلوم ، لأن الغربي حاول أن يطمس بصمات العربي في إبداعه المعرفي ، و تنكر لجهود كل العلماء العرب الذين أمدوه و أوصلوا له المعرفة إلى أوروبا .

و لولا تلك النقلة التي أسست الفكر الغربي و أعطته مفاتيح العلم ، و الخبرة التي يحتاجها لماصنع الحضارة .

لا أعتقد أنه كان سيقوم بتلك القوة ، و قد شهد كثير من المستشرقين بدور العرب في حضارتهم ، و كثر هم الذين كلفوا بدراسة التراث الإسلامي فكانت آرائهم في البداية مهاجمة للدين الإسلامي ، كالمساس بالقرآن الكريم و النبي الكريم ، فاتهموا القرآن الكريم بأنه ليس كلاما مقدسا ، و أنه كلام البشر و غيرها من الهرطقات

أما اتهامهم لشخص الرسول فقد يتواصل إلى الفترة المعاصرة ، يقول فولتار في كتابه (تعصب محمد) (le fonutisme de mohamet) " النبي محمد عار الجنس البشري حيث إنه يجسد التعصب و النفاق و العنف ".و تعالت الأصوات من طرف المستشرقين الذين وصلوا إلى قناعة أن الإسلام يهدد وجودهم لا لأن خاتمة الرسالات ، و لا لأنه دين الحق و لا حتى لأنه يهدد المسيحية ببساطة لم يجدوا مساحة لأفكارهم إن إستمرت البشرية تعتقد في الإسلام وتعتنقه.

فرفعوا التحدي تحت مظلة أسموها المذاهب أو الأديولوجيا (كالشيوعية ، و الليبرالية و البراغماتية و العلمانية.....)

و كل هذه النظم توجت بنظريات ضخمة و مناهج أساسية اعتمدت لنجاح هذه النظم و لكن لا نجاح إلا بالقضاء على الفكر ، الذي اعتمدته البشرية و اعتبرته فكرا تقدميا، لذا طالت ألسنت الغرب على الإسلام ووضعت مخطط لاستئصاله بداية من الحملات التهجمية والمشوهة للإسلام كقول مونتسكيو " أن الإسلام استبدادي ، و متناقض مع الغرب ، و ذلك في أطروحاته "روح القوانين" " الرسائل الفارسية " و نقل عنه هذه الفكر " كارل و يتفوجل" في كتابه " الاستبداد الشرقي "[5]

و حاول الغرب في هذا المسار توخي الحيطة و الدقة و لم يكن عشوائيا أو مجرد آراء أطلقها بدون هدف ، .....وجهها إلى عمق الفكر الإسلامي ، حتى تضعف كيان الأمة الإسلامية معتمدا على مناهج تجريبية و مخابر

علمية ، نظريات دقيقة و لم يعد المثقف العربي في القرن الثامن عشر و التاسع عشر يتعامل مع الخطابات الجارحة للإسلام أو الرسول ، إنما أصبح يتعامل مع حقيقة استعمارية ، و انشغلت الأمة العربية من مرحلة الصدام المعرفي إلى مرحلة الصدام الجغرافي .

و هي أعقد مرحلة في تاريخ الاستشراق ، حيث عين هذا الأخير من طرف السلطة السياسية للقيام بمهمة الإطلاع على الثقافة العربية ، فبعثت الدول الغربية العلماء و المفكرين ورجال الدين و عسكريون يحققون و يدرسون ثقافات العالم الإسلامي " يقول أحمد درويش : " فلما أرادت معظم دول الغرب عقد الصلات السياسية بدول الشرق و الاغتراف من تراثه ، و الانتفاع بثرواته ، و التزاحم على استعماره أحسنت كل دولة إلى مستشرقيها فضمهم ملوكها إلى حاشياتهم أمناء أسرار ، و انتدبوهم للعمل في سلكي الجيش و الدبلوماسية إلى بلدان الشرق ، وولوهم كراسي اللغات الشرقية في كبرى الجامعات و المدارس الخاصة و المكتبات العامة ، و المطابع الوطنية و أجزلوا عطائهم في الحل و الترحال ، و منحوهم ألقاب الشرف و عضوية المجامع العلمية "[6] لهدف سياسي.

في هذه المرحلة باتت أطماع الغرب ظاهرة حيث أصبح له إرادة لتحقيق مخططه الاستعماري و في الحقيقة تحول " الصدام" من مرحلة الصدام الفكري إلى مرحلة الاستعمار الفكري .

حين تأكد الغرب بعد استفادته من التراث العربي ، و حله لمشكلاته المعرفية عن طريق الفلسفة الإسلامية ، و تمكنه بناء حضارة أُبهر بها العربي و أصبح يتوق للعيش تحت ظلالها وهي المحطة التي نصطلح عليها اسم " الاستلاب الفكري " فمرحلة الانبهار بالغرب و تمجيد أفكاره و الانصياع لمذاهبه ، و الاتصال به و تبني مبادئه و معتقداته بكل الجوارح ، وسع هوية الصدام بين أفراد المجتمع الواحد ، وهو ما يلاحظ علي النخب المثقفة التي أصبحت تنادي أو تتغنى بالمناهج أو المؤسسات الغربية ، فهي مسلوبة الإرادة ، مغتربة عن بيئتها و هذا أمر طبيعي لأنها تعيش بأفكار غيرها .

لكن مساحة فكرها تتحقق بالصدام الضمني ، لأنها تمرر خطابها سريا إلى المثقف الناشئ و تخاطب فيه الجانب العقلي ، و تقدم في البداية مسحا نقديا ماديا ، لكل الظواهر و السلوكات التي تعيق مخططها الفكري لأن مساحة فكرها تتسع إذا ضاقت مساحة فكر الآخر(الإسلامي) فعمدوا لجلب النخب إلى أوطانهم لبرمجتهم ، و صدروا عن طريق مستخدميهم ، مذاهب فكرية معاصرة كالإلحادية و العقلانية و العلمانية التي لا تمت بأي صلة لثقافتنا الاسلامية ، يقول السيد قطب " أوروبا اليوم تسيطر بكل قوتها على العالم كله مع السيطرة تتسرب مجموعة من الأفكار و المذاهب و المعتقدات بل الخرافات كخرافة الطبيعة الخالقة و المادة الأزلية الأبدية المتطورة ، فتنصب في أذهان الشعوب "[7]

ويخلص السيد قطب إلى سبب تبني هذه الشعوب لهذا النموذج الفكري : هو غياب البديل الذي يمكن أن بأخذ مكان هذه الأفكار أما الدكتور سعيدي في معالجته لمستقبل الثقافة الشعبية ، فإنه يحمل المثقف المسؤولية باعتباره المثل الأول

للثقافة يقول :" و لعل ما أدى بالمثقف العربي أن يتحرك بعيدا و منفصلا عن الكيان الثقافي الشعبي هي تلك الرؤية الايديومعرفية التحقيرية و المدمرة التي ورثتها عن المنظومة الاستعمارية التي كانت دائما تسعى إلى طمس و تشويه الكيان الثقافي العربي الأصيل" [8] و في غياب الفكر العربي الاسلامي الاصيل الذي يمكنه أن يشكل نقطة الصدام الايجابي ، أصبح الغرب هو السيد ، و المسود هم العرب و المسلمين ، و بطلوع شمس القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، لم يكتفي الغرب بسلب العقول انما سلب الخيرات [9]. الطبيعة من ثروات معدنية من الذهب والفضة والحديد والفحم ومصادر الطاقة فطور نفسه من خيرات هذه البلدان عن طريق حركة الاستعمار التي شهدتها الدول العربية ولم يكتفي بهذا السلب ،إنما من خلال حركة الاستشراق التي كلفها بنقل ودراسة الثقافات العربية والتي أطلقها في جميع أصقاع البلاد العربية دراسة لعاداتهم وطقوسهم وممارساتهم كما يقول الدكتور سعيدي شوه هذا الموروث الثقافي الأصيل : " سخرت إدارة الدول الاستعمارية لهذه المهمة طاقات بشرية معتبرة ، فكانوا في المدن والقرى و المد اشر وحضروا في الحفلات والمراسيم الطقوسية وشاركوا العرب في أفراحهم وفي أقراحهم .... غير أن علاقتهم مع مظاهر الثقافة الشعبية .العربية لم تقف عند حدود التسجيل والفهم و الاستثمار ... حيث انحرفوا بما سجلوه من مظاهر الثقافية الشعبية العربية انحرافا خاطئا وخطيرا فأخر ..... من قيمها الأصيلة وعوضوها بقيم غريبة من وحي خطتهم " [10]

يتضح من خلال القول أن مخطط الغرب كان الاستشراق هو اليد الضمنية الفاعلة التي درست وجمعت وخططت ونظرت لتشوية حتى ثقافة المواطن البسيط .

يقول **الأستاذ سعيدي** " لقد اتجهت المنظومة الفكرية الاستعمارية بالثقافة االشعبية اتجاها خاطئا وخطيرا حيث أفقدتها ماهيتها ودورها الريادي في الحفاظ على أصالة انتماء الشعب العربي " [11]

يقول أحمد سمايلوفيتش : " ومما لا ريب فيه أن هذه الفترة تعتبر من أ حر ج الفترات في تاريخ العا لم الإسلامي حيث تآمرت قوى الغرب والشرق معا للانقضاض عليه . انقضاضا كاملا ، ولم يواجه الإسلام خطرا شبيها بالخطر الذي واجهه آنذاك و هدده في الصميم " [12]

ومن بين العلماء الذين أشاروا إلى الاجتياح الفكري والاختراق المعرفي في الديار الإسلامية **أنور الجندي** " وخشي رجال الدين أن تضيع مكانتهم المقدسة .....فعمدوا إلى إرسال مبشرين إلى بلاد الشرق قاموا بإنشاء المعاهد والمدارس لاجتذاب المسلمين إليها .... ويهدف المخطط التبشيري إلى تشويه الثقافة الإسلامية والتراث العربي الإسلامي.

- إفساد الخصائص القومية في البلاد الإسلامية .
- خلق تجاذب روحي وشعور بالنقص مما يؤدي إلى الخضوع للمدينة الغربية .

- توسيع رقعة الخلاف بين الطوائف والمذاهب الإسلامية والمذاهب الغربية والصراع بين الأديان.
- اعداد شخصيات عربية لاتقاوم النفوذ الأجنبي [13] هذه مختلف الشيع الغربية التي تبنت الحقول المعرفية ومن بينها الاستشراق لأجل اقتحام العالم الإسلامي وتحويله إلى عالم صدام. ونلاحظ حتى هذه اللحظة أن نظرة الاستعلاء عند الغرب أصبحت فنا يمارسه في كل لقائه أو خطابه أو حديثه و حتى حين يظهر في الوسائل السمعية البصرية .يدعى العلمية والموضوعية ،و يتزعم التفوق العنصري والثقافي (للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي) [14] وعلى الرغم من أنه يدعى في كل محطاته أن الصراع ليس دينيا إلا أنه هو من يحارب الثقافة الإسلامية ويعمل على تشوهها وإزالتها وتعويضها بالثقافة العالمة ولكنه في الحقيقة يعوضها بالثقافة الأسطورية والخرافية. إن منطق الصدام والصراع أصبح مفروض عل كل فرد يعتنق الإسلام باعتباره يشكل مساحة للفكر المتدين .الذي يشكل بدوره خطرا على تقلص مساحة الفكر العلماني أو البراغماتي أو على العولمة ، وغيرها من الأفكار الجديدة التي تفرض على الشعوب. وبالتالي يتحقق وجود وحضور ، وهوية الغرب من خلال هذا الاعتناق وذالك الانبهار .
- المرحلة الثالثة :الحوار آلية التوافق .

ليس من اليسير تأسيس ثقافة الحوار والسلم و التسامح والحب ، كل هذه القيم بأسمائها البسيطة ترسم معالم الحياة المتزنة وترسم أسس الحضارة إذا أضفنا إليها الصدق و العدل ، كأساسين محوريين في معادلة قيام الحضارة .

وقد تتجسد كل هذه العوالم مجتمعة في مجتمع الحضارة دون شعور منه بأنه يمثل النموذج المصدر لهذه القيم من خلال ممارساته و سلوكاته ، و طقوسه و احتفالاته و اعتقاداته . و هو كذلك لا يدري في كثير من الأحيان أنه يمثل مرجعية فكرية أو ثقافية ما . أصولها تمتد في عمق تاريخ أجداده ، أو مرجعية دينية نقلت إليه عن طريق التنشئة ، و قد تحدد هذه المرجعيات نموذج الإنسان ، كما تحدد هويته المعرفية و سلوكاته ، لذا نلاحظ أن المجتمعات العربية تحاسب مواطنيها و تعاقبهم حسب ما اقترفوه من سلوك مخالف للنظام ، أو مخالف للقوانين ، و لا تحاسبهم و تحاكمهم بمرجعياتهم ، سواء التاريخية أو الدينية و حتى الثقافية ".

لكن المؤسسة الغربية و لا أقول الحضارة الغربية حين تتعامل مع المجتمعات الإسلامية فإنها تحاكمها و تحاسبها على أساس مرجعياتها الدينية فتحمل الإسلام مسؤولية سلوك فرد واحد . و إن كان الإسلام بريء من كل ما نعت به من طرف الغرب لكنه ظل يكيل بهذا المكيال إلى حد الساعة لأنه (الغرب) اعتمد على مدونة المستشرقين أو لنقل سلم القياس الاستشراقي في تصنيف المجتمعات الإسلامية.

تقول الدكتوره عقيلة حسين :" هكذا يحكم على التسامح و الحوار الإسلامي باسم التسامح الغربي و هكذا يكون الاستشراق القاعدة و الخلفية الفكرية لكل ما من شأنه أن يؤسس حوارا بين الحضارات قائم على الاحترام و حسن الظن في الآخر ، فهذا المستشرق يريد أن يحذر الغرب من حوار الشرق لأن هذا الشرق متعصب و لا يحسن الحوار ." (15)

– يعتمد الغرب اعتمادا على المرجعيات الاستشراقية في تقدم العالم الإسلامي و لم يتخلص من تلك الاستمارة أو الوصفة التي قدمها له المستشرقين ، و إنه لزمن لابد أن تتقارب فيه الذوات لتؤسس لثقافة مستقبلية أساسها الحوار ، فإننا نفترض منهج الحوار و آليات الاتصال ، و التخلي على العقلانية و المذاهب التي صنفت و اتهمت الشعوب بدون محاكمة ، إننا حين نعود إلى تاريخ البحر المتوسط فإننا نلمس ذاك الالتفاف الإسلامي المسيحي الذي كان بين القطبين :" إن القوة الإسلامية برزت في مظاهر حضارية متنوعة ، و صار البحر الأبيض المتوسط وقتئذ بحيرة للالتقاء الحربي أو السلمي بين العرب و الأوروبيين ، و للحوار الثقافي بينهما "(16)

تحدثنا في البداية أن الحديث عن الحوار مغامرة ، لأنه يحمل في طياته مشروع و مسؤولية تجاه الجيل القادم ، و اذا فشل هذا المشروع فإنها خيبة جيل ، و الحوار المستقبلي لابد أن يبنى على أسس روحية حتى يكون خطابه متينا و تواصله عميقا ، و لابد منذ البداية أن نراجع الذات ، و تتلخص من المرجعيات العقلية التي سيجت القلوب و العواطف و قلصت مساحة الإنسانية و الود والحب نحن بحاجة في هذا العالم و أكثر من ذي قبل إلى تواصل روحي بين الشمال و الجنوب .

الهـــوامـــش

(1) تاج محمد أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه – المنظور الاستشراقي في دراسة الأدب العربي – جامعة تلمسان 2007-2008 ص 3

(2) عبد الإله ميسوم : تأثير الموشحات في التروبادور – الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر سنة 1981 ص 103

(3) نفس المرجع ص 101

(4) ألكسي جورافسكي : الإسلام و المسيحية ص 100

(5) خضر بشارة: أوروبا و الوطن العربي القرابة و الجوار ترجمة بوزيف عبد الله – مركز الدراسات الوحدة العربية – بيروت 1993 ص 32

(6) نجيب العقيقي المستشرقون – دار المعارف القاهرة سنة 1964-1965 ص149

(7) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة دار الشرق بيروت الطبعة السابعة 1993 ص5

(8) سعيدي محمد ص 10

(9) نفس المرجع ص 10

(11) نفس المرجع ص 10

(12) أحمد سمايلوفيتش : فلسفة الاستشراق و أثره في الأدب العربي –دار الفكر العربي – القاهرة . الطبعة الأولى 1998م ص111

(13) أنور الجندي : الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب و التبعية – مكتبة الأنجلو المصرية ط (1) (د ت)ص 286

(14) أحمد غراب : رؤية إسلامية للاستشراق سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي ص 3

(15) عقيلة حسين : " المرأة المسلمة و الفكر الاستشراقي – دار ابن حزم للطباعة و النشر – بيروت لبنان الطبعة الأولى سنة 2004 ص 69

(16) عبد الإله ميسوم:(مرجع سبق ذكره) ص 103

الإسلام ومفهوم حوار الثقافات

الأستاذة منيرة بن نصيب

كلية العلوم السياسية والإعلام IIIجامعة الجزائر

1- مفهوم حوار الثقافات:

إن الأصل في الثقافة الإسلامية هو الانفتاح والحوار مع الآخر بوصفها ثقافة حوارية لا صراعية، تنطلق من مبدأ التجاوب والتواصل والاختلاف وقبول الرأي الآخر وتنتهي إلى التسامح والتفاهم والمصالحة والوئام والتضامن مع الغير. ذلك أن التحاور بالدرجة الأولى خاصية إنسانية والحوار معطى فطري واجتماعي مرتبط بالطبيعة البشرية ومطلب ملح يتجاوز حدود الزمان والمكان وخصوصيات الشعوب، لأنه يملك مفاتيح وأدوات التقدم والرقي والحضارة وبالحوار يتحدث الفرد مع خالقه ومع ذاته ومع الآخر من منطلق الإيمان بوحدة الإله والمعبود وبتعدد العابدين والموحدين للواحد الأحد مصداقا لقوله عز وجلّ في **سورة الإخلاص:**

بسم الله الرحمن الرحيم

"قل هو الله أحد (1)الله الصمد (2)لم يلد ولم يولد (3)ولم يكن له كفؤا أحد(4)"

صدق الله العظيم سورة الإخلاص: الآيات من 1 إلى 4

إن الطريق الأقصر والمنهج الأسلم لتكريس وتجسيد مفهوم حوار الثقافات هو العلم والمعرفة والتقصي واكتشاف الحقائق والتعمق في الدراسة والتفكير والتحليل للإلمام والإحاطة بكل مجالات الحياة الإنسانية وليس أدل على أن المدخل النظري والتطبيقي لنظرية العلم والمعرفة والثقافة على حدّ سواء من أول آية نزلت من القرآن الكريم على المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم في **سورة العلق:**

بسم الله الرحمن الرحيم

"إقرأ باسم ربك الذي خلق(1)خلق الإنسان من علق(2)إقرأ وربك الأكرم(3)الذي علم بالقلم(4)علم الإنسان ما لم يعلم(5)" صدق الله العظيم سورة العلق: الآيات من 1 إلى 5

إن الآية الكريمة تأمر بني آدم بالقراءة لما لهذا الفعل من أبعاد ثقافية وحضارية تسمو بالإنسان خليفة الله في الأرض إلى أعلى المراتب في تبليغ الرسالة الربانية وذلك بواسطة الحوار الذي هو في جوهره تفاعل إنساني.

وفي الحديث النبوي الشريف يقول صلى الله عليه وسلم: "اطلبوا العلم ولو في الصين"

وهي دعوة صريحة وأمر بطلب العلم بلا حدود ولا قيود وحث على التعاطي مع ثقافات وحضارات الأمم الأخرى المختلفة عنا في عاداتها وتقاليدها وأعرافها ولغاتها وألوانها وأجناسها، وفي هذا حجة دامغة على تحررنا الفكري وانفتاحنا على العالم بأسره.

وإن كان مصطلح **"صراع الحضارات"** قد نال نصيبه من التحليل والتفسير والنقد، فإنه يتعين علينا اليوم الخوض في مفهوم **"حوار الثقافات"** ودراسته ومناقشته واستقراء معانيه بوصفه تعبيرا ومضمونا فكريا ثقافيا إسلاميا أصيلا، يشكل على الدوام مصدرا للسلم والتسامح والتعايش والوئام والمصالحة بين الشعوب والحضارات.

في ضوء ما تقدم، تأتي الآية **13 من سورة الحجرات** لتؤكد أهمية الحوار والتعارف بين البشر من خلال قوله عز وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير(13)" صدق الله العظيم سورة الحجرات: الآية 13

يتضح من الآية الكريمة المقصد الصريح للشريعة الإسلامية في مسألة العلاقات الإنسانية التي تستوجب قيامها على أساس التعارف الذي يتجاوز مفهومه ومدلوله اللغوي إلى معنى أعمق وأوسع من حيث الارتقاء بالمعارف الإنسانية إلى أسمى وأعلى مستوى، فكلما تقاربت الشعوب وتعارفت وتفاعلت وتوحدت في إطار الحفاظ على خصوصياتها وهوياتها ومقوماتها وتنوع وتعدد ثقافاتها، كلما زالت وتراجعت أسباب الصدام والصراع والخلافات والتشتت والتمييز والتفرقة بينها.

نستشف من هذه الآية أيضا أن ثقافة التعارف ركن أساسي لتحقيق التعاون والتكافل والتضامن، فلو كنا جميعا متطابقين ومتشابهين في خلقتنا وأفكارنا وعاداتنا وتقاليدنا ولغاتنا وسلوكاتنا لما كانت هناك حاجة للتعارف فيما بيننا.

كما يتراءى لنا أن المولى تبارك وتعالى أشرك بني البشر جميعا في أب واحد وأم واحدة، وهذا أصدق برهان على عدم التفرقة والتفاضل والتباهي والتفاخر بين الأبيض والأسود والعربي والأعجمي والذكر والأنثى إلا بالتقوى، فكلنا لآدم وآدم من تراب **مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع:**

"أيها الناس إن ربّكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتّقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم"

إن الإسلام دين معاملة ويحترم الناس كافة بصرف النظر عن انتماءاتهم الاجتماعية، فالكل عند الله سواء ولا تمييز بينهم إلا بالتقوى.

من هنا تشكلت بين الشعوب والأمم قواسم إنسانية مشتركة وتلاقت وتكاملت خبراتها وتجاربها وروافدها الحضارية، بمنأى عن العصبية والعنصرية، فعُرف العرب بفصاحة اللسان، والفرس بالسياسة، والهنود بالحكمة واليونان بالمنطق والفلسفة، ليكون الإسلام بذلك المصدر الأساسي لـ **"طرح قضية المشترك الثقافي في دعوته للإصلاح والأخوة والمساواة والتكافل والتكامل والشورى".**[1]

2– خصائص حوار الثقافات من منظور الثقافة الإسلامية:

لقد ساهمت جهود الأولين في خلق مراكز إشعاع ثقافي وبناء علاقات إنسانية متينة، وفي مقدمتهم الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي أنشأ دار الحكمة وأسس فيها قلما للترجمة إلى جانب علوم الدين والبلاغة واللغة والنقد والتاريخ، فنقلت مدارس الترجمة المعارف من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية إلى اللغة العربية، كما ترجمت من اللغة الأصل إلى اللغات المذكورة.[2]

ومعنى ذلك أن "الثقافات تتعدد وتتصارع، وثقافة الأمة من عقيدة وتراث وآداب وفلسفة ولغة وفنون هي التي تكسبها خصوصيتها وهويتها، وتتميز بها عن غيرها من الأمم، وتصوغ مبادئها وقيمها، كما تحدد لها أسلوبها في التعامل داخل المجتمع، والثقافات على تعددها وتنوعها تتواصل في حالي تصارعها وتحاورها فتأخذ من الثقافات التي سبقتها ومن الثقافات التي تعاصرها، وتتأثر بها وتتفاعل معها".[3]

وهو ما يفند ما توصل إليه المفكر الأمريكي صمويل هنتنجتون من خلال تركيزه على أن عملية الصراع الحضاري تنشأ انطلاقا من تمايز وتباين الثقافات، وقد خلص إلى أن **"أسباب تجدد الصراع بين الإسلام والغرب يكمن في التساؤلات الأساسية للقوة والثقافة"**[4] وأن الثقافات الدينية هي المحرك والمؤجج للصدام بين الشعوب وحتى بين أفراد المجتمع الواحد.

إن اعتراف الثقافة الإسلامية بالآخر لهو أكبر دليل على قيامها على مبدأ حوار الثقافات والتعاون والتعامل والمشاركة بين جميع أصناف البشر على اختلاف عقائدهم وأعراقهم وأجناسهم.

وبناء عليه تتميز الثقافة الإسلامية كثقافة حوار بجملة من الخصائص أهمها:

– إنها ثقافة عالمية إنسانية تخاطب آدمية الإنسان وتدعو إلى الأخوة والمساواة.[5]

– إنها ثقافة حوار لا ثقافة صراع، تعتمد مبدأ التعددية واحترام آراء الغير، وتنبثق عن الاختلاف لتنتهي إلى الاتفاق والتوافق بين أطراف الحوار، وثقافة الحوار هي الأصل في التعارف والتقارب بين الحضارات والأمم.

– إنها ثقافة مرجعية وهي ثقافة وسطية واعتدال حيث تمثل حلقة الوصل بين ثقافات شعوب العالم وتضمن تلاقيها، **"فالثقافة جزء من الحضارة والحضارة تتضمن ثقافات متعددة".**[6]

– إنها ثقافة شورى، فهي تعتمد منهج الشورى كأسلوب للحوار والتفاهم والإقناع والاتصال والتواصل والتفاعل الحضاري. قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

"وأمرهم شورى بينهم" صدق **الله العظيم سورة الشورى: الآية 38**

– إنها ثقافة متوازنة تستوجب **"التفاعل من منطلق الندية والتكافؤ بعيدا عن الاستعلاء والاحتقار".**[7]

– إنها ثقافة نموذجية سمحة لا تتعصب لدين أو مذهب أو ملّة أو انتماء.

– إنها ثقافة التزام وأخلاق لقوله صلّى الله عليه وسلم:

"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"

وهذه الأخلاق متوارثة بين الأجيال والأمم رغم اختلاف ثقافاتها وديناتها ولغاتها، ورب العالمين هو الذي أمر البشرية قاطبة بحسن الخلق.(8)

– إنها ثقافة تنمية بشرية مستدامة، وهي ثقافة أمة واحدة مصداقا لقوله عز وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

"وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون(52)"

صدق الله العظيم سورة المؤمنون: الآية 52

فالمسلم الجزائري كالمسلم الأمريكي والياباني والسوري والفرنسي إذ لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى.(9)

– إنها ثقافة أصول وآداب وأخلاقيات الحوار، إذ يجب التحلي بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة والمفاوضة بالحسنى في عملية الحوار كما ورد في الآية **125 من سورة النحل من الذكر الحكيم**.

بسم الله الرحمن الرحيم

"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين(125)" صدق الله العظيم سورة النحل: الآية 125

وقوله أيضا في **الآية 159 من سورة آل عمران:**

بسم الله الرحمن الرحيم

"فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين(159)" صدق الله العظيم سورة آل عمران: الآية 159

3– المؤتمر الإسلامي ومسألة التنوع الثقافي:

– الإعلان الإسلامي حول التنوع الثقافي:

إن الإعلان الإسلامي حول التنوع الثقافي الصادر عن المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة المنعقد بالجزائر في ديسمبر 2004 جاء ليعزز مفهوم حوار الثقافات بين الشعوب، وهذه لمحة موجزة عمّا ورد فيه:

يتعزز اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، شعور بضرورة دفع الحوار بين الشعوب والثقافات نحو تحقيق الأهداف الإنسانية، فلا يمكن تصور أي تعاون بناء أو أي حوار حقيقي بين الحضارات والثقافات في عالم يتغير باستمرار دون الإقرار بمبدأ التنوع الثقافي.

ومن ثمة فلا بديل عن التربية على الحوار واحترام التنوع الثقافي وصونه باعتباره سبيلا للتعايش بين بني البشر، والتأسيس لمستقبل مشترك أكثر اطمئنانًا وتضامنًا.

يتطلب تعزيز الحوار بين الحضارات الذي أصبح اليوم قضية إنسانية دائمة الحضور في ساحة الفكر العالمي، لا ترتبط بفترة زمنية محددة، كما أضحى الحوار اختيارًا استراتيجيًا يفتح أمام الإنسانية آفاقًا واسعة لبناء عالم جديد، يتطلب ما يلي:

تدعيم التكافل بين الشعوب، ورعاية تنوعها الثقافي، بسلوك منهج قائم على الحوار المؤدي إلى زيادة الوعي بالقيم المشتركة بين الشعوب جميعًا، وبلورة مفهوم إنساني لتعزيز هذه المبادئ ونشرها، وتعبئة القوى الحية حكومات ومنظمات وهيئات شعبية في العالم الإسلامي لهذا الغرض.

المبادئ والأهداف:

المادة 1 – مميزات التنوع الثقافي وحوار الحضارات

إن الثقافات والديانات مدعوة اليوم أكثر من أي وقت مضى، للحوار الدائم وتعزيز التعايش، وإغناء بعضها بعضًا، بعيدًا عن كل توتر أو احتقار، وَعَبر سلسلة من الإسهامات المتبادلة المبنية على القيم والمبادئ الكونية المشتركة بينها، والمتمثلة في قيم الحب والإخاء والتسامح والاحترام المتبادل والتضامن والعدل، وهي قيم ومبادئ

كونية ينبغي الارتقاء بها وترسيخها في الضمائر والسلوك، باعتبارها إرثًا إنسانيًا مشتركًا،

وذلك عبر حوار حقيقي بين الثقافات والديانات.

ولا يمكن تصور تعاون بّناء أو حوار حقيقي بين الثقافات والحضارات دون الإقرار بمبدأ التنوع الثقافي فلا بديل عن الحوار للمحافظة على التنوع الثقافي والتعددية الثقافية.

وانطلاقًا من ذلك، علينا التمسك بذاتيتنا الثقافية وهويتنا الحضارية والدفاع عنهما، في إطار التفاعل مع الثقافات والحضارات الأخرى، وعلينا كذلك مراجعة أسس النظرة إلى الآخر والابتعاد عن الصور النمطية للشعوب وثقافاتها وحضاراتها ؛ فالحوار ندًا لند بين الأمم والشعوب يتطلب منا الجرأة لمراجعة النفس دون التنكر للهوية الدينية والثقافية، فباعتبار الإسلام منهجًا ربانيًا وسلوكًا إنسانيًا، يرى المسلمون أنه مادامت الثقافة تعبيرًا عن عبقرية شعب، فلا وجود لثقافة راقية أو ثقافة منحطة ؛ فلكل ثقافة عبقريتها الذاتية وغناها المتميز وحكمتها الخاصة، مما يتطلب التأكيد على ما يلي:

– أن تنوع الثقافات والحضارات نعمة من الله، وأننا بصفتنا مسلمين، نضطلع برسالة

إنسانية الغايات في تركيز أسس السلم العالمي، وعلينا أن نمد أيدينا للتعاون مع جميع الحضارات الإنسانية لما فيه الخير للجميع.

– أن التنوع الثقافي ثروة ينبغي أن لا تكون مصدرًا للنزاع والتوتر ونبذ الآخر، بل سبيلا إلى توسيع الأرضية المشتركة ودعم فرص التوافق والتلاقي وتقليل الفوارق وحل النزاعات بالطرق السلمية.

المادة 4 – مساهمة الثقافة والحضارة الإسلاميتين في إغناء التنوع الثقافي

إن الثقافة الإسلامية، وكما يشهد التاريخ بذلك، هي ثقافة تقدم وإبداع وعلم وعمل، احترمت دائمًا التنوع وتعاملت معه، وقد ظل تنوع الثقافات والحضارات وتعايشها داخل الرقعة الجغرافية الواسعة التي يدين أهلها بالإسلام، على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم وحضاراتهم الخاصة، خير دليل تاريخي على ثقافة الحوار والتسامح التي ينادي الإسلام بها دائمًا، وتستلهم مختلف الأجيال الإسهامات المتعددة للأمة الإسلامية، وحملها لمشعل حضارة سعت دائمًا لتحقيق الإضافة، وعملت من أجل التقدم والسلام والرفاهية المادية والمعنوية، من منطق الإغناء والإضافة، وبما حملته من قدر كبير من العلوم والمعارف في مختلف المجالات.

المادة 6 – التنوع الثقافي والمنظور الإسلامي لحقوق الإنسان ولثقافة العدل والسلام

اعتبار الحق في التنوع والتعدد الثقافي والاحترام المتبادل للمقومات الحضارية والثقافية شرطًا لا غنى عنه للحوار المتكافئ والتعايش السلمي ودعم منظومة الحقوق الثقافية للشعوب.

المادة 7 – التنوع الثقافي والإبداع

يتطلب صون التنوع الثقافي عملا دؤوبًا يشمل توجيه السياسات الثقافية توجيهًا مناسبا، ودعم مشاريعها ومبادراتها، والنهوض بالصناعات الثقافية وتنميتها، ودعم الفاعلين والمبدعين الثقافيين، وصيانة الممتلكات والخدمات الثقافية، إضافة إلى مراعاة جميع

أشكال التراث الثقافي، سواء كانت مادية أو غير مادية، وتعزيز القدرة على الإبداع والتواصل على الصعيد العالمي والوطني والإقليمي، لاسيما من خلال اعتماد شراكات بين القطاع العام والخاص والمجتمع المدني، انطلاقًا من توجه يقوم على التأصيل

والانفتاح، وينبغي أن يساهم الأخذ بناصية تكنولوجيا الإعلام والتواصل الجديدة في إغناء اللغة العربية ولغات الشعوب المسلمة، من أجل الرقي بها لمواكبة المستجدات العلمية على الصعيد العالمي، كما يجب أن تساهم الترجمة، في تشجيع التفاعل والتبادل الثقافيين ونقل المعارف والتقنيات الحديثة، خاصة تلك المتعلقة بتقنيات المعلوماتية والنهوض بالموروث الثقافي.

دور الدول الأعضاء

إدراج موضوع التنوع الثقافي والحوار بين الحضارات محورًا في برامج الاحتفال بالعواصم الثقافية الإسلامية.[10] وهو ما سعى إليه القائمون على الملتقى الدولي **"الإسلام والاستشراق وحوار الثقافات"** وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور السيد محمد سعيدي والأستاذ الدكتور السيد محمد ملياني والأستاذ الدكتور السيد الغالي بن لبّاد، فلكم خالص التحية وجزيل الشكر وعظيم الامتنان والتقدير والاحترام والعرفان على المجهودات الجبارة التي بذلتموها لإنجاح الملتقى.

4- حوار الثقافات من خلال وسائل الإعلام السمعية البصرية:

"إن الثقافة مفهوم جماعي يشير إلى الممارسات المشتركة بين أفراد المجتمع من عادات وتقاليد ولغات وأديان وغيرها من الثوابت والمقومات".[11]

ومن المؤكد أن إثراء وإغناء الهويات الثقافية والحضارية للأمم مطلب وأولوية يفرضهما عصر المعلومات والسمعي البصري نظرا لأهمية وحيوية وقوة الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام الجماهيرية وفي صدارتها التلفزيون في تحقيق أهداف الشراكة بين دول شمال وجنوب حوض البحر الأبيض المتوسط الرامية لتشجيع سبل التقارب بين شعوب المنطقة وتغيير النظرة إلى الآخر وترقية التنوع الثقافي انطلاقا من تعميق ثقافة الحوار بين ضفتي المتوسط وفعالية التعايش والتكامل بين الطرفين، ما من شأنه خلق مكانة متميزة لكليهما في الفضائين المتوسطي والعالمي.

وإن كانت وسائل الاتصال السمعية البصرية لاسيما التلفزيون من أهم عوامل إرساء قواعد السلام والتضامن بين الأمم باعتباره **"أحد أشكال القوة الثقافية ومصدرا لهويات متعددة ومتنافسة"**[12]، فإنه على الفرد مساندة وتأييد مسألة التنوع الثقافي وتقدير في الوقت ذاته خصوصيات وهويات الشعوب.

وفي هذا الإطار اقترح عدد من الباحثين أثناء مشاركتهم في الندوة الدولية حول وسائل الإعلام السمعية البصرية والمنعقدة بالجزائر مابين 13 و14 أفريل 2002، ما يلي:

- وضع تصور لرؤية مشتركة لدور وسائل الإعلام والاتصال وقطاع السمعي البصري على وجه الخصوص. ويتم ذلك عبر تقريب التشريعات والقوانين لإحداث التوازن بين دور الدولة ودور القطاع الخاص.
- ضرورة العمل على ضبط استراتيجية متناسقة تشمل قطاع السمعي البصري كصناعة وثقافة في آن واحد.
- ضرورة إنجاز أعمال سينمائية مشتركة وبرامج تلفزيونية وإذاعية وإنشاء إذاعة وتلفزيون متوسطيين يكونان جسر الربط بين بلدان حوض المتوسط.
- إبراز خصوصيات شعوب المنطقة من خلال مضامين سمعية بصرية يتم تبادلها في إطار الشراكة الأورومتوسطية، وهي محتويات تكشف عن ثراء المتوسط تاريخيا وثقافيا وحضاريا.[13]

وفي السياق ذاته، سطر الاتحاد الأوروبي في الفترة الممتدة ما بين سنتي 2008 و2012 برنامجا خاصا بمجالي الثقافة والسمعي البصري في إطار الشراكة بين بلدان البحر الأبيض المتوسط، ويهدف هذا البرنامج إلى:

– خلق حوار ثقافي من خلال تطوير الميدانين السينمائي والسمعي البصري في الدول الشريكة، والعمل على إنشاء أسواق تضمن مكانة متميزة لأفلام دول جنوب المتوسط في المشهد السينمائي العالمي.

– تشجيع عملية التنسيق والتعاون بين منتجي وموزعي الأعمال السينمائية، وتسهيل سبل الإنتاج المشترك.(14)

– إنشاء مؤسسة "أنّا ليند" الأورومتوسطية للحوار ما بين الثقافات، وهي أول مؤسسة تعنى بهذا المجال وسيتم تمويلها من قبل كل الدول الأعضاء في الشراكة الأورومتوسطية.(15)

السيدات الفضليات، السادة الأفاضل نتحمل اليوم جميعا مسؤولية إحياء وتجديد ثقافة الحوار التي دعا إليها ديننا الحنيف منذ 14 قرنا من الزمن، وقبل أن تنادي بها هيئة الأمم المتحدة عبر إعلانها عام 1995 سنة للتسامح وإقرارها عام 2001 سنة للحوار بين الحضارات، واعتماد المؤتمر العام لليونسكو عام 2001 أيضا الإعلان العالمي حول التنوع الثقافي وتعزيز مفهوم الحوار بين الحضارات.

ختاما، نرى أنه لابد – ونحن نتناقش بخصوص موضوع حوار الثقافات والأفكار والمعارف – أن نتكلم في المستقبل القريب عن **حوار المجتمعات** في أبسط صورها الإنسانية لأن المجتمع وفقا لوجهة نظرنا هو مصدر ونواة كل تفاعل ثقافي بوصفه حجر الأساس الذي تنبني عليه كافة العلاقات والروابط الاجتماعية والحضارية على حدّ سواء وخير ما أنهي به حديثي هذا قوله عز وجل: **بسم الله الرحمن الرحيم**

"**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير(13)" صدق الله العظيم سورة الحجرات: الآية 13**

قائمة الهوامش:

1–عبد الله، التطاوي، "**الحوار الثقافي مشروع التواصل والانتماء**"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2006، ص .32

2–المرجع نفسه، ص 39 (بتصرف).

3–ناصر الدين، الأسد وآخرون، "**حوار الحضارات والمشهد الثقافي** "، المطابع المركزية، دار فارس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، 2004، ص 29.

4–صموئيل، هنتنجتون، "**صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي**"، ترجمة مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف،الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، مصراته، ليبيا، 1999، ص .374

5–أحمد، فراج وآخرون ، "**خصائص الثقافة العربية الإسلامية في ظل حوار الثقافات**"، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 2006، ص 65.

6–المرجع نفسه، ص .136

7–عبد الله، التطاوى، مرجع سابق، ص .37

8–أحمد، فراج وآخرون، مرجع سابق، ص .64

9–المرجع نفسه، ص 59.

0–1http://**www.isesco.org.ma**

11–كاريس، باركر، "**التلفزيون والعولمة والهويات الثقافية**"، ترجمة علا أحمد صلاح، مجموعة النيل الثقافية، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 2006، ص .271

12–المرجع نفسه، ص .271

13–ندوة دولية، "**وسائل الإعلام السمعية البصرية: عوامل للحوار والسلام في حوض البحر الأبيض المتوسط**"، 13-14 أفريل 2002 بالتنسيق مع المؤتمر الدائم للوسائل السمعية البصرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، جامعة الجزائر، كلية العلوم السياسية والإعلام، مؤسسة التلفزة الوطنية الجزائرية، دار هومه للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص ص 110-111.

EuropAid: **our Neighbours**: **Panorama of regional programmes and 14 Projects in the Mediterranean Countries**, european commission – publication office, Brussels, 2010, p 45.

–15 Ibid: p 47

الاستشراق مصنع إمداد فكري
لمواد الغزو الثقافي

د.عبد القادر بن عزّة

جامعة تلمسان– الجزائر

توطئة:

يخطئ من يعتقد أن كتابات المستشرقين على اختلاف ألسنتهم إنّما تكتب على سبيل القصد إلى المتلقي العربي، فلم يطمح يوما أي مستشرق أن تحمل أعماله توجها أو تعليما لأبناء المسلمين، فقصارى ما رامه هؤلاء أن يقدموا تماثلات هذه الثقافة إلى أقوامهم، ولكن حدث عندنا أن أصبحت كتبهم التي نفخوا فيها كثيرا من سمومهم، مرجعا لعلماء وأدباء الأمة، يعتمدون عليها، وموئلا يذوذون عنه، ومنبعا يرتوون منه[30]، فحاولوا بذلك إقامة أعمدة هذا الصرح على إنتاج هؤلاء المستشرقين، فسقطوا، وأردفوا معهم أجيالا مازالت تشعر بالضياع والأكثر منه الاستلاب الحضاري[31].

لكنّ صوت بل أصوات أحرار هذه الأمة لم تخفت لحظة عن الإشارة والتنبيه إلى حقيقة جذور الظاهرة التي قدمت المدد المستعمر والعمالة الثقافية لأصحاب التنصير وأدوات الغزو الثقافي لتحطيم معالم العقيدة، وإحداث تصدعات في الأعمدة الأساسية للشخصية الحضارية التاريخية. وما كثرة المراكز الدراسية المهتمة بشؤون الدراسات الشرقية[32] المختصة بالعالم الإسلامي إلا دليلا قاطعا على تتبع صناع القرار في الغرب المسيحي ما يجري عندنا لتحليله ودراسته ومحاولة مقارنته بالأصول الثقافية التاريخية والمنابع العقائدية لتبني على أسسه خطط ثقافية واستراتيجيات اجتماعية.

المصنع الفكري الاستشراقي بين الإنتاج والإمداد

قدرت بعض الدوائر العلمية عدد الأبحاث التي قدّمها المستشرقون من مطلع القرن 19 إلى منتصف القرن العشرين بنحو 60 ألف كتاب مست جوانب التاريخ الإسلامي على وجه الخصوص، فيما لامست الدراسات الأخرى جانب العقائد والمذاهب الفقهية والسيرة النبوية والأدب والفكر، وقد أرجع عبد العظيم محمود الديب القصد من وراء هذا التوجّه إلى تحقيق هدفين[33]:

الأوّل منهما: حماية الإنسان الغربي من أن يرى حقيقة نور الإسلام، فكانت طرقهم في ذلك، محاولة تبشيع صورة الإسلام وأهله، فكان فزعا يسوق حركة الاستشراق منذ نشأتها، فعمل على المحافظة لتوجيه وتعبئة أتباع الكنيسة، ووضعهم تحت الملاحظة دائما[34].

ثانيهما: دراسة الشرق جغرافيا وثقافيا، لتجلية ما خفي من أمر المسلمين من عادات، ومعاش، وطرائق التفكير، وخصائص الحياة وغيرها من الجوانب التي رأى فيها المستشرقون المنافذ الحقيقية لاختراق جسم الأمة الإسلامية "فكان المستشرقون جُند المسيحية الشمالية الّذين وهبوا أنفسهم للجهاد الأكبر، ووضعوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين في

حياة بدت تعجُّ بالحركة والغنى والصيت الذائع، وحبسوا أنفسهم بين الجدران المختبئة وراء أكداس من الكتب، مكتوبة بلسان غير لسان أممهم التي ينتمون إليها، وفي قلوبهم كلّ اللهيب المضني، الّذي في قلب أروبا، والّذي أحدثته فجيعة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام"[35].

فالزحف الصليبي على ديار الإسلام، أريد له أن يسير على بصيرة من أجل تحقيق أهدافه الكبرى، فكانت مهمة المستشرقين العمل على التعرف عن بلاد الإسلام، بُعيد الارتياد إليها، وتقديم الدراسة بعد الدراسة، حتى شملت مناحي الحياة جميعها، ونؤكد هذا الطرح بما نقله محمد قطب عن لسان أحد المستشرقين (روبرت بين) في مقدمة لكتابه (السيف المقدس) حيث قال: "إن لدينا أسبابا قويّة لدراسة العرب، والتعرف على طريقتهم، فقد غزوا الدنيا كلّها من قبل وقد يفعلونها مرة ثانية، إنّ النار التي أشعلها محمد لا تزال تشتعل بقوّة، وهناك ألف سبب للاعتقاد بأنّها شعلة غير قابلة للانطفاء"[36].

ومن نفس المصنع يستعمل الأمير الإيطالي (كايتاني) قبيل المدّ الاستعماري أن يجهّز على نفقته الخاصة قوافل عدّة لترتاد المناطق الإسلامية لرسمها جغرافيا ودراستها بشريا وثقافيا ليبيّضها في الأخير على صفحات تسعة مجلدات عنونها بـ (حوليات الإسلام) التي يستفتحها بقوله: "إنّه إنّما يريد بهذا العمل أن يفهم سرّ المهيبة الإسلامية التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين الأتباع في شتى أنحاء الأرض، ما يزالون حتى اليوم يؤمنون برسالة محمّد، ويدينون به نبيّا ورسولا..."[37].

فهذا إعلان رسمي، مصدره نظرة ترسم هدفها بدقة، ولا تريد أن تخطئه، والبداية عنده معرفة سرّ قوّة هذا الإسلام والعمل بعدها على تقويض قوائم هذه القوّة واحدة تلو الأخرى، وهذا "روجي غارودي" لا يخرج عن كنف هذا الاستنتاج حينما يعلن أن الاستشراق لم يكن حركة نزيهة منذ البداية إذ كان الهدف منه تنفيذ مشروع يرمي إلى إدخال المسلمين إلى النصرانية [38].

معاول هدم لا بناء

أشرنا في توطئة البحث إلى نقطة نخالها مهمة تمثلت في كتابات المستشرقين المختلفة، الموجه أصلا إلى المتلقي في الغرب لتعريفه بنمط تفكير أهل حضارة الشرق، فتاريخ البشرية قاطبة لا يذكر أن رجلا غريبا عن الأمة صار مسموع الكلمة في طرحه لتفاصيل التوجه الثقافي والأدبي على وجه الخصوص، فلم يقع أن أصبح رجل من خارج الثقافة الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية مسموع الكلمة حتى يعدّ من مصادرها ومراجعها المعوّل عليها ويدين له العلماء والأدباء بالطاعة والإتّباع، فهذه الظاهرة الشاذة في أصقاع العالم، نبتت عندنا، وعني بها حتى أصبح المستشرق يتبوأ منصب الأستاذية ويقدم الدرس تلو الدرس في أكبر جامعاتنا ومعاهدنا حول الدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي والأدب العربي.

ولتكتمل خيوط الدائرة في عمل هؤلاء، تكفل عدد من أبناء هذه الأمة بمواصلة الإمداد من مصنع المستشرفين، ونفثه في صفحات كتبهم وجرائدهم وهذا علي حسن عبد القادر يقول وبالحرف الواحد "لطلابه في الأزهر": "إنّي سأدرّس لكم تاريخ التشريع الإسلامي، لكن على طريق علمية، لا عهد للأزهر بها وإني أعترف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاما، فلم أفهم الإسلام، ولكنّي فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا..."[39]. وكان يقدم درسه نقلا عن كتاب المستشرق "جولد تسيهر"دراسات إسلامية، بحيث ينقل عنه عبارات وفقرات فيقدمها على أنّها حقائق علمية صحيحة.

ويؤكد عبد العظيم محمود الديب على أن فأس البلاء في قضية الاستشراق هو ذلك الوضع المقلوب العجيب الغريب ويعني اعتماد بني جلدتنا على أبحاثهم وعلومهم التي كتبت أصلا للمثقف الأوربي لا العلماء العرب، فسبب القضية من أساسها هو وجود هذا الوضع المقلوب، لولاه لما كان للاستشراق قضية عندنا أصلا، فمعاول الهدم بدأت صناعتها بداخل ورشاتهم، لتجد سواعد من الأدباء الباحثين العرب للعمل بها وتجربة مدى صلابتها في تربة الثقافة العربية الإسلامية خاصة في جانبها التاريخي والديني. والعجيب هو اعتماد أبناء أمتنا على كتابات المستشرقين في دراستهم، وأبحاثهم، وأعجب من هذا اتخاذهم أساتذة نجلس منهم مجلس التلميذ، ونأخذ عنهم العلم فيما يختص بتاريخنا، ومجتمعاتنا بل ودِيننا ولغتنا"[40].

وملامح الظاهر لم تكن بالأمس ممكنة، فقد مرّ على المسحيين في أروبا حين من الدهر كانوا يشدون فيه الرحال إلى الأندلس، ليتعلموا كتابهم المقدس، من عند علماء الإسلام في بلاد الأندلس، أمّا الآن وبعد تدشين مصنع الاستشراق أصبحت المواد المصنوعة فيه والموزعة في بلاد الإسلام رغم انتهاء مدّة صلاحيتها –تعلم أبناء المسلمين– فتخبرهم عن تاريخ أباءهم وأجدادهم، وتعلّمهم تفاصيل لغتهم، ودروب دينهم، حتى أمسى المصنع يستورد من الغرب من يدرسنا معالم التاريخ الإسلامي، وهم قوم لا يسمحون لأحد إذا لم يكن من أتباع دينهم بأن يتدخل فيما يتعلق بدينهم وتاريخهم ولو في أتفه الأمور.

ولم تكن هذه الطيور لتغرد وحدها، بل وجدت من يغرد معها من أبناء الأمة الإسلامية حتى صارت بعض الأوقات هي من تقوم بتسويق البضاعة غير المجزاة، بداية من الدراسات التاريخية[41]، لأن درايتهم بحقائق الأمور أحالتهم

إلى أهمية التركيز على الجوانب التاريخية للعالم الإسلامي، فهو لا يشكل الماضي فقط، بل هو علم الحاضر والنظر إلى المستقبل. فبقاء الأمة واستمرارها مرهون بمدى إثبات الحياة لضميرها التاريخي والعمل الدؤوب من أجل تركه دائم الاستيقاظ لأنّه يمثل من جهة أخرى عرض هذه الأمة وقد صدق أحمد شوقي حين قال:

مَثلُ قوم أَضاعُوا تارِيخهُم كَلقِيط عَيٍّ فِي الحيّ انتِسابا

وقد أوردت كثير من الصحف ومنها "الأهرام المصرية"[42] خبر تأزم العلاقة بين اليابان والصين عام 1982 بسبب أسطر في كتاب من كتب تاريخ اليابان المدرسية، أراد اليابانيون أن يغيّروها، فهددت الصين بشن حرب وبدأت في حشد جيوشها على الحدود بين البلدين.

وأصل الدرس أن بعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية ودخول الجنرال الأمريكي (ماكرتي) طوكيو المستسلمة، لم يشغله زهو الانتصار عن التفكير بمنطق المستقبل، فأرسل يستدعي من أمريكا بعثة تربوية تشرف على وضع برنامجا جديدا لمناهج التربية في اليابان لتضمن صياغة أجيال جديدة غير قادرة على إشعال فتيل الحرب من جديد، فكان عمل بعض اليابانيين على محاولة تغيير هذه المناهج، فنشبت خيوط الأزمة وقول المفكر مالك بن نبي يختزل كلّ خيوط النظرة إلى التاريخ مع الأزمة المشار إليها "إنّ نظرتنا إلى التاريخ لا تؤدّي إلى نتائج نظرية فحسب، بل إلى نتائج تطبيقية تتصل بسلوكنا في الحياة، فهي تحدد مواقفنا أمام الأحداث وبالتالي أمام المشكلات التي تنجم عنها"[43].

أمّا مغالطات المستشرقين اتجاه تاريخنا، فقد حملها الشاطئ كالزبد، لأنّهم أدركوا أن التاريخ الإسلامي هو في واقع الأمر الإسلام مطبقا ومنفذا، فتشويهه يؤدي بالضرورة إلى تشويه الإسلام وقد اعتمدوا في ذلك على مناهج وطرقا وزنوا بها إنتاجهم فجاءت بضاعتهم بخسة في ميزانها من جانبين اثنين:

أولا: التاريخ بين المنهج والشكل:

اهتمامهم بتاريخ الفرق الإسلامية وتثبيت الصراع بينها، والتركيز على عوامل نشأتها، ومحاولة إشارة إخبارها، بوضعها في بؤرة الشعور لدى الأمة الإسلامية، والشواهد على ذلك كثير نشير إلى ما خطته يد المستشرق "ألفرد بل" تحت عنوان الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا من الفتح العربي حتى اليوم، الّذي قدّم له عبد الرحمن بدوي حيث يتحدث عن الكتاب قائلا: "هذه دراسة في تاريخ الإسلام والفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، منذ الفتح العربي إلى اليوم، تمتاز بغزارة المادة وسعة الأفق والاستناد إلى المصادر الوثيقة رغم ندرتها في هذا الباب...".

ثم يستطرد مشيدا "ومؤلف الكتاب "ألفرد بل" من خيرة الباحثين الّذين توفروا على دراسة الشمال الإفريقي، واستلزم ذلك أن يعنى بدراسة الآثار... وكانت أوّل دراسة علمية نشرها في ميدان الدراسات الإسلامية "عن الجزية" سنة 1902 وقد نشرت في المجالات العلمية الاستشراقية وفي دائرة المعارف الإسلامية... وكان عزمه أن يُتبعه بمجلد ثان يحلل فيه مضمون الإسلام"[44].

هذا الّذي قدمه عبد الرحمن بدوي على أنّه من خيرة الباحثين يفتتح الفصل الثاني المعنون بـ"الفتح العربي وقيام الإسلام السنّي" بعنوان هامشي "أسباب نجاح الغزاة العرب في الشمال الإفريقي"، فيرجع أسباب هذا النجاح إلى نقطتين اثنتين:

الأولى: تنظيم الجماعات العربية البدوية الفقيرة تحت لواء الإسلام.

الثانية: الضعف السياسي والحربي والاجتماعي الّذي أصاب الدول المجاورة للجزيرة العربية[45].

فهو لا يتوانى في وصف الفتوحات الإسلامية بـ"الغزو العربي" عبر سطور كتابه، لينفث الكثير من سمومه حينما يأتي على ذكر القبائل البربرية والعربية، فيضع لها تقسيما عجيبا يفك أوامر البطون والأسر، مهما بلغت خيوط التواصل من قوّة بين أفراد هذه الجماعات المسلمة، فالإشارة إلى الطبقة التي مقتها الإسلام (تقسم القبلية إلى أشراف وغير أشراف، وعبيد...)، لدلالة واضحة على عدم صدق الرجل في منهجه وخطته الشكلية التي اقترحها في بداية تأليفه للكتاب. وللتأكيد على عملهم لتثبيت نفس الشكل المنهجي لكتاباتهم التي تصيب الأمة في معقل كبدها ومجمع هويتها يقدم "حنا الفاخوري" في كتابه –تاريخ الأدب العربي– الدراسات الاستشراقية على أنّها من بين أهم عوامل النهضة العربية الحديثة وهو كتاب موجه إلى الصف الثانوي، حيث تبدأ تبلورات الشخصية الفردية تتضح بشكل جلي لتشكل ملامح الشخصية الوطنية الجمعية، يقول مؤلفه "من أكبر العوامل في إحياء الآداب العربية اشتراك الأجانب أنفسهم في درسها ونشر كتبها... واشتدت تلك الحركة لانصراف الكثيرين إلى دراسة اللّغات السامية لأجل التعمق في فهم التوراة، ويستشهد "حنا الفاخوري" برأي عمر الدسوقي في عمل المستشرقين– تفرغ المستشرقون للبحث، ومنحتهم أممهم الوقت والمال ووضعت تحت أيديهم المكاتب العامرة بالأبحاث والمخطوطات النادرة، وكلّهم يعرفون عدّة لغات غربية وشرقية، فكانت من الطبيعي أن تتسم آثارهم بسيمات التحقيق والمثابرة، والاطلاع، والموازنة، ومراجعة الأصول والمخطوطات... وهذه حسنة من حسناتهم–"[46].

وامتدت خيوط هذه المغالطة المنهجية إلى كتابات بعض أدباءنا الّذين قدّموا الشيء الكثير للدراسات الأدبية وتاريخ الأدب العربي، واقتنعوا بضرورة تقسيم تطور الأدب العربي في مساره التاريخي إلى عصور وحقب زمانية على شاكلة ما قام به المستشرقون، فهذا عزّ الدين إسماعيل يذكر العصر العباسي "بأنّه عصر معقد بالغ التعقيد، ومتداخل في الوقت نفسه تداخلا مذهلا وفي بعض الأحيان مربكا، فكل الصراعات تمثلت في إطار الدولة العباسية منذ بدايتها، قد ظلت مستمرة حتى نهايتها، تخف وطأة بعضها حينا وتشتد حينا أو ترجع لغة أحد الطرفين... لكن عنصر الاستمرار يظل هو السمة البارزة للعصر كلّه..."[47].

وتشير كثير من الدراسات الإسلامية إلى اهتمام المستشرقين بتاريخ الزندقة وسيرة الزنادقة، ومحاولة إبرازهم في صورة أصحاب الفكر الحر، والأمثلة منتشرة بكثرة في ثنايا كتبهم "فهنري كربان" يعيش حياته مع رفيق عمره –على حدّ تعبير عبد الرحمن بدوي– (السهروردي المقتول) فيدرس كتبه ويترجم رسائله، ويحقق وينشر مؤلفاته فكأنّما وقع على كنز، وزّع محتواه فيما بعد على أسنة الأقلام المثقفين المعاصرين. لكن جوهر القضية يكمن في معاصرة السهروردي للحروب الصليبية فلم يتورع عن أخاييله، فقتل في زمن صلاح الدين الأيوبي قاهر الصلبيين ومحرر ديار الإسلام، فوجد فيها "كوربان" مادة دسمة للانتقام من "صلاح الدين" فهذا الّذي قهر الصلبيين هو نفسه قاتل "السهروردي" قهرا للرأي، وَوأدًا لحرية الفكر وعليكم أن تختاروا بين قهر الفكر وقهر الصلبيين، فلما راجت الفكرة، التقطها سلامة موسى فواصل المهمة قائلا: "ويجب أن لا ننسى أن السهروردي قتل بأمر صلاح الدين الأيوبي، فقد كان رجلا كرديا غير مثقف، واستطاع الفقهاء أن يؤثروا فيه، ويزينوا له قتل السهروردي..."[48]، وهكذا كان المنهج الاستشراقي في تقديم التراث الإسلامي والشخصيات الإسلامية التي حافظت على استقامة كيانه، واستمرار حياته.

ثانيا: المنهج بين استكمال الشروط والتزام القواعد:

الظاهر من وراء كتابات المستشرقين حول التاريخ الإسلامي أهدافا مسطرة آنفا، فبحوثهم تبدأ بتنفيذ غاية والوصول إلى تحقيق نتيجة يجب بالوصول إليها مقدما، إلى جانب عدم التخلص من الأهواء والنزعات وعدم التجرد للبحث النزيه، فنراهم في كتاباتهم يقدمون صورة من دأب وكدّ واستقصاء من أجل تنحية ما يهدم فكرته ويكذّب رأيه، فيخفي ويطمس ويتجاهل كلّ ما يسوقه من نتيجة غير التي حددها سلفا، لذلك تأتي تلك الأبحاث وعليها مسحة العناء والاستقصاء، لكنّه عناء الالتواء يقول محمود شاكر "وأمّا الأهواء، فهي الداء المبير والشر المستطير والفساد الأكبر إن هو ألمّ بأي عمل إلمامة خفيفة الدبيب،... حتى ولو جاءك هذا العمل في أحسن ثيابه..."[49].

وهذه الصورة المقلوبة منهجيا، عمل المستشرقون على تقديمها أنّها أحسن طريقة للتحليل مع التراث، فجاء سعيهم إلى صرف أنظارنا عن المناهج الإسلامية الأصيلة في مختلف العلوم عن طريق ما بثوه من أفكار حول تصور تلك المناهج في تعاملهم مع تراثنا، فالألماني "روزنسال" في كتابه "مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي" يركز على جهود ابن جماعة (ق.7هـ) في كتابه (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) إلى جانب جهود عبد الباسط العلموي (ق.10هـ) في كتابة "المعبد في أدب المفيد والمستفيد" ليخلص إلى انعدام المنهج عند العلماء المسلمين، ولم يقتصر الأمر

على المنهج بمفهومه العام بل سعى الرجل إلى نفيه حتى في أبرز الميادين التي اعتدّ بها المسلمون، وفي مقدمتها المنهج في النقد الأدبي الّذي نعته بالقصور لأنّه تجاهل المصادر التي تعتبر صميم النقد في فتراته الزاهية، مما جعله لا يقدم صورة موضوعية لحقيقة المنهج النقدي عند المسلمين وقد تفطنت عائشة عبد الرحمن إلى هذا الالتواء الخطير فأشارت إلى الخلط الّذي وقع فيه "روزنسال" حينما غاب عنه التفريق بين آداب السلوك المدرسي للعلماء والمتعلمين ومناهج البحث عند علماء المسلمين(50).

والغريب في الأمر أن يظل كتاب هذا المستشرق مقررا ومعتمدا في عدد من جامعاتنا في المشرق والمغرب ليكون نموذجا من المصادر التي تبحث في المناهج العلمية عند المسلمين.

فصل المقال:

ففي مجتمعات العولمة، أصبح كل شيء خاضعا للدراسة والتحليل، حتى العلوم الإنسانية التي تخضع لها القضايا الفكرية والثقافية، أضحت اليوم توازي المختبرات التي تخضع لها العلوم التجريبية، إن لم نقل أنّها تخضع لأكثر دقة واهتمام.

وإذا ما اكتفى المسلمون اليوم بمواقف الرفض والإدانة، للاستشراق والاعتماد على المواقف العاطفية اتجاه الإسلام، فلا مأمن لنا من شرّ الغرب والشرق، فالخطط المدروسة، والوسائل الفعّالة والمحاولات الجادة لتقديم البديل الفكري الصحيح والعمل الجماعي الجاد، لغربلة هذا الكم الهائل من إنتاج المستشرقين والإفادة من العقلية التي أنتجته، لوضع معالم واضحة على إنتاج فكري معاصر يوازيه، تحفه من جميع جوانبه تعاليم الكتاب والسنّة، وليس الأقوال الفكرية البشرية، ولا أن نقفز على كلّ ذلك الكم الهائل الّذي مثّله تراثنا الفكري بدعوى التناول المباشر من المصدرين المعصومين دون امتلاك القدرة على ذلك.

ومن جهة أخرى لابدّ من التخلي عن اختلاق معارك قديمة انتهت بأصحابها وأهدافها وأسلحتها وزمانها، والحفاظ على الهوية يستلزم الولوج إلى الحاضر وما يدور فيه، والمستقبل وما يخطط له، وإلا نكون قد سوّقنا لأفكار المستشرقين ولو عن حسن نية، وأكبرنا من أشخاصهم دون حسابات دقيقة، فملامح الهوية الصحيحة يرسمها الفعل الإيجابي الّذي يستطيع تخطي دائرة رد الفعل السلبي.

الهوامش:

[1] – أ.د. السيد محمد الشاهد، الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين، نشرة الاجتهاد، عدد 22، شتاء عام 1414هـ/1994م، ص197 ، نقلا عن الأستاذ الدكتور مازن المطبقاني، مدير مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، في مقاله " الاستشراق والمستشرقون".

2 – د. فاروق عمر، الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى)، دار الآلية للنشر، عمان، الأردن، ص30

3 – د. عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1995، ص 13

4 – إدوارد سعيد، الاستشراق (المعرفة . السلطة . الإنشاء)، ص 37

5 – ينظر: د. عبد الحميد مدكور، نظرات في حركة الاستشراق، دار الثقافة العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1990، ص ص: 11–12

6 – ينظر، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، ط1، 2007، ج2، ص 274، وسمعت منه أيضا هذا الكلام على هامش المؤتمر الوطني حول تعليم اللغات في الجزائر ووسائل ترقيته، أيام 02–04 نوفمبر 2009 بالمعهد العالي للتسيير والتخطيط بالجزائر.

7 – ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح، ج2، ص 25

* – مهدت أفكار دي سوسير المتجلية في اللسانيات البنوية فيما بعد لظهور عدة مدارس فكرية لسانية أهمها:

– المدرسة الوظيفية (fonctionnelle) مع رومان ياكبسون (1896–1982)، وأندري ومارتيني (و 1908)

– المدرسة النسقية (glossématique) مع يامسليف (1899– 1965)

– المدرسة التوزيعية (distributionnelle) مع بلومفيلد (1887– 1949)

– المدرسة التوليدية (générative) مع نعوم تشومسكي (و 1928)

– المدرسة التحويلية (transformationnelle)مع ز.س. هاريس (و 1909)

8 – ينظر، مبادئ اللسانيات البنوية – دراسة تحليلية إبستمولوجية– د. الطيب دبة، منشورات جمعية الأدب للأساتذة الباحثين، الجزائر، ط1، 2001، ص 54

9 – ينظر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح، ج2، ص 272

10 – ينظر: المرجع نفسه، ص 272، الهامش 12

11 – ينظر:المرجع نفسه، ج2، ص 275–276

12 – ينظر، صلاح النّبراوي، هارون الرّشيد الخليفة المفترى عليه، دار البشير للثّقافة و العلوم، طنطا، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص 294.

13 – ابن خلدون، المقدمة، الفصل الثالث والعشرين، ص 63،.

14 – أنور الجندي، آفاق جديدة للدعوة الإسلامية في عالم الغرب ص 15–16 وكذلك خير الدين هني الرد على شبهات المستشرقين، مطبعة ع. بن، ط1، 2005، ص 25–26

15 – د. إسماعيل عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، دار حزين، عمّان،ط2، 1992، ص ص: 25 – 26.

16 – ينظر، صلاح النّبراوي، هارون الرّشيد الخليفة المفترى عليه، دار البشير للثّقافة و العلوم، طنطا، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص 294.

17 – ينظر، سعيد إدوارد، الاستشراق، (المعرفة . السلطة . الإنشاء)، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص 80.

18 – لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، 25

19 – ينظر، سعدي بزيان، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم – قراءة في الفكر الاستشراقي ومصادره–، جريدة البصائر، أسبوعية لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد 537، الإثنين 25 ربيع الأول– 1 ربيع الثاني 1432 هـ/ 28 فيفري –6 مارس 2011م، ص 7

20 – ينظر، سعدي بزيان، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم – قراءة في الفكر الاستشراقي ومصادره–، ص 7

21 – الحديث رواه الإمام الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم: 2611، ورواه الإمام ابن ماجة، كتاب الزهد، باب الحكمة، رقم: 4159

22 – سورة الشورى، الآيتان: 49–50

23 – محب الدين الخطيب، الحديقة (مجموع أدب بارع وحكمة بليغة)، المكتبة السلفية، القاهرة، ودار العاصمة، الرياض، ط1، 2011، مج 2، ج 6، ص 634.

24 – د. محمود ماضي، الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط1، 1416هـ / 1996م، ص 19

25 – جريدة الخبر اليومي، الجزائر، العدد 6340، الجمعة 25 جمادى الأولى 1432 هـ الموافق لـ 29 أفريل 2011، ص 18.

26 – ينظر، كاري مولر، الظاهرة القرآنية، ترجمة أورخان علي، دار الكلمة، المنصورة، القاهرة، مصر، ط1، 2004.

27 – ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص55

28 – سورة الصف، الآية 8

29 – ينظر، سعدي بزيان، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم – قراءة في الفكر الاستشراقي ومصادره–، ص 7.

* – وقد أجاد وأفاد الأستاذ الدكتور مازن المطبقاني في كشف وسائلهم، فهو صاحب باع في مجال الاستشراق، ولمن أراد التوسع في وسائلهم عليه الرجوع لموقع مركز المدينة للدراسات والبحوث في الاستشراق على شبكة الإنترنيت، لصاحبه الأستاذ الدكتور مازن المطبقاني.

30)– تقدم لنا تجربة طه حسين وتبنيه لمنهج الشك تطبيقا على الموروث العربي القديم صورة لا غبار عليها لما قدّمناه في هذا الطرح إلى جانب أبواق دعاية سلامة موسى ولطفي السيّد.

31)– الاستلاب الحضاري: قد يعني الانبهار بما يقدّمه الغرب من أفكار عقدية وفلسفية وفكرية.

32)– تضم قارة أمريكا وحدها حوالى 10 آلاف مركز بحث ودراسات خصّص قسم كبير منها للبحث في شؤون العالم الإسلامي.

33)– ينظر: بحث د.عبد العظيم محمود الديب: (المنهج في كتابات الغربيين عن تاريخ الإسلامي)–كتاب الأمّة– مطبعة الخليج– ط2– 1980– ص38–39.

34)– حينما وطأت أقدام المسلمين أروبا فدخل أهلها في دين الله، خرج من أصلابهم كثرة من العلماء الّذين جاهدوا بالكلمة الطيّبة والقول المستنير.

35)– محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى الثقافتنا– سلسلة كتاب الهلال– القاهرة– 1987– ص73–74.

36)– محمّد قطب: مذاهب فكرية معاصرة– دار الشروق– القاهرة– 1983– ص97.

37)– أكايتاني: حوليات الإسلام– ترجمة محمد عبد الغني شامة– مكتبة وهبة– القاهرة– ط2– د.ت– ص11.

38)– ينظر كتابه مبشرات الإسلام عن مجلة الأمّة القطرية– العدد 24– ص32.

39)– ينظر محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، ص132.

40)– عبد العظيم محمد الديب: المنهج في كتابات الغربيين في التاريخ الإسلامي– ص53.

41)– المرجع نفسه– ص54.

42)– جريدة الأهرام المصرية الصادرة بتاريخ 18 سبتمبر 1982.

43)– مالك بن نبي: تأملات– دار الفكر– بيروت– 1979– ص26.

44)– ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي– ترجمة عبد الرحمن بدوي– دار الغرب الإسلامي– بيروت– 1981– ص6.

45)– المرجع نفسه– ص19.

46)– حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي– المكتبة البولسية– بيروت– ط10– 1980– ص920.

47)– عز الدّين اسماعيل في الأدب العباسي– الرؤية والفنّ– دار النهضة العربية– بيروت– 1975– ص8–9.

48)– نقلا عن كتاب محمود محمد شاكر: أباطيل وأسمار– دار الشروق– 1983– ص29.

49)– نقلا عن كتاب محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا– سلسلة كتاب الهلال– القاهرة– 1987. ص98.

50)– عائشة عبد الرحمن: المنهج النقلي عند علماء المسلمين– مجلة الباحث– المغرب– 1974– ص5.